القرآن نسخة شخصية

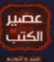
أحمد خيري العمري

XXXXXXXX

Remember me

Forgot your password?

LOGIN



القرآن: نسخة شخصية



الكتـــــاب: القرآن نسخة شخصية

المـــؤلـــف: أحمد خيري العمري

تنسيق داخلي: سمر محمد

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيـــداع: 2020/2756

I . S . B . N: 978-977-992-108-4

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

القرآن: نسخة شخصية

د. أحمد خيري العمري





الفهرس





إهداء

إلى قارئ «مجهول»

يشعر أني كتبت هذا الكتاب له شخصيًا.



مقدمة

هذا ليس كتاب تفسير، ولا يجب أن يكون كذلك بالنسبة لأي شخص؛ لذلك فهو لا يغني ولو قليلًا عن أي كتاب تفسير سواءً من أمهات الكتب أو من الكتب المعاصرة، ويهمني جدًّا أن أؤكد ذلك وأكرره؛ لأن معاملته ككتاب تفسير سيكون خطأً فادحًا، كما أنه سيأخذ من الكتاب هدفه الأساسي.

هذا الكتاب مثل هوامش كتبها شخص ما وهو يقرأ القرآن ويحاول أن يتفاعل مع حياته اليومية عبره، فيكتب كيف ساعدته الآيات على فهم العالم المحيط به، وكيف يتعامل مع هذا العالم، ومن البديهي جدًّا أن هذا الأمر شخصيٌّ جدًّا، ويمكن لشخص آخر يمر بظروف مغايرة أن يكتب أشياءً أخرى مختلفة تمامًا، كما يمكن للشخص نفسه في ظروف أخرى أن يتأثر أكثر بمواضع أخرى، وهكذا.

رغم ذلك، فإن تجربة تفاعل شخصي مع القرآن يمكن أن تكون مفيدة لكثيرين، فبعض التجارب قد تكون مشتركة بين كثيرين، كما أن الاطلاع على تجربة من هذا النوع قد يساعد على أن يكون للقارئ تجربته الشخصية الخاصة به في التفاعل مع القرآن، مع الأخذ بنظر الاعتبار ما سبق من أن هذا الكتاب وأي تجربة مماثلة ليست «تفسيرًا»، وبالتالي لا تُغْنِي عن كتب التفسير.

***

بدأت فكرة الكتاب على شكل منشورات على الفيسبوك في رمضان، كانت الفكرة هي أن تكون «ختمة رمضان» مختلفة، وبنوع من التدبر الذي يجعل من تجربة الختمة الرمضانية التقليدية أكثر تفاعلاً وتأثيرًا في شخص الذي يقرأ القرآن.

قبلها بسنوات، كانت أصواتنا تتعالى منتقدةً حرص البعض على «عدد الختمات» في رمضان دون محاولة التدبر أو التفكر.

للأسف، انتهى الأمر بأن خسرنا «قراءة الختمة»، ولم نربح التدبر.

هناك جيل جديد لم يعد يحرص على «ختمة رمضان»، أو أي ختمة في أي وقت.

هذا الكتاب محاولة لربح الاثنين معًا.

***

المنشورات في «صيغتها الأولى» كُتِبَت تحت وسم «القرآن ٣٦٠ درجة»، وهو العنوان الذي كنت أقصد عبره أن تكون الرؤية المقدَّمة هي رؤية شاملة للسورة عبر تجوال في داخلها، كما لو كنت أنظر لها عبر زاوية نظر ٣٦٠ درجة.

لكن مع الوقت، بَدَا لي أن ما أفعله أقرب إلى أن يكون نسخة شخصية منه إلى شمولية الرؤية للسور القرآنية؛ لذا فقد فضلت أن يكون العنوان مختلفًا؛ ليعبر أكثر عن المحتوى.

حدث تغيير على المنشورات بطبيعة الأمر، وما نُشِرَ على الفيسبوك يومها ليس ما يُنْشَرُ في هذا الكتاب بالظبط.

***

ملاحظتان عليَّ أن أسجلهما هنا:

الأولى: الكتاب لا يغطي كل السور القرآنية، بل يغطي الأجزاء الـ ٢٧ الأولى، أي بداية من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة الحديد.

السبب في ذلك أن أغلب السور في الأجزاء الثلاثة الأخيرة (وحتى بعض السور في الجزء السابع والعشرين) ذات طبيعة مكثفة في المعاني؛ مما يجعل التفاعل معها (بالنسبة لي على الأقل) أطول من سواها، وأخشى أن هذا سيجعل حجم الكتاب أكبر على نحو يعوق تحقيقه لهدفه، فقراءة كتاب «كبير الحجم» إلى جانب القرآن سيكون أمرًا مستبعدًا بالنسبة لكثير من الشباب، بينما سيكون الأمر مقبولًا أكثر إذا بَدَا حجم الكتاب متوسطًا.

أقول هذا وآمل أن تكون هناك فرصة للعودة إلى الأجزاء الثلاثة الأخيرة.

الثانية: حجم السورة ومساحتها وعدد آياتها لا يؤثر بالضرورة على حجم ومساحة التفاعل الشخصي معها؛ لذا ربما يكون التفاعل المكتوب مع سورة متوسطة الحجم أو قصيرة نسبيًّا أكبر حجمًا أو مساويًا لتفاعل مع سورة من طوال السور، وقد يعود هذا بشكل أساسي إلى طبيعة التفاعل الشخصي التي تتفاوت بين موضوع وآخر، وبالتالي بين سورة وأخرى.

شخصيًّا أعرف أن لا يوجد «عدد كافٍ من السطور» للتفاعل مع أي سورة من سور القرآن، من أقصر سورة فيه إلى سورة البقرة؛ لذا لا يجب وضع أي اعتبار للعدد أو الحجم هنا.

أقدم عملي هذا وأنا أعرف أن لا شيء يمكن أن يفي القرآن حقه من التفاعل، لكن هذا ما استطعته، فما كان فيه حسن فمن توفيق الله وفضله، أما التقصير فهو من طبيعتي البشرية.

أسأله تعالى أن يصحح نيتي في عملي هذا، وأن يغفر لي ما فيه من زلل.

تعميم

كل سور القرآن تحتوي على ثلاثة عناصر أساسية في نسيجها؛ مثل الحجر والإسمنت والحديد في البناء، تتكامل مع بعضها لتشكّل «البناء» أو «النسيج» الذي سيضم أشياءً أخرى لاحقًا.

هذه العناصر الثلاثة لا تكاد تخلو سورة في القرآن منها مجتمعة، باستثناء القليل من قصار السور التي قد تقتصر على عنصر واحد أو اثنين من هذه العناصر.

هذه العناصر الثلاثة هي:

أولًا: صفات الله - عز وجل - وقدرته وخلقه لنا ولكل ما هو موجود.

ثانيًا: رسالته إلى البشر عبر كتبه وأنبيائه ورسله.

ثالثًا: البعث بعد الموت، الحساب، الجزاء: الثواب والعقاب.

هذه العناصر مبثوثة في كل سور القرآن على نحوٍ يجعلها جزءًا من نسيج القرآن نفسه، مثل جدران البيت أو بابه أو سقفه، لا يمكن تخيل بيت دون وجود هذه المكونات، كذلك هذه العناصر بالنسبة للقرآن، هناك بالتأكيد مواعظ وعِبَر وأمثال أخلاقية في سور القرآن غير هذه العناصر، كذلك لا تتكون البيوت من سقوف وجدران وأبواب فحسب، بل تحتاج بعد البناء إلى مكملات أخرى ليكون البيت قابلًا للحياة فيه.

هذه العناصر الثلاثة هي من بديهيات أي مسلم مؤمن، ولعل كونها بديهيات مرتبط أساسًا بكونها جزءًا من النسيج القرآني على هذا النحو.

بالنسبة لمسلم مؤمن بهذه البديهيات فإن تفاعله الشخصي مع القرآن سيكون «مقادًا» بهذه البديهيات، ولكن تفاعله الأساسي سيكون غالبًا مع غير هذه العناصر، أي مع خصائص ميزت كل سورة عن سواها.

بعبارة أخرى، هذه العناصر تكون مثل العوامل التي تؤثر على حدوث تفاعل ما أو سرعته دون أن تكون أساسًا عنصرًا من عناصر التفاعل (مثل الحرارة والضغط).

لذلك فإن التفاعل الشخصي مع هذه العناصر الثلاثة لن يكون شديد الوضوح في هذا الكتاب، رغم أنها تقود التفاعل وتؤثر به وتحيط به من كل الجهات.

مَنْ لديه مشكلة في واحدة من هذه العناصر الثلاثة لن يستفيد كثيرًا من هذا الكتاب، وعليه أن يبحث عن حل لمشكلته أولًا في كتاب آخر.

سورة الفاتحة ا

عين على العالم

بها يُفتَتحُ القرآن.

ويمكن لها أن تفتح عينيك، تفتح قلبك، تفتح عقلك.

تفتحك نحو رؤية مختلفة للعالم.

الفاتحة مثل مقدمة أو استهلال للقرآن، كل ما تقرأه في القرآن سيمر أولاً بهذه المقدمة، كل معنى يأتي في القرآن سيكون محكومًا منضبطًا بما تقوله المقدمة.

ليس هذا فقط، هذه المقدمة، ستكون ركنًا من أركان صلاتك، لا تصح صلاة من دونها، وهذا يعني أن كل مسلم «ملتزم بفرض الصلاة» «يقول» الفاتحة «١٧» مرةً في اليوم كحد أدنى.

ماذا نقول في الفاتحة؟ لقد تعودنا الأمر حتى صرنا نقولها دون تفكير فيما تعنيه.

لكن لو فتحنا أعيننا عليها لرأينا الكثير.

***

ثمة إصرار على رؤية الإيجابية.

الفاتحة تبدأ بالحمد، الحمد هو فاتحة الفاتحة ومبتدؤها، والحمد هو الثناء لله مستحق الحمد، وعندما تقول الثناء والحمد له ١٧ مرة في اليوم - كحد أدنى - فهذا يعني أنك متمسك بالإيجابية، بالأمل، رغم أن كل شيء قد يكون قاتمًا في منتهى السوء، رغم أنك قد لا ترى أي ضوء في الظلام المحيط بك، رغم أن كل شيء حولك قد لا ينذر إلا بالسوء والمزيد منه، وأنت مدرك لذلك بكامل وعيك دون تخدير أو تزييف، لكنك تقول: «الحمد لله»، إيجابية رغم الوعي بالسلبيات.

تجد ما تثني عليه، تجد ما يستحق الحمد عند مستحق الحمد، وتؤكد على ذلك ١٧ مرة في اليوم في عمود دينك، كما لو أن هذا الحمد هو عمودك اليومي الذي يمنحك القوة والدعم في رحلة أهوالك كل يوم.

كل يوم، مهما كان وضعك صعبًا، فإنك تقف لتشهر «الحمد» بوجه هذا العالم وظروفه وأوضاعه.

هذا الحمد مرتبط في الفاتحة بثلاث صفات لله عز وجل، من بين كل صفاته وقدراته - عز وجل - الفاتحة تحدد ثلاث صفات فقط: رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

رب العالمين يعني أنه رب الجميع حرفيًا، رب الفقراء والأغنياء وأيضًا أولئك الذين في الوسط، رب الأصحاء والمرضى، رب المتعلمين والجهلة، رب النساء والرجال والأطفال والشيوخ، رب الناجحين والفاشلين، رب المشهورين والمغمورين، رب البشر من كل الأعراق والألوان، رب المؤمنين

به ورب الذي لا يؤمنون به على حد سواء، أحيانًا ننحاز إلى الوهم أنه ربنا نحن فقط، لكن الفاتحة تؤكد لنا أنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٧ مرة كل يوم.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ٣)

صيغتان لوصف رحمته عز وجل، سيكون هناك الكثير للتفريق بين الكلمتين، لكن هذا الكثير سيقول لنا: إن رحمته تتخذ أشكالًا متعددة أكثر بكثير من محاولاتنا لحصر رحمته التي كتبها على نفسه، قد تعجز أحيانًا عن فهم هذه الرحمة، لكن عليك أن تمنح نفسك وقتًا، وستفهم ذلك لاحقًا، ستفهم أنها كانت رحمة بطريقة ما، رحمة على المدى البعيد وليس على قصر نظرنا الذي يجعل للرحمة شكلًا واحدًا، علينا أن ننظر إلى الصورة الكبيرة أحيانًا لنفهمَ الرحمة، لا يكفي أن نشاهد أجزاءً من الصورة لنحكم عليها، علينا أن نحاول قدر الإمكان مشاهدة الجزء الأكبر منها.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)

يعني أن المنتهى له، وهذا المنتهى يعني أن كل شيء له، وهو يعني أيضًا أنه ليس رحمانًا رحيمًا فحسب، بل هو عادل أيضًا، وعدله يتحقق في يوم الدين.

هو إذن رب الجميع، رحمن رحيم، وعادل أيضًا.

***

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)

كل ما نفعله في حياتنا يمكن أن يندرج في هذين الأمرين، عبادتنا له، واستعانتنا به.

العبادة والاستعانة قطبان كقطبي المغناطيس، وبينهما مجال فاعليتنا في الدنيا ونجاتنا في الآخرة، كل قطب يحتاج الآخر، دون الاستعانة (والتي تعني أن لديك ما تفعله أصلًا في حياتك وتطلب العون منه فيه)، دون وجود هذه الاستعانة، ستكون عبادتك منزوعة الهدف والفاعلية.

ودون وجود العبادة، لن تكون استعانتك حقيقية، الاثنان معًا، قطبان يتحدان فيولّدان الحركة.

أول «استعانة» نطلبها منه تأتي سريعًا في «الفاتحة»، هي الطلب منه أن «يهدينا الصراط المستقيم»، وهذا الطلب يعني ضمنًا أنك ترغب في معرفة هذا الصراط، في كل خطوة في حياتك، في كل مفترق طرق هناك خيار، وأنت تطلب منه - عز وجل- أن يرشدك للطريق الصواب، وهذا يعني أيضًا أن الطريق الصواب، الصراط المستقيم، ليس محتكرًا عندك كما يتوهم البعض، بل أنت تطلبه ١٧ مرة في اليوم كحد أدنى.

وأنت أيضًا تعرف أن هناك مَنْ أخطأ الطريق قبلك، لكن الخطأ دومًا يكون من طريقين: الأول هناك مَنْ أخطأ عامدًا متعمدًا، مع سبق الإصرار والترصد؛ المغضوب عليهم، وهناك طريق آخر للخطأ غير العامد، حصل ولكنه لم يحدث بنية مسبقة؛ الضالين.

وأنت تؤمن بإمكانية وجود طريق ثالث غير هذين الطريقين، طريق الذين أنعمت عليهم بنعمة المراجعة والتقييم في كل خطوة على الطريق، ١٧ مرة في اليوم.

الفاتحة، فتح كل يوم، تساعدك في تحقيق فتحك الأكبر، تفتح قلبك وعقلك وذاتك وعينك لتساهم في عالم أفضل، ولو كان هذا العالم هو عالمك المحيط بك فقط.

أو على الأقل لتكون أكثر وعيًا به.

الفاتحة، فتحك اليومي، ١٧ مرة كحد أدنى[(١)].

(١) للمزيد : الجزء الثالث من سلسلة كيمياء الصلاة للمؤلف، بعنوان: عالم جديد ممكن.

سورة البقرة ٢، الجزء الأول
الصراع المرير مع الأمر الواقع المر

سورة البقرة هي سورة «الصراع المرير مع الأمر الواقع المر»، سورة مواجَهة حقائق الأشياء مهما كانت مريرة ومؤلمة وجارحة، موقعها في بداية القرآن الكريم يجعلك مباشرةً في مواجهة مع حقائق الأشياء هذه كلما فتحتَ القرآن لتقرأ فيه، لا شيء يزيف صعوبة الواقع ويُجَمِّله، ولا شيء يقول لك: إن الأمر استثنائي وإنك تعيش في مرحلة سيئة بتفرُّد ويجعلك تحنُّ لزمان آخر، لا، هذه هي الحياة بكل روعتها وبشاعتها، وهؤلاء هم البشر بكل سموهم وسقوطهم، وهذا أنت أيضًا، بكل سموك الذي تركز عليه وكل سقوطك الذي تتجاهله، هذه هي الحياة وهذا هو الأمر الواقع، لديك خياران: الأول أن تتعامل مع هذا الواقع، والثاني أن تتجاهله، وأنت مَنْ يقرر.

سورة البقرة مثل نشرة أنباء مليئة بأخبار الكوارث الطبيعية وغير الطبيعية؛ ظلم واستبداد واغتصاب وقتل وسفك للدماء، نشرة الأنباء هذه كانت على مدار تاريخ البشرية كله، أغلب فترات التاريخ كان فيها من هذا الكثير، ليس الأمر خاصًا بعصرنا ولا عصر نزول السورة، دومًا هناك فرعون ما بأسماء مختلفة وأشكال مختلفة، ودومًا هناك «بنو إسرائيل» أيضًا بأسماء مختلفة، ودومًا هناك محاولات إصلاح من قِبَلِ البعض،

ودومًا هناك محاولات لمحاربة هذا الإصلاح، ودومًا هناك من يدَّعي أنه يُصْلِحُ بينما هو يفسد في الحقيقة.

ما قد يثير استغرابك في نشرة الأنباء هذه أنها تبدأ بخبر عن نفوس الناس، النفوس التي آمنت والنفوس الأخرى، نفوس الختم على القلب والسمع والبصر، الخبر الأول سيُفَرِدُ الكثير عن هذا، عن المفسدين الذين يدَّعون الإصلاح، عن الذين يستهزئون ويخادعون، عن أولئك الذين يتبعون كل ضوء لامع يمر ولو للحظات دون بوصلة أو خطة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة ٨: ١٢)

لماذا خبر الأنفس هذا مقدَّم على كل الأخبار الأخرى: فرعون وظلمه وما يفعل بالناس، في نشرات الأخبار العادية التسلسل معكوس، البداية تكون بأخبار الكوارث، ثم يأتي الحديث عن خبر الأنفس في نهاية النشرة.

لكن ليس مع سورة البقرة، لماذا؟!

ببساطة لأن الخبر الأول أهم، الخبر الأول هو الذي يحدد كيف ستتصرف وتتعامل مع كل ما يلي من أخبار، الخبر الأول هو الذي يقول: إن كنت ستكون فرعونَ بطريقة ما، فرعونَ في بيتك مع مَنْ حولك أو في عملك، أو عونًا له، أو أنك ستكون في الجهة المقابلة.

سترى صورًا لأشخاص كثيرين في السورة، أشخاص عرفتهم وخبرت طباعهم، سترى في سورة البقرة أشخاصًا يبيعون كلام الله بثمن بخسٍ، تراهم كثيرًا للأسف في الواقع.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة: ٤١).

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

سترى ظلمًا واستبدادًا، وسترى المظلومين يصبحون ظالمين أيضًا، أحيانًا بنفس دور الظالم الذي ظلمهم، وأحيانًا بأنواع أخرى من الظلم، فالظلم أنواع.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة ٤٩: ٥١).

سترى الشراهة والطمع وكفر النعمة.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

وسترى القلوب القاسية أشد قسوةً من الحجارة، رأيتها في الواقع كثيرًا، أو على الأقل سمعت عنها، ثم وصفتها لك سورة البقرة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (البقرة: ٧٤)

وسترى من يقول لن يدخل الجنة سوانا، احتكرها لمن يشبهه ويوافقه.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)

وتستغرب من تشابه المنطق مع من تراهم حولك وينادون بنفس الأفكار وإن كانت مع أسماء أخرى، هل هو التاريخ يكرر نفسه؟ أم هي الطبيعة البشرية تقع في نفس الأخطاء مرة بعد أخرى؟

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠)

تأخذنا السورة أيضًا إلى خبر آخر من الأنفس: كل فئة لن ترضى عنك إلا إذا أصبحت تابعًا لهم تمامًا، تندمج بهم دون حدود في الهوية تميزك وتحمي تميزك، لكن هل رضاهم مهم أساسًا؟ لا تريد رضاهم، تريد رضا ربهم وربك ورب الجميع، وكل ما تطمح منهم هو أن يتقبلوك فحسب، لا أن يرضوا عنك.

***

تذكرك سورة البقرة أيضًا ألَّا تفرح كثيرًا بقائمة عيوب بني إسرائيل أو سواهم، يمكن أن ما رأيته فيهم ينطبق عليك دون أن تنتبه، ربما أنت

من تخطر في ذهن أحدهم عندما يقرأ سورة البقرة، انتبه لذلك، انظر لعيوبك قبل عيوب الآخرين، عيوب الآخرين هم أَوْلَى بإصلاحها، أما عيوبك فهي في متناول يدك، أم أنها أصعب من أن تكون كذلك؟

مع كل ذكر لبني إسرائيل، السورة لا تتحدث لك عنهم لمجرد الحديث التاريخي عنهم، بل لأنهم النموذج الذي يمكن أن ننزلق جميعًا إلى تكرار أخطائهم، ولو دققنا قليلًا فينا؛ لوجدنا أن ذلك حدث ويحدث فعلًا، من العجْل الذي أُشْرِبَ في قلوب البعض -كما أُشْرِبَتْ أشياءٌ أخرى- إلى رؤية الله جهرةً، كل ذلك بمعانٍ وأسماء مختلفة، حتى التيه الذي دخله بنو إسرائيل، يبدو أننا قد دخلنا في تيه مماثل، أو أن بعضنا على الأقل قد فعل.

***

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

تأخذك السورة إلى أصل الحكاية وبدايتها، سترى آدم وهو يتسلم منصب الاستخلاف والملائكة تتساءل عن أهليته للمنصب، وتلمِّح إلى إمكانية أن يسفك الدم، وستتذكر أن الحياة الإنسانية في أحيان كثيرة قدمت معطيات قد تبدو أنها لصالح الملائكة في تساؤلهم هذا، يكاد «الواقع المعاصر» يكون مصداقًا لما قالته الملائكة، أو على الأقل هذا ما يبدو لنا الآن.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (البقرة: ١١٥).

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۞ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (البقرة ١٢١: ١٢٣).

سترى آدم يزلُّ، ومن ثم يتوب، ويهبط إلى الأمر الواقع، وسترى أبناءه بعضهم لبعض عدو حتى الساعة، وسترى نفسك في زلة أبيك آدم، أنت أيضا زللتَ وأخطأتَ وهبطتَّ مما يجب أن تكون عليه إلى واقعك الذي تعلمه جيدًا، فهل تبتَ؟

قصة سيدنا آدم هي قصتنا جميعًا، نحملها معنا أينما كنا، إنها حكايةُ كل يوم التي تتكرر بأشكال مختلفة، المهم في الأمر هو كيف تنتهي هذه الحكاية.

***

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧)

ستلفت نظرك «البقرة» هنا، ما الذي جاء بها إلى هنا؟ ولماذا هي مهمة لهذه الدرجة بحيث إن السورة أخذت اسمها؟ ستتأمل في الحكاية، الله يأمر بذبح بقرة، أمر بسيط واضح، ولكن تنهال الأسئلة: لونها وزنها عمرها، إلخ، أسئلة لا علاقة لها بالمقصد من الذبح، ولكنها تعكس التنطُّع والتكلُّف في تنفيذ الأوامر الشرعية.

ألا يذكرنا هذا بشيء؟ هل يمكن ألَّا يذكرنا هذا بشيء؟

للأسف، البقرة اليوم موجودة مع كل أمر شرعي، هناك عند كل أمر شرعي من يتعامل معه كما تعامل بنو إسرائيل مع البقرة ويسطر فيه الكتب ويبني عليه الفتاوى والخلافات والاختلافات، اسم السورة يذكرنا بالتركيز على مقاصد العبادات، يحذرنا من مغبة التكلف والتنطع بها، ونحن سقطنا في نفس الفخ بالضبط، كما لو أن السورة توصينا بذلك!

***

وستذكرك «البقرة» هنا بمشكلتنا في التعامل مع «التضحية» عمومًا.

البعض يركز على «التضحية» - خصوصًا على تضحيته هو - أكثر من تركيزه على نتائج هذه التضحية.

البعض يتعامل مع «تضحيته» كما لو كانت مُنْجَزًا عليه أن يذكره في سيرته الشخصية حتى لو لم يحقق شيئًا من هذه التضحية.

أصبحت التضحية هدفًا، بدلًا من أن تكون وسيلة إلى الهدف.

وسورة البقرة تحذرنا من هذه التجارة؛ لأن نتائجها سيئة.

***

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ١٢٧، ١٢٨)

وكما أخذتنا السورة إلى أبينا آدم وزلته، تأخذنا أيضًا إلى أبينا إبراهيم وهو يبني البيت، كما لو أنها تقول: إن إصلاح الخطأ والصراع مع الأمر الواقع يكون بالبناء على قواعد صحيحة وثابتة.

وسترى أن مشهد رفع البناء يُعْرَض بصيغة الفعل المضارع (... يرفع)، كما لو أنه يفتح الباب لتشارُك إبراهيم وابنه في رفع البنيان.

وسيتدخل ارتفاع القواعد مع دعاء إبراهيم لذريته، العائلة هي ما يجب أن يُحْمَى بالبنيان، هذا هو جوهر الارتفاع الحقيقي.

سورة البقرة ٢ - الجزء الثاني

الصراع المرير مع الواقع المر لا يزال مستمرًا

يستمر الصراع المرير مع الأمر الواقع المر، ولكن تواصل سورة البقرة منحنا إشارات تساعدنا في هذا الصراع، تقول لنا: إن هذا جزء من طبيعة الحياة نفسها، وان صعوبة هذا الصراع جزء من الامتحان الذي علينا اجتيازه في الحياة الدنيا.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٤)

تأخذك السورة من حيرتك وارهاقك في صراعك إلى وجهه الشريف - عليه الصلاة والسلام - وهو يتقلب في السماء بحثًا عن «قِبْلَة» يتوجه لها، كما لو أنها تخفف من عناء صراعك قليلًا، يذكرك الأمر بشكل ما بكل الحيرة التي مررتَ أو تمر بها، بل يذكرك بحيرة الجيل كله وهو يمر بمنعطفات تاريخية دون أن يجد «قِبْلَةً يرضاها».

كم من أناس ضاعوا وأضاعوا لأنهم لم يجدوا قبلةً، هدفًا، اتجاهًا يمكن لبوصلتهم أن تساعدهم في الوصول إليه، وتذكرنا الآيات بأننا في كل مفترق نحتار فيه؛ علينا أن نتجه إلى ذات القبلة، إلى ذلك البيت الإبراهيمي الذي رأينا رفع قواعده قبل قليل في نفس السورة، والذي كانت الصيغة المضارعة تدعونا للمشاركة في البناء.

تذكرنا هذه الآيات بضرورة أن نُعيدَ ضبط بوصلتنا بين الحين والآخر لتعود إلى «إعدادات المصنع» الأولية والأساسية؛ لنزيل ما تراكَمَ عليها من صدأ وغبار.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة. ١٨٣)

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧).

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة: ١٥٨).

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾(البقرة: ٢٣٨).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢١٩)

سنرى في نفس السورة الأمر بالصيام وتعليماته، وأيضًا سنرى شيئًا من شعائر الحج، ومن إقامة الصلاة، ومن أوامر نهي واضحة محددة، فيذكرنا كل ذلك ببقرة بني إسرائيل وما فعلوه معها من تنطُّع وتكلُّف

في الأسئلة، وتفكّرْ: البعض منا فعل الشيء ذاته مع كل هذه الشعائر: في الصلاة، في الصيام، في الحج، في كل ركن من أركان الإسلام، بل في كل أمر شرعي، هناك من يقف نفس موقف بني إسرائيل من البقرة، والسورة تذكرنا: إياك أن تغرق في التفاصيل بحيث تنسى الهدف والمقصد من الأمر الشرعي.

وكثيرًا ما يحدث مع الأسف.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۞ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ١٧٨: ١٨١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾(البقرة:٢٨٢)

هذا الصراع المرير مع الأمر الواقع المر سيتطلب وجود قوانين تنظم الأمر الواقع وتخفف من مرارته قدر الإمكان، الحياة ليست نزهة في بستان، ومواجهتها بالشعارات أمر لطيف في البداية ولكن مآلات النهاية تزيد المرارة، سيكون هناك قصاص، وسيكون هناك وصية تُترَك لحفظ الحقوق، سيكون هناك من يظلم في الوصية، وسيكون هناك من عليه أن

يتدخل لمنع الظلم، وسيكون هناك ديون بين الناس، وكاتب بالعدل ينظم ذلك، فالمدينة الفاضلة مجرد وهم لا وجود له، والطبيعة البشرية تتطلب توثيقًا كهذا.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ٢١٦)

سيكون هناك قتال أيضًا، رغم أنه ﴿كُرْهٌ لَكُمْ﴾، لكنها الحياة بواقعيتها، ليست نزهة، وتتطلب المواجهات مهما كرهنا ذلك، وستذكرك السورة بأن الأصل في الأمر هو أنك تكره «القتال»، وأن الأمر ليس كما يروِّجُ البعض كما لو أننا خُلِقْنَا لنقاتل، لكنه الاضطرار ومواجهة الأمر الواقع المر هو الذي يجيز القتال وليس أي شيء آخر.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ٢٣١)

سيكون هناك زواج وخلافات في الزواج تقود إلى الطلاق، أمر مؤسف بالتأكيد، ولكنه يجب أن يُنَظَّمَ ويُقَنَّنَ، وضع ضوابط لهذا الأمر سيقلل حتمًا من خسائر الطلاق، ومواجهة الواقع عبر تشريعات تقلل الخسائر أفضل بكثير من منع الطلاق بشكل قاطع.

***

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

في خضمِّ كل هذا الصراع المرير تأتي آية الكرسي كما لو أنها جاءت لتريحك من الصراع قليلًا، تربِّتُ على كتفيك وتقول لك أن تستريح هنا من كل هذا الذي مررتَ به، تشير لك إلى ملكوت الله وقدرته وعلمه الذي يفوق كل قدراتنا على التخيل، ستشعرك الآية بأنه عز وجل يعرف كل هذا الذي تمر به، ويعرف ما سيحدث لاحقًا، مجرد معرفته بذلك ستمنحك بعضًا من الطمأنينة والسكينة، لست وحدك تمامًا في هذا الصراع، هو الذي لا يغفل عنك لحظة واحدة، وسيذكرك ذلك بآية سابقة، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ دومًا ننسى هذا الجزء من الآية، نركز على ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وننسى ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾.

الشيء ذاته مع آية الكرسي.

سنرتاح بعلمه الذي لا يغيب عنه شيء، لكن هذا لا يحدث بحفظ «آية الكرسي» منفصلة عما قبلها وبعدها من وصايا وأوامر، بل عندما نأخذ كل شيء حزمة واحدة.

***

بعد طمأنينة آية الكرسي ستأخذك السورة فورًا إلى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، كما لو أنك تحتاج أن تستوعب هذه الآية وما تقوله بعد أن تكون قد استرحتَ وأخذتَ أنفاسك قليلًا عند آية الكرسي.

ستذكر كم من الإكراه مُورِسَ باسم هذا الدين الذي قال ألَّا إكراه في الدين، كل أمر شرعي تعرَّض لإكراه بدرجة أو بأخرى، وستلاحظ أن الرشد هو ذاته في اللا إكراه، وفي الآية التي تحدثت عن إجابة دعوة الداع ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾صدفة! حاشا لله.

لكي تفهم اللا إكراه حقًّا، وتمارسه حقًّا، وتمنع الإكراه باسم دين اللا إكراه، عليك أن تكون راشدًا أولًا.

***

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ستأخذك السورة أيضًا إلى أبيك إبراهيم وهو يسأل ربه عن إحياء الموتى لكي يطمئن قلبه، وستتذكر كم قلوبًا كتمت حاجتها إلى الطمأنينة وقمعت أسئلتها كي لا توصَمَ بالكفر والابتداع والجحود، ستتمنى لو أنك تستطيع أن تحتضن أباك إبراهيم، وتهمس في أذنه بمخاوفك وقلقك، لكن يكفيك منه أن قال هذه الكلمات وأنه هنا في السورة، أنت لك الحق أيضًا أن تبحث عن طمأنينة قلبك وعقلك، وليس لأحد أن يمنعك من أسئلتك وتساؤلاتك في الطريق إلى الطمأنينة.

***

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة: ٢٨٦)

وفي آخر كل هذه الملحمة من الصراع مع الأمر الواقع، ستأتي كلمات الخاتمة في السورة لتربِّتَ عليك، هل تعبتَ؟ هل أرهقك هذا الأمر الواقع؟ لا بأس، هذا طبيعي، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، يمكنك أن تطلب ألَّا يؤاخذك الله إن نسيتَ أو أخطأتَ، يمكنك أن تقول: إن بعض الأمور لا طاقة لك بها، وتطلب منه عز وجل ألَّا يحمِّلَكَ فوق طاقتك، افعل ما في وسعك، ولكن كن على بصيرة بهذا الواقع المحيط بك، حاولْ أن توسع مما في وسعك بالتدريج، بحيث يتناسب مع ما كُلِّفْتَ به.

سورة آل عمران ٣

عن جبر الخواطر المكسورة

سورة آل عمران هي سورة «جبر الخواطر» بامتياز.

لكن جبر الخواطر هذا لا يكون بكلمات ترضية ومواساة كما تعوَّدنا من جبر الخواطر أن يكون، بل تفعل السورة ذلك عبر تزويد خاطرك المكسور بجبيرة وعي يخرجك من لحظة الانكسار الراهنة إلى «الصورة الكبيرة» التي قد تغيب عن أذهاننا أحيانًا، خاصةً في لحظة ألم الانكسار والمعاناة.

كيف ذلك؟

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

تشير لك السورة منذ بدايتها أن تتجه إلى «أم الكتاب» وتُعرِض عن المتشابه الذي يشوِّش عليك، كما لو أنها تقول لك أن تركز على مجمل الصورة الكبيرة وتترك التفاصيل التي تلهيك عنها.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ٩).

وتذكرك بأن نهاية القصة هي في يوم قادم حتمًا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وليس في أيام عابرة جعلك ألمها يوهمك أنها النهاية.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٢)

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران ٢٦: ٢٧)

تقول لك السورة: إن الفصول تتغير، والدوائر تدور، وإن ما يبدو منتصرًا عزيزًا في مرحلة ما قد ينتهي خاسرًا ذليلًا في نهاية المطاف، تقول لك السورة: إن شهوات الحياة مباحة وجميلة، لكن لا تكسر نفسك بأن تحصر نفسك فيها، فثَمَّ ما هو أكثر من ذلك في هذه الحياة، تقول لك: إن المحك هناك في أفق أبعد لكنه حقيقي، ستنبهك إلى دوران العالم والملك والمال والسلطة والجاه بين الناس، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، فلا تغتر كثيرًا بعزك فهو عابر، ولا يحزنك عز مَنْ أذلك أو ظلمك فهو عابر كذلك، لا شيء يدوم من هذه الأمور.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران ٣٥: ٣٦).

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران ٣٨: ٤٠).

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران ٤٧)

سيعرفك جبر الخواطر على أسرة بسيطة فقيرة، وامرأة تنذر طفلها القادم بعد طول انتظار، تبدو الأمور صعبة بالنسبة لها عندما يأتي الطفل أنثى، فليس الذَّكر كالأنثى، لكن جبر الخواطر يأخذ هذه الأنثى إلى مكانة غير مسبوقة بين العالمين، وتأخذك السورة مرة أخرى إلى شيخ يكاد أن يفقد الأمل في صبي له، لكن جبر الخواطر من جديد يحقق له ما بَدَا مستحيلًا، تأخذك السورة إلى مريم وقد فهمتَ أنها ستلد من غير زواج ومن غير أن يمسَّها بشر، أي كدر وانكسار هذا الذي سيحدث معها، لكن جبر الخواطر يقودها إلى طريق آخر مختلف تمامًا، وسنرى مكرهم يحيق بابنها لاحقًا، ولكن النهايات ستجعله فوقهم على نحو غير مسبوق.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧١).

وقد يكسر خاطرك أن ترى أهل الكتاب يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، ولكن هذا يجب أن يذكرك أنه خطر محدق حتى بك، بكل من يزعم أنه يحمل «الكتاب»، كل الطرق التي ضلوا عبرها هي

طرق يمكن أن تضل أنت عبرها أيضًا؛ لذلك فخاطرك لا يُجْبَرُ بأن ترى «نهاياتهم»، بل بأن تعي بأخطائهم التي يمكن أن تقودك أيضًا إلى نفس النهايات، كل الأمثلة التي تتحدث عن أخطائهم لم تأتِ لكي تفاخرهم بها، بل لكي تتجنب الوقوع فيها.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)

في عز انكسارك ستقول السورة لك: إنك من خير أمة، لكن لن يتركك تستعمل ذلك كأفيون يخدرك عن واقعك، بل سيجعله جبيرة وعي: الأمر مشروط، فهل أديت شروطه؟ أن تأمر بالمعروف وتنهَ عن المنكر يعني أيضًا أن كلمتك يجب أن تكون مسموعة، أن لك مكانة تجعلك «قدوة»، وأنك مثال لما تأمر به وتنهى عنه، فهل أديت هذه الشروط لكي تحقق هذا الانتماء؟

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣).

تأخذك السورة إلى أعلى لحظات عزك، إلى لحظة النصر في بدر، فيريك ما جعلك النصر تنساه، ويقول لك: لقد كنت ذليلًا كسيرًا، لكن سارت الأمور إلى عاقبة أخرى مختلفة تمامًا، جبرَ النصر كسرَك وما كنت فيه من ذل، وتغيرت نظرتك لنفسك ونظرة الناس إليك.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران ١٣٩: ١٤٠).

ثم تأخذك السورة إلى كسر كبير، إلى يوم أُحُد، فتربّت على كتفيك كما لو أنك كنت هناك، إنه حال الدنيا، تتغير الفصول، تلك الأيام نداولها بين الناس، مرة لهؤلاء ومرة لأولئك، لكن لا سواء بالضرورة حتى لو تشابهت الظروف، فالمهم أن تكون العاقبة مختلفة.

تقبض عليك السورة في لحظة انكسار هائل، هوان وحزن، وتقول لك: إنك الأعلى.

ثم مرة أخرى تجعل ذلك مشروطًا، إن كنت مؤمنًا.

بل إن جبر الخواطر يأخذك حتى إلى كسر لم يحدث، لكنه كان محتملًا، كسر كبير جدًّا، أن يُقْتَلَ الرسول – عليه الصلاة والسلام – نفسه.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

جبر الخواطر يقول لك هنا: إن العاقبة في الثبات.

***

في حياة كلٍّ منا يوم بدر، وفي حياة كل منا يوم أُحُد، وجبل تم تحذيرنا منه، وطعنة مؤلمة في الظهر، وهزيمة موجعة مفجعة، وخواطر مكسورة.

ولكن هناك أيضًا سورة آل عمران، تأتيك لتجبر كسرك وتطيِّب جرحك وتمسح دمعتك، كان الصراع مريرًا في «سورة البقرة»، ولا بد أنه تضمَّنَ كسرًا ككسر يوم أُحُد، أو أيام أُحُد؛ لذلك تأتي بعدها سورة آل عمران؛ لتجبر ما كُسِرَ.

آل عمران يأتونك خصيصًا ليهمسوا في أذنيك: هذا يحدث دومًا، انظر إلى الصورة الكبيرة، إلى العاقبة، إلى النهاية التي تضم كل النهايات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وتنتهي السورة بخطة للخروج من كسر الخاطر، خطة لجبر الخاطر: اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا.

الصبر داخلي، بينك وبين نفسك، وقد يبدأ بهذا الوعي جبيرة الكسر، والمصابرة خارجية، تجاه الأمر المحيط بك، ولا يمكن أن يحدث ما لم يبدأ من الصبر، ويكون تفاعلًا بينك وبين مَنْ حولك أيضًا، تصبِّرهم ويصبِّرونك.

والمرابطة مواجهة ما أودى بك إلى ما كسرك.

وخلال كل ذلك: التقوى.

سورة النساء ٤

عن المستضعفين في الأرض

ورغم أن اسمها سورة النساء، إلا أنها ليست فقط عن النساء، إلا أنها عن كل المستضعفين في الأرض؛ النساء واليتامى والمساكين، كل من يمكن أن يكون عرضة للاستغلال.

لكن هذه السورة ليست لذرف الدموع على هؤلاء ولا حتى للحث على التعاطف معهم، فهؤلاء يحصلون أصلًا على الكثير من التعاطف الذي لا يُسْمن ولا يُغْني من جوع، بل هي ببساطة لتغيير أوضاعهم، وتغيير هذه الأوضاع لا يحدث بالمواعظ ولا بالنوايا الحسنة فقط، بل بالقوانين، بتغيير الأوضاع التي قادت إلى استغلال ضعفهم، ولأن الاستغلال الأكبر كان يأتي عن طريق جعل هؤلاء في حالة حاجة «مادية» فإن أول خطوة كانت في كسر هذا الوضع وتغييره.

تخليصهم من «العَوَزِ المادي» وجعلهم «مستقلين» ماليًّا هو أول خطوة في هذا.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧)

﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١)

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢)

بعد أن كانت المرأة عند أغلب قبائل العرب تورَثُ كما يورَث المتاع عندما يتوفى عنها زوجها[١]، أصبحت شريكًا في الإرث كما الآخرين، وسيتغير بذلك حساب إرث الجميع، أول دروس إزالة الاستضعاف تأتي هنا تحديدًا، توفير الاستقلال الاقتصادي، الكفاية الاقتصادية على الأقل، وسيتجاوز ذلك الأمر الزوجة إلى البنت والأخت أيضًا، وحتى صغار الذكور الذين كانوا لا يرثون سابقًا؛ لأنهم لا يعتبرون عند القبيلة قوة مهمة ما داموا غير قادرين على حمل السيف حسب أعراف العرب[٢]، الآن الأمر اختلف، لقد أُعيدَ رسم كل شيء، وضمن ما رُسِمَ كانت تلك الحدود التي تفصل بين الضعف والاستضعاف، حدود الله، لم يعُدْ من السهل استغلال وضع المرأة أو اليتيم ما دام قد أصبح شريكًا، سماها القرآن حدود الله، ﴿تِلْكَ حُدُودُ

(١) صحيح البخاري ٤٥٧٩

(٢) المفصل في تاريخ العرب، الجزء ٩ صفحة ٨٠

الله وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء: ١٣)

لماذا الحديث عن المرأة يكاد يهيمن على سورة تتحدث عن المستضعفين في الأرض؟ لأنها ببساطة مظلومة المظلومين، هناك طبقات أو فئات كثيرة تتعرَّض للظلم، رجالًا ونساءً، لكن النساء في هذه الطبقات تتعرَّض لظلم مركب، ظلم يعمُّ فئتها ككل، وظلم يخصها يضاف إلى الظلم الأول.

﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء ٢٨: ٢٩)

السورة تقول لنا: إن الإنسان خُلِقَ ضعيفًا، لكنها تفرِّق بين هذا وبين استغلال هذا الضعف، بين الاستضعاف، والأمر لا يخص النساء فقط، ولا اليتامى والمساكين فقط، كل منا مرشَّح لأن يكون مستضعفًا في مرحلة ما، في منعطف ما من حياته، قد يتعرض لظلم، لمن يأخذ حقه، لظلم من شخص أشد قوةً يستغل قوته، دومًا الاستضعاف مرتبط بظلم ظالم يستغل ضعفًا ما.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾(النساء: ٥١)

وبعض هذا الظلم يكون من قِبَل مؤمنين أيضًا لكنهم مؤمنون بنصيب من الكتاب، بأمور فيه توافق هواهم، ويؤمنون معه بالطاغوت الذي قد يكون «الأنا» في أعماقهم، وهذا ما يجعلهم يظلمون، بل وقد يكون ظلمهم باسم الدين!

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

ستقول لنا السورة: إن تغيير وضع هؤلاء يستحق أن يكون في مصافّ القتال في سبيل الله، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾، إنها سورة كل المستضعفين وليس النساء فقط.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٤)

نعم، ربما هناك اختلافات بين الذَّكَر والأنثى، لكن ليس عند رب العالمين، ليس في فعلهم للخير، السورة تساوي بين الذَّكَر والأنثى في عمل الخير، وتؤكد أن الجميع سواسية عند الحَكَم العدل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)

وتقول لنا السورة: إن العدل والقيام بالعدل وحده هو الذي يمكن أن يزيل الاستضعاف في الأرض، وهذا لا يمكن أن يحدث بالشعارات ولا بالدعوة لذلك ولا حتى بتغيير مفاهيم الناس فحسب.

بل يجب أيضًا أن يُقَرَنَ بالقانون.

ولذلك عندما تنتهي السورة فهي تنتهي بحكم آخر من أحكام الميراث، في آية الكلالة، كما لو أنها تقول: إن كل الحديث عن القسط والعدل يجب أن يُقَيَّدَ بقانون، يجب أن يُقَنَّنَ، يجب أن يجد ما يحميه ويحققه.

***

فلنتذكر هنا أن منح الحقوق للمرأة أو لأي مستضعَف في الأرض، ليس منحة ولا منة من أحد، بل هو واجب، بالضبط هو إرجاع الحق لصاحبه، الذي قد لا يعرف أصلًا أنه حقه!

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨)

***

في منتصف السورة نجد هذا الحوار الذي لا يمكن إلا أن يجعلنا نفكر بكل شيء حتى النهاية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧)

إذن المظلوم قد يكون ظالمًا أيضًا.

تُسْمِعُكَ حوارًا بين الملائكة وبين فئة «ظالمي أنفسهم»، هؤلاء لم يظلموا سواهم، بل ظلموا أنفسهم، تقول لهم الملائكة: فيم كنتم؟! ظلم الآخرين مفهوم؛ لأنه غالبًا ينبع من الطمع والجشع، لكن أن تظلم نفسك حقًّا، فيم كنتم؟!

فيرد عليهم هؤلاء بالقول: إنهم كانوا مستضعفين في الأرض، كانوا مظلومين.

فيأتي رد الملائكة المنطقي صادمًا: ألم تكن أرض الله واسعة؟!

يصدمنا الرد، نعم، أرض الله كانت واسعة، لكن عقولنا في أحيان كثيرة تكون أضيق من أن تستوعب هذا، فتتمسك بما يجعل الأرض ضيقة، ويجعل خياراتك قليلة، لقد كنت ظالمًا لنفسك عندما استسلمتَ لظلمهم لك، الظلم أنواع، والبقاء في مكان تكون فيه مظلومًا ظلم.

الأمر صادم، مظلوميتك التي ربما كانت «عذرًا» تبرر به أمورًا كثيرة قد تكون دليلًا ضدك.

ثم تأتي آية بعدها تخفف الأمر قليلًا، فهناك مَنْ لم يستطع فعلًا الخروج إلى أرض الله الواسعة، فهذا أيضًا يتطلب قدرًا من القوة.

***

سورة النساء ليست عن النساء فقط، بل عن الإنسان ككل، لا يمكن فصل قضية المرأة المظلومة عن قضية الرجل المظلوم.

سورة النساء عن الإنسان...الإنسان المظلوم والإنسان الظالم،... والإنسان الظالم باستسلامه للظلم.

المائدة ٥

الطبيعة البشرية بلا تجميل ولا فوتوشوب

سورة المائدة هي سورة «الطبيعة البشرية» بلا رتوش ولا مجاملات، تأخذك السورة لتُجْلِسَكَ على مائدة واحدة مع الطبيعة البشرية وجهًا لوجه، وتضع لك النقاط على الحروف بحيث يبدو كل شيء في أقصى حالات وضوحه.

تبدأ السورة بمطالبة المؤمنين بالالتزام بعقودهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة: ١).

وكل ما يلي سيبين لك أن الحياة كلها يمكن أن تكون مجموعة من العقود التي ينبغي الالتزام بها، وأن الطبيعة البشرية تحتاج إلى أن يكون هناك «عقد» أولًا، ومن ثَمَّ تحتاج إلى أن تلتزم ببنود هذا العقد، دون وجود عقود ملزمة تميل الطبيعة البشرية إلى أن تتمادى، إلى أن تتجاوز، إلى أن تذهب إلى أسفل ما فيها وأكثر جوانبها ظلمةً.

سيبدأ الأمر بوجود عقد أو تشريع يخص الطعام ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾، وسيكون هناك تعليمات أخرى تخص الطعام تمنع الميتة والدم ولحم الخنزير، وأخرى تحرِّم أوضاعًا معينة لأنعام هي حلال بالأصل.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (المائدة: ٣)

لكن لماذا هذا الأمر مهم جدًّا لدرجة أن السورة تبدأ به؟

ببساطة لأن الإنسان «مضطر» إلى طعامه كي يستمر بالحياة، لا شيء سيغير هذه الحقيقة، وعندما تترسخ عنده فكرة وجود عقد يحتوي على ممنوعات ومسموحات في طعامه، ويعتاد عليها وعلى الالتزام بها، فإن فكرة العقد نفسها والوفاء بالعقد ستتكرس أكثر وأكثر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢) سيكون هناك عقد يخص «شعائر الله» و«الشهر الحرام» والصيد في الحرم، حتى في الحرب هناك «عقد» يجب أن يوفى به، حتى مع ظلم البعض هناك التزام بعقد أن تعدل معهم، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

هذه العقود أو التشريعات التي قد تبدو بسيطة هي نموذج مصغر للميثاق الأكبر، لعهد وعقد أكبر على الإنسان أن يوفي به ويلتزم به، والسورة تتدرج معنا في فهم ذلك؛ من عقود يومية سهلة في الأداء (فيما يخص الطعام مثلًا) إلى ما هو أكبر وأشمل.

***

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۞ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة ١٢: ١٣).

تأخذنا سورة المائدة إلى ميثاق بني إسرائيل الذي نُقِضَ بقسوة قلوبهم وتحريفهم لمقاصد كتابهم (قسوة القلب وتحريف المعاني، هل يذكرنا هذا بشيء؟)

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:١٤).

وتأخذنا أيضًا إلى ميثاق النصارى الذي نُقِضَ بتفرقهم وبغلوهم في السيد المسيح، (هل يذكرنا هذا بشيء مجددًا؟)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:١٨)

ومرة أخرى: بتوهم كلٌّ من الطرفين أن محبة الله حصرية له فقط، وهذا أيضًا، (هل يذكرنا بشيء؟ أليس هذا نمطًا قابلًا للتكرار؟ ألم يسقط بعض منا في هذا المطب أو ذاك أو في الاثنين معًا؟)

***

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة ٢٤: ٢٦)

تأخذنا سورة المائدة أيضًا إلى تيه بني إسرائيل، أربعين سنة يتيهون في الأرض نتيجةً لنقضهم الميثاق، فتكاد ترى في هذا التيه وجوهًا كثيرة تعرفها، بل قد تفكر مع نفسك أنك ربما وُلدتَ في التيه وكبرتَ في التيه ودرستَ في التيه، وتخرَّجْتَ في مدرسة التيه وانتسبتَ لجامعتها، وتزوجت لتنجب أطفالًا في التيه أيضًا، وكل ذلك دون أن تعرف أنك في التيه، بل ربما كنت تتوهم أنك على صراط مستقيم، أنك على الطريق الصواب.

إنها الطبيعة البشرية عندما تكون بلا ميثاق ولا عقد ولا بوصلة، ستتيه، ستكون مرصودة للتيه.

***

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة ٢٧: ٣٠).

من أرض التيه ستأخذنا السورة إلى أصل القصة: إلى أول جريمة في تاريخ الطبيعة البشرية، عندما قتل قابيل هابيل، الدافع؟ الغيرة، الحسد،

الطمع، نوازع موجودة في الطبيعة البشرية، وعندما يُنْزَعُ اللجام عنها، يمكن أن تقترف أي شيء، حتى أن يقتل الأخ أخاه.

يمكن أن تذهب الطبيعة البشرية إلى هذا المدى من السوء، تاريخ البشرية مصداق على ذلك، نشرات الأخبار مصداق على ذلك.

لذلك كان لا بد من أن تكون هناك حدود واضحة، عقوبات رادعة، لكن من يتخطى بنود العقد والميثاق، ستذكر الآيات عقوبات مشددة بحق من يفسدون في الأرض ويقطعون الطريق.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة ٣٢: ٣٣).

وعقوبات أخرى بحق من يرتكب جرائم السرقة.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة:٣٨).

قد يعدها البعض قاسيةً، لكنها الطبيعة البشرية للأسف، إن لم تُلْجِمْهَا بردع وقوة، سيحدث معها التمادي بكل أشكاله، القصاص لا بد منه ليس لعقوبة «المجرم» فقط، ولكن لمنع مجرمين كامنين آخرين في الطبيعة البشرية من الظهور.

تلك الطبيعة البشرية عندما تكون بلا عقد ولا رادع، تكون هي «الجاهلية» بعينها.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠)

الجاهلية هي أن تترك الطبيعة البشرية بلا تهذيب ولا تعليم ولا التزام برادع أو قانون، وستحتوي على تدرجات واسعة وتشمل أناسًا يدَّعُون أنهم ضد الجاهلية وأنهم يحاربونها وأنهم إنما يريدون حكم الله، لكنهم في الحقيقة التطبيق العملي لمعنى الجاهلية الأعمق.

البعض منهم سيتنازل عن إنسانيته ويرتد إلى مستوى حيواني في السلوك (القردة والخنازير) كما سيقول القرآن، والبعض منهم سيعبد (الطاغوت).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة:٦٠)

والبعض سيدَّعي بخل الله برحمته على العالمين؛ ليبرروا بخلهم هم ويجعلوه مقدسًا.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة:٦٤).

الطمع، أكل الحرام، العداوة والبغضاء، كلها ستكون صفات للطبيعة البشرية وهي تتخلى عن عقودها وعهودها وتتحايل عليها، وسيأتي في هذا السياق تحريم «الخمر والميسر والأنصاب والأزلام»

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٩٠).

فالخمر تحديدًا تخفّف من سيطرة الإنسان على نفسه، وهذا يمكن له أن يُبْرِزَ فيه أسوأ ما فيه، والميسر والأنصاب والأزلام «تحرك» دافع الطمع عند الإنسان، الربح المبني على محض «الحظ» لا على الجهد والعرق، وهذا أيضًا قد يبرز فيه أسوأ ما فيه.

تنتهي السورة بالحواريين وهم يطلبون المزيد من السيد المسيح، إنها الطبيعة البشرية التي لا تكف عن الطلب، حتى عند المؤمنين، هذه المرة الطلب هو مائدة من السماء، وسيتحقق طلبهم كطلب أخير لا حجة بعده.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة ١١٢: ١١٣).

***

نزلت مائدة السماء على حواريي السيد المسيح، أما المائدة التي أُنْزِلَتْ لنا فهي مائدة مواجهة مع النفس ومع الطبيعة البشرية، مائدة نواجه فيها تاريخ ما مضى وتجاربه المريرة، مائدة تقلب الطاولة على الكثير من الأوهام فيما يتعلق بالطبيعة البشرية.

وجهًا لوجه مع أنفسنا، على تلك المائدة، نعم، نحتاج إلى قوانين رادعة، إلى تشريعات ملزمة، وإلا فإن هناك دومًا قابيل يقتل هابيل، وأرض التيه محيطة بنا في انتظارنا، نحتاج أن نكون صادقين مع حقائق الطبيعة البشرية «المؤسفة» لكي نقر باحتياجاتها، نحتاج الصدق في مواجهة ذلك الصدق.

تنتهي السورة بآية تقول لنا: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

للخروج من التيه، ولكي نمنع قابيل من آخر من أن يقتل هابيل مجددًا.

سورة الأنعام ١

أهم علاقة في حياتك

سورة «الأنعام» هي عن أهم علاقة لك في حياتك.

ليست عن علاقتك بشريكك أو شريكتك أو أمك أو أبيك أو أولادك.

ولا حتى عن علاقتك بنفسك.

بل عن علاقتك بمن أوجدك.

عن علاقتك بالله خالقك.

السورة هي أول سورة مكية من طوال السور؛ لذا فهي بلا حديث عن تشريع أو عقود، لا وجود للمنافقين فيها، ولا شيء عن اليهود، وهي أمور لمسناها في السور السابقة التي كانت كلها قد نزلت في المدينة.

السورة نزلت في مكة، وهي تأخذك عمليًّا إلى النبع الأول، إلى مرحلة الإنشاء.

هكذا تسلسل الأمر: في سورة البقرة كنتَ في خضمِّ الصراع المرير مع الواقع، في سورة آل عمران كان جبر الخواطر، في سورة النساء كانت هناك القوانين التي تزيل الاستضعاف عن المستضعفين في الأرض، في سورة المائدة جلستَ وجهًا لوجه مع الطبيعة البشرية وتعرَّفْتَ على مخاطر ألَّا يكون هناك ما يلجمها ... ما يوقفها عند «حدودها».

الآن بعد أن اجتزتَ كل هذا، تصل إلى العلاقة الأهم في حياتك.

لماذا ليس قبل هذا؟ ألا يفترض أن تركز على هذه العلاقة قبل كل شيء؟

ليس بالضرورة، فكل ما سبق يمكن له أن يشوش عليك في علاقتك تلك، صراعك المرير مع الواقع من حولك ومع الكسر الذي فيك ومع الاستضعاف ومع طبيعتك البشرية يمكن له أن يؤثر سلبيًّا على كل علاقاتك، حتى العلاقة الأهم؛ لذا فتسلسُل سور القرآن يجعلك «تحلّ» قضاياك العالقة أولًا، أو على الأقل تصبح أكثر وعيًا بها، قبل أن يُدْخلك إلى السورة التي تأخذك إلى العلاقة الأهم في حياتك، طبعًا هذا لا يعني أن ما سبق كان خاليًا من هذه العلاقة، لا بالتأكيد، فكل ما في سور القرآن يرتبط بهذه العلاقة بطريقة أو بأخرى، لكن الحديث هو عن أهم وأبرز ما داخل «السور» في كل سورة.

***

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١)

تبدأ هذه السورة بما بدأ به القرآن كله: بالحمد، هذه العلاقة الأهم في حياتك ستبدأ دومًا من ناحيتك بالحمد، مهما كان ومهما حدث، الحمد، لكنك تمر أحيانًا بما يجعل هذا صعبًا.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام ١١: ١٢).

ستأخذك السورة في رحلة تتفحص فيها كل شيء، وفي نهايتها سيكون الحمد نتيجة طبيعية.

ستُخْرِجك السورة من عالمك الضيق الذي قد يستثقل الحمد إلى عالم أكبر بكثير، إلى الكون والخليقة بأَسْرِها: السماوات والأرض، الظلمات والنور، مهما كانت «الأنا» عندك متضخمة بورم من أورام الذات، فتذكيرك بحجم الكون سيجعل الأنا تنكمش ولو قليلًا، تذكيرك بطينك الأرضي ليس للتقليل من شأنك، بل لأنها الحقيقة التي نتساها أحيانًا، بل نتساها دائمًا بينما ننساق إلى التكذيب والجدال بحق وبغيره.

تأخذك سورة الأنعام إلى الأرض، تسير بك لتتجول فيها عبر مقطع عرضي يدرس تاريخًا وينظر في مصائر أممها، وتأخذك إلى هذا الكون المصنوع بدقة، كم تبدو صغيرًا عندما تقارن نفسك فيه، لكن السورة لا تدعك تقلِّل من شأنك وتنساق في ذلك، بل هي تقول لك أيضًا: إن خالق هذا الكون قد أمرك أن تكون أول مَنْ أسلم له، أول المسلمين.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:١٤).

الخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي تنزَّل عليه الوحي، لكنه بطريقة ما موجَّه لك أيضًا، يمكنك أن تكون الأول في شيء ما، وهذا أمر من خالقك، تأخذك السورة في مسيرة في صفاته عز وجل، هو الذي يكشف عنك الضر، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، عنده مفاتح الغيب ويعلم كل شيء، ليس بينك وبينه إلَّا أن تتأكد من أنك لستَ من هؤلاء.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام: ٢٥)

ستأخذك سورة الأنعام بينما ثمة مواساة للرسول عن كل ما يقوله المكذبون فتجد نفسك قد اقتربت أكثر من دواخله الشريفة الكريمة، هو يحزن إذن مثلنا جميعًا، ربما لأسباب أخرى غير تلك التي نحزن لأجلها، لكن الحزن واحد، مواساة الآيات له -عليه الصلاة والسلام- ستواسيك أيضًا بغضِّ النظر عن سبب حزنك، ستقول لك السورة: إن كل دواب الأرض ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وعليك أن تتذكر هذا فربما تحتاجه لاحقًا، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨).

***

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ٧٤: ٧٩)

ثم تأخذك السورة إلى حوار إبراهيم وأبيه، وتلك الليلة التي قرر فيها إبراهيم أن يواجه معبودات قومه.

الكوكب، أهوَ هوَ؟ هل هذا هو الإله الخالق؟ لكنه قد أفل، وإبراهيم لا يحب الآفلين، الفطرة السليمة لا تحب الآفلين، المنطق البديهي لا يحب الآفلين.

ثم جاء القمر، وهو يبدو أكبر، وكرر إبراهيم أسئلته، لكن القمر أفلَ أيضًا، وإبراهيم لا يحب الآفلين، ثم ها هي الشمس أكبر، هل تكون هي؟ لكنها أَفَلَتْ أيضًا، وإبراهيم يعي أن الإله الحق لا يأفل قط، ولا يدخل أصلًا في مقاييس الكِبَر، الله أكبر لأنه أكبر من هذه المقاييس، ووجَّه إبراهيم وجهه لفاطر السماوات والأرض، اكتشف بداهة الخالق ووحدانيته بعقله قبل أن يتنزل عليه الوحي، وفتح لنا الدرب كي نوفق بين عقلنا وإيماننا، تلك الليلة لا تزال تشع نورًا يمكننا أن نتلمسه ونتحسسه كلما حاصرتنا ظُلْمَةُ الشك والتشكيك وظلمة الجمود والظلاميين[1].

***

وكما ساح إبراهيم في ملكوت الله بعقله تأخذنا السورة إلى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ و«مخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي» ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، صفات الله في خلقه وأثرها على خلقه، وكلها تقودك إلى أن تكتشف أن علاقتك به - عز وجل - هي أهم ما يمكن أن تُنْشِئه من علاقات في حياتك وبعد حياتك.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

(١) للمزيد: البوصلة القرآنية، للمؤلف.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام ١٣٨: ١٣٩).

لماذا الأنعام؟ تشير السورة في أكثر من موضع إلى تلاعب المشركين في علاقتهم بالأنعام وتقسيمها، مرة يقسمونها لتكون محرمة على الإناث، ومرة تكون فقط لسدنة الأوثان، مرة يُذْكَرُ عليها اسم الله ومرة أسماء الأوثان.

لكن هذه الأنعام لم تكن مجرد أنعام، كانت دعامة من دعائم الاقتصاد آنذاك، كانت مثل «رأس المال»، ولو فكرنا قليلًا لوجدنا أن هذا التلاعب برأس المال عبر الدين وعبر الشعارات الدينية التي تُظْهِر الورع وتُبْطِن الربح في التجارة.

السورة تنبهنا إلى ذلك، وما كان اسمه أنعام يومًا ما، يمكن أن يكون اسمه المال، أو رأس المال اليوم، أو أي صيغة وشكل من صيغه وأشكاله.

ليس هذا فقط، فضعف علاقتك به عز وجل لن يقود فحسب إلى أن تتورط في استغلال الدين لتحقيق الربح.

لكنه يمكن أن يقودك إلى أن تكون أنت أيضًا جزءًا من «عملية التربح» التي يديرها البعض، أن تكون كالأنعام التي يربحون عبر التلاعب بمقدراتها.

علاقتك به – عز وجل – هي الفيصل الفارق الحاسم بين أن تكون أنت، وأن تكون من الأنعام، كلها في النهاية «أمم أمثالكم»، لكن الإنسان لديه خيار آخر: ألَّا يكون كالأنعام.

***

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ١٦١: ١٦٣)

تنتهي السورة بذلك الاكتشاف الذي أنار شعلته سيدنا إبراهيم أول مرة، وأكمله سيدنا محمد. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ١٦٢: ١٦٣).

لا يزال هذا الأمر مضيئًا، ولا يزال يمكنه أن ينير ليالي شكّك وحيرتك، وتكتشف ذلك الأول الكامن فيك.

﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟ تتساءل الآيات في خاتمة السورة بعد أن قادتنا من «الحمد» إلى فالق الحب والنوى وخالق السماوات والأرض مرورًا بليلة إبراهيم.

يكون الجواب: لا، ليس غير الله.

أهم علاقة يمكن أن تحصل عليها في حياتك؛ هي علاقتك به عز وجل.

أمر لا يمكن أن يحصل للأنعام.

سورة الأعراف ٧

الأنا في النحن

إذا كانت سورة الأنعام هي عن علاقتك الشخصية بالله عز وجل، فإن السورة التي تليها - «سورة الأعراف» - هي عن علاقتك بمجتمعك.

هكذا انتقلنا من ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ و﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ و﴿أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ و﴿جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ في السور السابقة إلى «يا بني آدم» (تكررت ٤ مرات) و«أهل القرى» (٣ مرات) و«أمة» (خمس مرات)، علما أن هذه التكرارات هي الأكثر بين سور القرآن.

والعلاقة بين الأمرين (الفرد - المجتمع) مهمة ومتشابكة ومعقدة، الصلاح الفردي مهم، وهو محور مهم من محاور سورة الأنعام.

ولكن هل الصلاح الفردي ممكن أصلًا إذا كان المجتمع يسير باتجاه آخر؟ هل النجاة الفردية ممكنة إذا كان المجتمع سفينة هائلة الحجم تغرق ببطء في عرض المحيط؟

هذا ما يمكن أن تساعدنا فيه سورة الأعراف.

***

تبدأ السورة بمدخل يعيد لنا قصة أبينا آدم (من الآيات ١١ - ٢٥) منذ سجود الملائكة لآدم إلى خروجه من الجنة، فيكون ذلك مدخلًا لكل ما ستأخذنا إليه السورة من نداء لنا بصفتنا أبناء آدم.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ٢٦: ٢٧).

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأعراف:٣١)

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف:٣٥).

الخطاب هنا للمجتمع (بني آدم)، لكننا دخلنا إليه من قصة فرد (آدم) يمكن أن نتمثل تجربته في كل حياتنا.

الأعراف نقلتنا من «الفرد» - آدم - وتجربته كفرد إلى تجربة «أبناء آدم» المجتمعية التي تستفيد من تجربة هذا الفرد.

من الأنا إلى النحن.

***

انتقلنا هنا من سورة الأنعام التي قدَّمَتْ لنا سيدنا إبراهيم «منفردًا» في تلك الليلة التي أعلن فيها أنه لا يحب الآفلين، إلى سورة الأعراف التي قدَّمت لنا الأنبياء: (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) ومَنْ معهم من المؤمنين وهم يحاولون إصلاح مجتمعاتهم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:٥٩).

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ٦٥).

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٧٣).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:٨٠).

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥).

هذه السورة بالمناسبة هي أول سورة تعرض هذه القصص في القرآن حسب ترتيب القراءة (التوقيفي والمختلف عن تسلسل النزول)، ورد ذكر بعض هؤلاء الأنبياء كأسماء في سور سابقة من التي مررنا عليها، مثل

سورة النساء ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، لكن قصص الأنبياء هؤلاء وردت أول مرة «حسب الترتيب» في سورة الأعراف، أي إننا لو لم نكن نعرف عنهم شيئًا إلا من القرآن؛ لكانت سورة الأعراف هي أول مرة نتعرف فيها على «قصص هؤلاء الأنبياء».

لكن هذه ليست قصص أنبياء فحسب، هذه قصص معاناتهم مع أقوامهم ومجتمعاتهم في سبيل إصلاحها، كل القصص التي ذُكِرَت هنا في الأعراف هي قصص دعوتهم لأقوامهم، وكلها قصص انتهت بخروج الأنبياء والمؤمنين من مجتمعاتهم، وتعرُّض هذه المجتمعات للدمار.

هذا باختصار هو ما حدث في كل القصص التي ذُكِرَت لأول مرة في سورة الأعراف، الرسالة هنا واضحة، لا نجاة فردية، لا يمكنك أن تنجو بمفردك بينما يذهب مجتمعك إلى القاع، عليك أن تحاول كل ما في وسعك، وهذا وحده يمكنه أن يعطيك تذكرة نجاة، قارب نجاة تقفز به ومن معك من السفينة الغارقة.

الأمر ثقيل وصعب حتمًا، الأمر هنا ليس أن تؤمن شخصيًّا فقط، بل أن تمد يدك لتساعد الآخرين في إيمانهم، وكثير منهم لا يرغبون بذلك أصلًا، هل هذا يفسر ما ابتدأت به السورة؟

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٢).

فلنتذكر هنا أنك عندما تدخل قصص الأنبياء وهلاك أقوامهم في سورة الأعراف، ثم تأخذك السورة بعدها إلى ما مرَّ معك سابقًا من قصة فرعون وموسى، فإنك لا تعود تنظر إلى القصة كما في السابق، الآن

أصبحت تعي أن موسى خرج بكل قومه، استطاع أن يأخذهم جميعًا في قارب النجاة، لم يكن الأمر كما حدث في قصص الأنبياء الآخرين الذين تعرَّض أقوامهم للهلاك إلا مَنْ معهم من المؤمنين، هنا استطاع موسى أن يأخذ كل قومه معه، كما لو أنك ستعيد فهم قصة سيدنا موسى من جديد على ضوء التجارب النبوية الأخرى وبالمقارنة بها.

***

ستأخذك بعض الآيات إلى منطقة شخصية وعامة في الوقت نفسه، إلى حيث تتجاور الأنا والنحن ويتداخل البيت والمجتمع.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف ٩٦: ٩٨).

تشعر بطريقة ما أنك المقصود بذلك، تشعر أنك عندما فكرت بالهجرة كنت تشعر بهذه الآيات، تشعر أنك عندما هاجرتَ كنتَ تريد أن تهرب من هذا، شيء ما في أعماقك يقول لك: إنك كنتَ شريكًا في المسؤولية.

ولكن شيئًا آخر - في أعماقك أيضًا - يردُّ عليك ويقول: لقد دفعت ثمنًا باهظًا.

***

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۞ الَّذِينَ

يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۞ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (الأعراف ٤٤: ٤٦).

هل أولئك الرجال على الأعراف، أولئك الذين في الوسط، بين الجنة والنار، الذين سُمِّيَت السورة على المكان الذي يقفون عليه، هل أولئك كانوا من الذين لم يحققوا المعادلة؟ نجوا شخصيًّا وفرديًّا، ولكن لم يحاولوا بما فيه الكفاية مع أقوامهم، وبقوا في الوسط بين الأنا والنحن، بين السفينة الغارقة وقارب النجاة، بين الجنة والنار؟

مجرد سؤال، لا نعرف جوابه، وإن كنا نعرف أنهم أفضل من الذين دخلوا النار، وأنهم لم يدخلوا الجنة، لكنهم «يطمعون»، لديهم أمل.

سورة الأنفال ٨

محاسبة المنتصر

سورة الأنفال هي سورة «محاسبة المنتصر».

قد نتوقع في مفاهيمنا أن المنتصر يجب أن يتلقى التهنئة بالفوز، بينما يتلقى الخاسر اللوم والتقريع.

القرآن يقوم بشيء مختلف تمامًا، في «آل عمران» جَبَرَ خواطر المكسورين بعد هزيمة أُحُد.

وهنا في الأنفال بعد نصر يوم بدر، اللهجة شديدة القوة، بدلًا من أكاليل النصر المتوقعة، هناك المحاسبة وبقوة.

لكن هذا لا يحدث إلا لحكمة بالغة.

فالمهزوم قد يحتاج إلى أن يُجْبَرَ خاطره كي يتمكن من أن يعبر هزيمته نحو الضفة الأخرى دون أن يسقط في فخ المظلومية والمؤامرة، ودون أن يتحول جبر الخاطر إلى إلهائه عن مسؤوليته عن الهزيمة؛

لذا فجبر الخاطر في وقت الكسر، هو استراتيجية التئام وشفاء.

فما بال المنتصر؟ لِمَ يحاسَب؟

لأن نصره ببساطة يمكن أن يتحول إلى هزيمة أكبر من هزيمة الخاسر، لو سقط في وهم الغرور وتصور أن النصر كان نتيجة حتمية

لجهوده، وكثيرًا ما يحدث هذا في الكثير من الانتصارات، حتى على الصعيد الشخصي، بل بالذات على الصعيد الشخصي.

لذا تأتي سورة الأنفال لكي تجعل المنتصر يعيد حساباته ويراجع نفسه كما لو كان قد تلقَّى هزيمة قاسية توجِبُ عليه المراجعة وإعادة التقييم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لله وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:١).

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (الأنفال:٥).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٢٥).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله وَالله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال:٤٧).

اتقوا الله وأَصْلِحُوا ذات بينِكم، كانوا على وشك الاعتقاد أنهم على قمة جبل التقوى والصلاح، لكن تعالجهم السورة في مطلعها وهي تقول لهم: اتقوا الله.

تذكِّرهم أن منهم مَنْ لم يكونوا يريدون الخروج لبدر أصلًا، وأنهم جادلوا في ذلك، جادلوا فيما قاد إلى هذا النصر الذي يمكن للشيطان أن يوسوس لهم أنه كان نتيجة حتمية لجهودهم.

السورة تسحب منهم «استحقاق النصر».

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:١٧).

هل أصابكم الغرور على هذا الذي تحقق؟ حسنًا، خذوا هذه الآن، أنتم لم تقاتلوا أصلًا، وهذا الرمي الموفق لم يكن رميكم، الله رمى.

فلننتبه أن هذا لم يحدث قبل القتال، بل حدث بعده، وبعد تحقق النصر، ولو كان حدث قبل لما قاد إلى النصر، خطاب ما قبل المعركة كان مختلفًا جدًّا ومنسجمًا مع ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال:٦٠).

لو اعتقد المؤمنون قبل القتال أنهم لن يقاتلوا ولن يرموا بل الله هو الذي سيفعل، فذلك لن يجعلهم حريصين على شيء، بل سيفتر همتهم.

لكن خطاب ما بعد النصر هو الذي ينفي عنهم الفعل، هو الذي يزيل وهم انتفاخ الذات، وهم قد قاتلوا ورموا بالتأكيد، لكن هذا لا يعني أن جملة من الظروف المحيطة بهم وداخلهم وداخل الكافرين لم تكن عوامل فاعلة في تحقيق النصر، إيمانهم بمدد الملائكة مثلًا ساهَمَ في رفع معنوياتهم، الكفار فقدوا عزمهم بعد نجاة قافلة قريش ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، ورؤية عدد المشركين في المنام قليلًا، كل هذه جملة من الظروف التي لم يكن للمؤمنين دخلٌ في إنشائها، ولكنها ساهمت في تحقيق النصر.

بل حتى «الظروف الصعبة» التي ننتصر أحيانًا «بالرغم عنها»، حتى هذه تساهم في تحقيق الانتصار على نحو غير مباشر؛ ذلك أن التحدي

الذي تشكله الصعوبة يساهم في تحقيق استجابة داخلية تزيد من القوة والعزم.

يحدث هذا دائمًا على مستوى المواجهات الشخصية الكبرى كما على مستوى الأمم في طريق نهوضها وانتصاراتها.

***

في كل نصر، هناك طاووس رابض كامن، ينتظر اللحظة.

طاووس مزهو، يتحرك بخيلاء.

طاووس مفترس، يفترس صاحبه ويحيل نصره إلى هزيمة أقسى من هزيمة الخصم.

لكن سورة الأنفال تقترب منك، وتعطيك سكينًا.

يمكنك أن تتخلص من هذا الطاووس.

سورة التوبة ٩

الحرب والسلام

سورة التوبة قد توحي للوهلة الأولى أنها «سورة الحرب».

لكن التدقيق فيها سيجعلنا ندرك أنها «سورة الحرب والسلام».

الآيات المجتزأة من السورة تجعلها «سورة الحرب» بلا منازع، وغالبًا كل الذين يتهمون القرآن بالعنف والإرهاب يقتبسون الآيات من هذه السورة، بالأحرى: يقتطعون الآيات منها، لكي تبرهن لهم على ما يريدون.

لكن قراءة للسياق ككل ستجعلنا نرى أنها سورة الحرب فعلًا، ولكنها سورة السلام أيضًا.

بالضبط هي سورة «امنحوا السلام فرصة تلو الأخرى.. قبل أن تحاربوا».

الاجتزاءات مثلًا تركز على ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. (التوبة:٥)

ولكنها تتجاهل تمامًا ما قبلها وما بعدها.

قبلها هناك، في نفس الآية تمامًا: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي إن أمر القتال مرتبط بهدنة تستمر لأشهر، ويمكن لهؤلاء خلال هذه الأشهر أن يعقدوا الصلح، القتال ليس حتميًّا هنا.

وما بعدها في نفس الآية أيضًا: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:٥).

أي إن «التوبة» - وكان هؤلاء قد نقضوا عهدهم مع المسلمين - كفيلة بإلغاء سبب القتال.

وبعدها هناك مرة أخرى ما هو أكثر ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٦).

إنْ طَلَبَ هؤلاء «الذين سيقاتلونهم» الحماية «الجوار»؛ فقدِّموا لهم الحماية!

نعم، هي سورة الحرب، لكنها حرب مشروطة بمحاولة السلام حتى آخر فرصة، فعلًا هي سورة الحرب، لكنها الحرب كخيار أخير، بعد استنفاد كل الخيارات الأخرى.

***

تأخذنا سورة التوبة بعدها من ساحة الحرب المشروطة هذه إلى ما قد يبدو بعيدًا جدًّا عنها.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣١).

قد تبدو الإشارة غير مرتبطة بما قبلها، لكن الحقيقة أن «الأحبار» - أو رجال الدين عمومًا - كانوا دومًا قادرين على اجتزاء الآيات من سياقها وجعْل الحرب المشروطة تبدو حربًا مقدسة غير مشروطة، وقد حدث للأسف.

الكثير من رجال الدين كانوا عرَّابين لحروب غير مقدسة، استخدموا فيها الدين ليكون جزءًا من تسويق هذه الحرب وتبرير فظاعاتها.

***

بعد هذا تأخذنا سورة التوبة إلى مواجهة من نوع مختلف، مواجهة الحرب والسلام فيها لا يقل أهمية - بل قد يزيد - عن ساحات القتال المعتادة.

إنها المواجهة مع النفس.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة:٣٨).

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة:٤٦).

مواجهة النفس والحرب معها، ستحتل من الآيات في سورة التوبة أكثر بكثير من الآيات التي تحدثت عن المواجهة مع المشركين، كما لو أن السورة تقول لنا: إن الحرب الأهم هي الحرب مع الذات، والنصر الحقيقي هو النصر على الذات، والهزيمة الأصعب والأكثر تكبيدًا للخسائر هي الخسارة مع الذات، والسلام الذي يتحقق معها هو السلام الحقيقي.

كل مَنْ واجه نفسه يعرف هذا، كل مَنْ حاول التوبة عن معصية ما، إدمان ما، كبيرة ما، يعرف أي حرب قذرة وصعبة هي الحرب مع الذات، ويمكنه أن يقرأ آيات قتال المشركين كما لو كانت تتحدث عن حربه مع

معاصيه وشهواته، وسيجد تشابهًا رهيبًا، بل سيجد أن حرب الذات أكثر مخادعة وزئبقية وغدرًا من حرب المشركين.

سورة التوبة عن الحرب فعلاً، لكنها أيضًا عن الحرب والسلام.

الحرب والسلام مع الأعداء.

وأيضًا مع الذات.

***

وفي سورة التوبة أيضًا تلك الآية التي تنقلنا إلى ذلك الغار.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. (التوبة:٤٠)

لا يمكن لمسلم إلا أن يرتجف قلبه من المشهد.

لا يمكن لإنسان مرَّ بأزمة - بشدة - واحتاج فيها إلى صديق إلا أن يقول: أعرف هذا، لقد مررت هنا من قبل.

البعض منا وجدوا من يقف معهم في غارهم، آخرون كانوا أقل حظًّا.

ربما كنا نحن أحيانًا من وقف مع صاحبه، وربما كنا أحيانًا من تخلى وتركه وحيدًا في الغار.

رحلة حياتنا ليست عرضًا قريبًا، ولا سفرًا قاصدًا، وأصدقاء الشدة قليلون، وإن لم تجد واحدًا منهم معك، فهذا أمر محزن، لكن يمكنك أن تهمسها لنفسك.

لا تحزن، إن الله معنا.

يونس هود يوسف ١٠ – ١١- ١٢

من البئر إلى العرش

ثلاث سور متتالية في المصحف.

وقد نزلت بنفس هذا الترتيب على الرسول الكريم – عليه الصلاة والسلام – في الفترة المكية.

أمر نادر أن يتوافق ترتيب المصحف مع تسلسل النزول، ولا يمكن أن يكون هذا التوافق اعتباطيًّا، حاشا لله.

يونس، هود، يوسف، ثلاث سور إذن متتالية، لا بد أن في هذا الترتيب رسالة ما.

***

مبدئيًّا، سورة يونس تتحدث عن «الضر» وعن «كشف الضر»، إزالته، الضر عندما يصيب «الأفراد» كما في ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٢).

أو عندما يصيب المجتمعات: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (يونس:٢١).

في السورة نموذجين لضرٍّ أصاب «المجتمعات»؛ لأنها كذَّبت الرسل، قوم نوح وقوم فرعون، والضر الذي أصاب قوم نوح يعرض له بشكل سريع (الآيات ٧١-٧٣).

هذا عن الضر، فماذا عن كشفه بالنسبة للمجتمعات؟

هناك مثال واحد، مثل ومضة أمل مضيئة.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس:٩٨).

إنه الإيمان النافع، الإيمان الذي نفع القرية، قرية يونس، الإيمان الذي كشف عنها الضر.

***

سورة هود تأخذ نفس الخط.

ولكن التركيز على الضر فيها أكثر من كشف الضر.

نرى فيها قصص أقوام نالوا العذاب لتكذيبهم رسلهم، نرى مرة أخرى قوم نوح، قوم هود، قوم صالح، قوم لوط، قوم شعيب.

كلها قرى أصابها الدمار.

ليس هذا فقط، لكن السورة تقدم بُعدًا شخصيًّا شديد الألم لما حدث مع سيدنا نوح؛ إذ إنها تقدم مشهد غرق ابنه.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا

عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾
(هود:٤٢: ٤٣)

هنا لم يعد تكذيب «القوم» يخص الآخرين، يخص المجتمع، بل أصبح شخصيًّا داخل بيت النبي، الأمر دومًا هكذا، لكنه عندما يتجسد في شخص نحبه ونعرفه يكون مؤلمًا أكثر.

هنا في هذه السورة خمس إشارات لأقوام قضت بالعذاب، لا إشارة لقوم نجوا كما في سورة يونس، لكن لا ظلم في الأمر.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧)

ليس هذا فقط، بل إن السورة هي السورة الوحيدة التي اشتملت على الدعاء بهلاك القرى الظالمة، ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾، لا يوجد في سور القرآن كلها دعاء يحدد قومًا بعينهم إلا في هذه السورة.

نزلت تلك السورة بعد عشر سنوات تقريبًا في مكة، بعد عشر سنوات من الصدود والتكذيب، كل شيء كان يشير إلى أن مكة كانت تسير في درب أمثلة القرى التي سيصيبها الدمار، ولا شيء يشير إلى ما يقربها من قرية يونس.

وكان عليه الصلاة والسلام بالتأكيد لا يريد لمكة أن يصيبها ما أصاب عاد وثمود، لم يكن يريد أن تكون هناك «ألا بعدًا لمكة».

ورغم ذلك، كان ذلك واردًا جدًّا، وقبل نهاية السورة يأتي أمر الانتظار: ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾.

ينتظرون ماذا؟ العذاب يصيب مكة؟

***

بدلًا من «ألا بعدًا لمكة»، نزلت سورة «يوسف».

سورة مختلفة تمامًا، بنسق مختلف، هي السورة الوحيدة التي تَرْوِي قصة نبي من بدايتها إلى نهايتها.

وهي سورة بلا عذاب للقوم، بل تنتهي بنجاح «النبي» وتحقيقه لغاياته، صحيح أنه يحقق ذلك بعيدًا عن قومه أولًا، لكن هذا بحد ذاته قد يشير إلى أهمية «التجربة» في مكان يوفر بيئة حاضنة أفضل.

كما لو أن السورة تقول للنبي: النجاح ممكن، ومكة قد تتغير، لكن ليس بالضرورة يكون التغيير فيها أولًا.

***

ثمة شيء شخصي في سورة يوسف، شخصي جدًّا وحميم للغاية.

مَنْ منا لم يتعرض لغدر في حياته من قريب أو ممن توهم قربه؟ مَنْ لم يتعرض لظلم؟ لفتنة وغواية؟

ثمة شيء في سورة يوسف يمسنا جميعًا.

صحيح أن الطريق من بئر الغدر لا ينتهي دومًا إلى العرش كما حدث مع سيدنا يوسف.

لكن من المهم ألَّا نبقى أسرى الشعور بالظلم والتباكي على التجربة.

أول خطوة للخروج من البئر هو أن نخرج من دور الضحية المغدورة.

***

في البئر ألقوا بك يا يوسف[1].

كان مظلمًا، وكنت وحيدًا.

وكانوا إخوتك!

في البئر ألقوا بك يا يوسف.

لعلك توهمتها مزحة.

لعلك توقعت أن صمتهم مجرد خدعة.

لعلك قلت: إنهم سيعودون.

وأن حبالهم ستطل بين لحظة وأخرى.

لكن أصواتهم تلاشت يا يوسف.

وحبالهم لم تأت قط.

في الظلمة بقيت وحيدًا يا يوسف.

أرادوا أن يكسروك.

أن يجعلوك تضعف.

أن تتوسل.

(١) سبق أن نشر هذا الجزء في « لا نأسف على الإزعاج»

أن تتكسر ولو أمام نفسك.

لو يعلمون.

لو يعلمون أن كل تلك الليلة في البئر، جعلتك تكتشف قوتك الحقيقية.

من لحظة البئر، أنت لم تعد أنت الذي كنت.

صرت شخصًا جديدًا، وُلِدتَّ - مخاضًا صعبًا مريرًا - في البئر وحدك.

اكتشفت معنى أن يتدفق النور من داخلك، لا من فتحة في السقف.

اكتشفت معنى أن تجد في الله أنيسًا ورفيقًا، فزادك ذلك قوة على قوة، ونورًا على نور.

في البئر اكتشفت قواك التي لم تعرفها، اكتشفت أنه يمكنك أن تستغني عنهم، وأن الأمر ليس صعبًا كما توهمت، اكتشفت أن علاقتك بهم تكون أغنى عندما تتعرف على الاستغناء عنهم.

في البئر عرفت معنى الجماعة، أن تكون على الحق ولو كنت وحدك.

في البئر، عرفت معنى أن تكتشف أن مصدر قوتك ينبع من الداخل.

وأن تستثمر هذه القوة، لا للخروج من البئر فقط.

بل لتغيير كل الواقع الذي جعل إخوتك يرمون بك فيه.

***

في داخل كل منا بئر.

وفي كل بئر يوسف.

وأصوات تلاشت، وحيال لم تأت.

يمكننا أن نجعل من ذلك مخاضًا، بحيث ستبدو كنوز العالم بأسره ثمنًا بخسًا أمامه.

ويمكننا أن نرخص حتى يصير سعرنا الحقيقي دراهم معدودة.

دومًا ثمة يوسف، ثمة بئر.

وثمة إخوة ليوسف.

ولأن هذا البئر يمكن أن يكون منجمًا نستكشف فيه كنوزًا لم نعرف بوجودها فينا.

فإننا يمكن أن نختار النهاية التي نريد.

سورة الرعد ١٣

التغيير قيد الإجراء

سورة الرعد هي «سورة التغيير».

لكنه التغيير كما يجب أن يكون، وليس كما نتوهمه أن يكون.

لدينا غالبًا فكرة ساذجة عن التغيير، فكرة عن كون التغيير يأتي بضربة سحرية تغير الواقع - أو الأشخاص - بلمح البصر، وهذه الفكرة تكون «معوقة» لأي تغيير حقيقي؛ لأنها ببساطة ترفع سقف التوقعات «السريعة» على نحو يجهض آلية التغيير البطيئة لصالح «عمليات تجميل» سطحية سريعة النتائج كارثية العواقب.

سورة الرعد تزيح هذا الوهم من أذهاننا، تعلِّمنا أن نتعامل مع التغيير على حقيقته، بطيء وتراكمي ويستغرق وقتًا طويلًا، لا سحر ولا ضربات عصا ولا معجزات خارقة.

السورة تنبهنا منذ بدايتها إلى أن هذا الكون مبني على قوانين، السماء مرفوعة بعمد؛ قوانين غير مرئية، وكل تغيير منشود لا بد أن يكون مبنيًّا على قوانين من باب أَوْلَى.

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ

رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد ٢: ٤).

التغيير هو جوهر السورة، تأخذنا إلى الظواهر الطبيعية في مد الأرض وخصوبة الأرض ونزول الأمطار، وكل ذلك يقود إلى ماذا؟ إلى الثمار، الثمار لا تأتي «بضربة عصا» أو بمعجزة، كذلك التغيير، هو الثمرة المنشودة التي تتطلب كل ما تتطلبه الثمرة من جهد ووقت وتداخل عوامل وظروف.

يضرب الله المثل بالحمل.

﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد:٨).

وكل حمل يستغرق وقتًا وأطوارًا متتالية ليصل إلى نهايته، وكذلك التغيير، لا بد له أن يمر بمراحل تنقله من البذرة إلى الجنين إلى الطفل المكتمل، وسيبقى بحاجة إلى الرعاية والحماية حتى بعد ولادته.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد: ١١).

التغيير لا يأتي كهدية من السماء، ولا حتى كلعنة منها، هو يأتي من داخلنا، «ما بأنفسنا»، يمكن أن نفهم ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ على أنها «الذي بأنفسهم»، أو نفهمها على أنها «يقوموا بالتغيير بأنفسهم»، والأمران متطابقان من عدة جوانب، وحتى «بأنفسهم» يمكن أن تُفَهَمَ على أنها «نفوسهم»، «أخلاقهم»، «قيمهم»، ويمكن أيضًا أن تُفَهَمَ «وعيهم»، «أفكارهم»، ولا أرى مرة أخرى فارقًا كبيرًا بين الأمرين.

المهم أن التغيير لا ينزل بالمظلة من أعلى، بل يشق الأرض كنبتة تأخذ وقتها في النمو.

السورة تنبهنا أيضًا إلى أن التغيير لا يشترط أن يكون إيجابيًّا بالضرورة، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾، كم من تغيير منشود هلَّلنا له ثم صار يُعَدُّ أسوأ ما مر بنا، لكن التغيير حاصل، إن لم نوجهه إلى أن يكون إيجابيًّا؛ سيكون سلبيًّا، مجرد البقاء في «نفس الوضع» هو تغيير سلبي؛ لأن الواقع يستمر بالتغير والتحرك، وعدم «تغيرك» لتواجه هذه التغييرات يعني أنك تتغير سلبيًّا.

تأخذنا السورة أيضًا إلى صورة شاملة كبيرة للتغيير كما يحدث في الواقع.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

المشهد يأخذ وقتًا طويلًا، الماء ينزل، الأودية تسيل، الزَّبَد يطفو، الحق والباطل يتواجهان في المحك الحقيقي: ما ينفع الناس.

وهذا يتطلب وقتًا بالتأكيد؛ لأن النفع والضر قد لا يتبين على المدى القصير، الآثار الآجلة هي التي ستحدد ما سيمكث في الأرض وما سيذهب جفاءً.

هل يريدون أن يكون التغيير سريعًا مثل وجبة جاهزة؟

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾. (الرعد: ٣١)

لكن القرآن لن يفعل ذلك، ليس هذا مطلوبًا منه، بل يفعل فعل المطر في الأرض، تغيير حقيقي يأخذ وقته لكي يحدث، وتدخل فيه كل السنن والقوانين والعوامل اللازمة.

***

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۞ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (الرعد ١٢: ١٣).

برق ورعد إذن.

البرق يضيء الليلة المظلمة، والرعد صوته مهيب، يهز القلب.

لكن ما يحدث بعدهما هو الذي يُحدِثُ التغيير الحقيقي الذي أشارت له السورة كمثال.

المطر.

الرعد والبرق دون مطر لن يُحْدِثَا تغييرًا في الأرض.

«الصوت والضوء» مجرد إشارة لك لكي تنتبه إلى ما سيحدث لاحقًا -لو حدث-، المطر، كي تساهم فيه، كي تكون شريكًا.

«ما بأنفسهم».

***

الرعد والبرق الحقيقي في الداخل.

صوت وضوء في أعماقك.

المهم ألَّا تكتفي بذلك.

المهم أن تمطر أيضًا.

«ما بأنفسهم».

سورة إبراهيم ١٤

الخروج من الظلمات إلى النور

سورة إبراهيم هي سورة «الخروج من الظلمات إلى النور»، أو ربما يمكن تسميتها أيضًا سورة المجتمع المستقر الآمن.

افتتاحية السورة تقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١).

وبعد آيات يأتي ذكر سيدنا موسى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥).

إذن قوم موسى كانوا في الظلمات، كيف هي الظلمات تحديدًا؟!

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٦).

إذن الظلمات هي العيش في مجتمع فيه ظلم وقهر واستعباد، مجتمع مستبد بمختلف أنواع الاستبداد وأشكاله، إنها «ظلمات» وليست ظلمة واحدة؛ لأن أشكال الاستبداد والاستعباد تتعدد وتختلف، وقد تكون لها مسميات لطيفة جدًّا وواجهات مزينة بشعارات توحي بعكس ذلك.

تلك كانت الظلمات، فأين النور الذي يفترض أن نخرج إليه عبر «الكتاب»؟

السورة تأخذنا إلى مَنْ سُمِّيَت على اسمه، سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، هناك سنتعرف إلى «المضاد الموضوعي» لمجتمع الظلمات، إلى المجتمع المعاكس، إلى النور.

***

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: ٣٥).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

هذا الدعاء للبلد «الجديد» أن يكون آمنًا، حرًّا بلا قيود (بلا أصنام)، عادلًا مستقرًّا مزدهرًا، هذا هو «النور» في الدنيا، هذا هو «الهدف» الدنيوي الذي يقود بناؤه إلى نور الآخرة.

إبراهيم لم يبنِ ذلك المجتمع لنفسه، بل كان «مصير ذريته» في نصب عينيه في الدعاء.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾، ﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

كان يريد لأولاده أن يعيشوا في مجتمع مستقر آمن حر، بكل معاني الاستقرار والأمان والحرية.

بالضبط كما نريد لأولادنا أن يعيشوا في مجتمع آمن.

وكانت تلك هي اللحظة الأعلى في رحلته عليه السلام، كانت تلك قمته بعد رحلة وعرة.

ربما لذلك أخذت هذه السورة تحديدًا اسمه، توزعت قصته على سور كثيرة في القرآن، وكان له محطات ومواقف مهمة للغاية، لكن هنا وصل للهدف (الدنيوي) على الأقل، هنا تأخذنا السورة إلى نهاية الرحلة؛ لذلك تأخذ اسمه، كما لو أنها تريد أن تربط سيدنا إبراهيم دومًا بنهاية رحلته، بالمجتمع الذي سعى لتحقيقه، المجتمع الذي نريده جميعًا.

***

أولئك الذين يقررون - في خيار صعب - أن يتركوا أوطانهم نحو بلاد الهجرة واللجوء، كانوا بطريقة ما أيضًا يبحثون عن الخروج من ظلمات مجتمعاتهم إلى نور المجتمعات الأخرى، أو على الأقل إلى مجتمعات أخرى تبدو ظلماتها أقل ظُلْمة، أو يبدو أن فيها من النور أكثر.

أولئك الذين يتركون كل شيء خلف ظهورهم، كل ما خلَّفه لهم آباؤهم، من أجل مستقبل أفضل لأولادهم.

بعضهم يدفع حياته - حرفيًّا - خلال ذلك.

وبعضهم يدفع حياة أولاده، ليس من خلال موتهم المباشر أثناء محاولة الهجرة، بل لاحقًا بموت من نوع آخر، مع استمرار بالتنفس وبقية الوظائف الحيوية.

نعم، مجتمعاتنا «ظلمات»، فيها ظلمات كثيرة.

وبعض مَنْ «يدَّعي التمسك بالكتاب» يزيد ظُلْمَةَ هذه المجتمعات بظُلْمةٍ إضافية منسوبة هذه المرة إلى القرآن الذي يُفترض أن يأخذنا إلى النور.

كل مَنْ يفكر في الخروج من الظلمات محق، لا يمكن لومه ولا قليلاً.

المهم أن يتحرى النور في المكان الذي يتوجه له.

أو على الأقل يسعى لتأسيسه.

سورة الحِجْر ١٥

الصورة الكاملة

سورة الحِجّر هي سورة «الصورة الكاملة»، هي السورة التي تعلّمنا كيف ننظر إلى كل شيء بشمولية وبتكامل، دون أن نجتزئ، دون أن ننظر إلى بعض الأجزاء بعدسة مكبرة ونتجاهل أخرى تمامًا أو نغض عنها النظر.

تقول لنا السورة منذ مطلعها شيئًا غير متوقع.

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ٢).

كيف؟ كيف يودون ذلك وهم على ما هم عليه من كفر وصدود؟

سنعرف الجواب لاحقًا عبر السورة، وسندرك أن جزءًا كبيرًا من الرفض والصدود الذي يمكن أن يحدث للإيمان (أو لأي فكرة) إنما يعود إلى النظر عبر نصف عين، النظر إلى جزء من الصورة، لكن لو أتيحت لهم أن يروا الصورة كاملة، الصورة بكل تفاصيلها وأجزائها، فإن موقفهم هذا قد يتغير، و﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ٢).

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۞ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۞ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۞ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر ٢٠: ٢٢)

في سبيل ذلك تأخذنا السورة أولًا إلى جولة شاملة في الكون؛ السماء والأرض وظواهر الطبيعة من رياح وأمطار، فهم الترابط الموجود بين كل عنصر من عناصر الصورة مهم في تكوين حاسة «الصورة الكاملة».

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۞ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۞ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر ٣٣: ٣٩).

بعدها تأخذنا إلى أصل الحكاية، إلى قَسَم إبليس، إبليس رفض أن يسجد لآدم لأنه نظر إلى جزء من الصورة، إلى خلق آدم من صلصال، ولم ينظر إلى ما أودعه الله فيه من إمكانات؛ لذا فقد رفض الأمر بالسجود ولم ينظر إلى أن هذا الأمر ما كان يمكن أن يكون من دون حكمة له عز وجل.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر ٤٩: ٥٠).

الكثيرون يتعاملون مع الله وصفاته بتجزئة، غالبًا كما يريدون أو يتمنون، يركزون على صفة واحدة ويتركون أخرى، هو غفور رحيم بالفعل، لكن أيضًا عذابه هو العذاب الأليم، البعض يركز على العذاب ويستخدمه في الدعوة لله وينسى الغفور الرحيم، كما ينسى بعض آخر صفات المغفرة والرحمة.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۞ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۞ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۞ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۞ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (الحجر ٥٢: ٥٨).

تتجاور الرحمة والعذاب أيضًا في القصة التي ستأخذنا إليها السورة، قصة ضيف إبراهيم المكرمين، حملوا له البشرى بالغلام، وأيضًا حملوا له نبأ العذاب النازل بقوم لوط، حتى مع قوم لوط كانت هناك فرصة لتحقيق الرحمة لولا إصرارهم على فحشهم العلني، وحتى مع امرأة لوط كانت هناك فرصة للرحمة، لكنها خالفت الأمر الإلهي بعدم الالتفات بعد أن تركوا القرية التي سينزل بها العذاب.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ۞ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۞ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر ٨٩: ٩١).

تحذر السورة في أواخرها من التعامل «التجزيئي» مع القرآن، ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، وعضين تعني أنهم جعلوه أعضاءً، أجزاءً، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، إنما هو جملة واحدة لا يمكن تجزئتها عن سياقها وعن تمامها، كلما تمسكت بالصورة الكاملة، بالفهم الكامل، كلما ابتعدت عن أخذ القرآن كعضين، وما أكثر من يفعل ذلك اليوم من كل الاتجاهات! بالضبط مثل «الغفور الرحيم، وعذابي هو العذاب الأليم»، وبالضبط مثل التركيز على الصلصال وتجاهل نفخة الروح.

***

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ في عصرنا اليوم، من النادر جدًّا أن يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ليس بالضرورة لأنهم عجزوا عن رؤية الصورة الكاملة بل لأننا نحن قدمنا صورة مسيئة للإسلام، قدمنا انعكاسًا بالغ السوء لأغلب قيم الإسلام، بدلًا من أن نكون مركزًا للجذب يجعلهم يتحرون «الصورة الكاملة»؛ أصبحنا مركز طرد، يجعلهم يتصورون أن الصورة الكاملة سيئة جدًّا.

إلا من رحم ربي منا ومنهم.

***

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (الحجر: ٦٥)

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

كانت تلك هي الوصية لآل لوط عندما غادروا قريتهم.

كم نحتاج إلى ذلك كأشخاص وأحيانًا كمجتمعات، نحتاج ألَّا نلتفت إلى الوراء أحيانًا، أن نقلب الصفحة، أن نبدأ من جديد دون أن نبقى أسرى لما يشدنا إلى الخلف.

نحتاج أن نتعلم ذلك، أن نتخلص من التفاتنا المزمن لأشخاص أو أماكن أو تجارب تركت جروحًا غائرة فينا.

نحتاج أن نسير إلى الصبح، دون أن نلتفت إلى الليل.

سورة النحل ١٦

عن قواعد متعددة وسقف واحد

سورة النحل هي سورة «القواعد والسقف».

والقواعد هنا هي مجموعة من القوانين اللازمة لتماسك البنيان وثباته، عدم الالتزام بها يقود إلى أن يخرَّ السقف كنتيجة حتمية منطقية.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل ١٠: ١٤).

السورة تأخذنا أولًا في قواعد بنى الله على أساسها بنيان الكون والخليقة، كل نِعَم الله هي نِعَمٌ موظَّفة من خلال قوانين أوجدها عز وجل لتيسر للإنسان حياته، تأخذنا السورة إلى الأنعام ومنافعها وسائل الركوب الأخرى المعروفة آنذاك، وتفتح الباب لما لم يُعْرَف آنذاك، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وتأخذنا السورة إلى الماء النازل من السماء والشجر والنخيل

والأعناب والثمار والبذور والشمس والقمر والليل والنهار والنجوم والبحر والفلك والنحل، وأيضًا القائمة مفتوحة إلى ما لا نهاية حرفيًا، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١٨).

كل هذه النعم تسير حسب القواعد التي قام عليها بنيان الكون الذي نعيش فيه، قواعد وضعها الله في خلقه، يمكن أن نسميها أيضًا سنن وقوانين، لكنها قواعد أيضًا تقيم البنيان، وما دامت القواعد سليمة وغير منتهكة، فالسقف قائم في موضعه يؤدي وظيفته.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل: ٢٦).

كيف يمكن أن يكون هناك مكر في هذا؟

المكر هو أن تعيش في كون بُنِيَ على هذه القواعد، وتستثمرها لمنفعتك، ثم تعتقد بعدها أنك خارج القوانين، تعتقد أن كل ما حولك قائم على الخضوع لقوانين معينة لم تشارك في صنعها ولا قليلًا (تستثمر فيها لصالحك)، ولكن يصل الأمر إليك فتعتقد أنك خارج اللعبة وقواعدها وقوانينها، هذا مكر حرفي.

وهو ينتهي دومًا نهايات سيئة؛ لأن الإنسان - فردًا ومجتمعًا - يحتاج إلى قوانين تنظم حياته، فإن لم يكن، فالسقف سيخرُّ آجلًا أو عاجلًا، بشكل أو بآخر، القواعد مضروبة، والبنيان سيكون آيلًا للسقوط، مسألة وقت.

الأمر بالضبط مثل أن تستخدم نظامًا برمجيًا معينًا في مهمة محددة، ثم قبل أن تنهيها، تبدل النظام بنظام آخر مختلف تمامًا، والنتيجة: ينهار كل شيء.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ (النحل: ٩٢).

بالضبط هكذا.

كل هذا الكون - من الشمس إلى النحلة وكل ما بينهما - قائم على قوانين وقواعد، أي منطق يجعل الإنسان لا يخضع لنفس مصدر القوانين والقواعد؟

أي منطق يجعل الإنسان منفردًا بلا وظيفة كما لكل شيء وظيفة؟

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ (النحل: ٧٥).

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(النحل: ٧٦).

***

السورة كلها لم تأت على ذكر اسم نبي إلا إشارة واحدة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فقط سيدنا إبراهيم.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(النحل: ١٢٠).

ليس صدفة، سيدنا إبراهيم هو الذي رفع القواعد، كما في سورة البقرة.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (النحل: ١٢٧).

وهذه هي سورة القواعد والسقف.

***

أين نحن من كل هذا؛ من القواعد والسقف؟

أغلبنا أضاع فهم القواعد، وفهم آليات البناء، أغلبنا حاول استيراد قواعد أخرى دون نجاح كبير.

نحن في خيمة كخيم النازحين، لم نعد في البنيان الذي كان يفترض أن نكون فيه، ولم نجد من يقبل بنا بعدُ.

جزء كبير من هذا الذي نحن فيه كان يعود لسوء فهم لديننا، وللكتاب الذي يُفتَرَض أن يساعدنا على البناء.

***

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

وكل آتٍ قريب.

سورة الإسراء ١٧

مسؤوليتك الشخصية جدًّا

سورة الإسراء هي سورة «المسؤولية الشخصية».

قد يبدو ذلك غريبًا بالنسبة لعنوانها وما يرتبط به في أذهاننا من تفاصيل رحلته عليه الصلاة والسلام في الإسراء والمعراج.

لكن سورة الإسراء ابتدأت بالإشارة إلى رحلة الإسراء في آيتها الأولى، ثم أَسْرَتْ بنا إلى موضوعات أخرى، أو هكذا قد يبدو الأمر، على الأقل للوهلة الأولى.

لكن تفحصًا أعمق للسورة سيعود بنا - لاحقًا - إلى الإسراء، بحيث يرتبط كل ما فيها بعنوانها من جديد.

سورة الإسراء هي - برأيي - سورة المسؤولية الشخصية كما قلت، الكثير من آياتها تشير إلى ذلك بكثافة، لا أعتقد أن هناك سورة أخرى تضاهيها، بالتأكيد المسؤولية الشخصية أُشِيرَ لها في سور عديدة، لكن سورة الإسراء تركز على ذلك على نحو يجعلك في مواجهة مباشرة مع الأمر.

فلنر مثلًا:

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۞ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ۞ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء ١٣: ١٦).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإسراء ١٨: ١٩).

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۞ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (الإسراء ٨٣: ٨٤).

كل هذا في الإسراء!

إنها رحلة «ليلية» في ظلمة النفس ومجاهلها ومحاولاتها التهرب من المواجهة، الإسراء تقول لك أن تواجه نفسك وتتحمل مسؤوليتك، طائرك في عنقك وكتابك بيدك، أنت وحدك مسؤول عن الذي تفعله، تهزنا الآيات كما قد نفعل مع شخص ضعيف وخائر ومتذمر طيلة الوقت، نقول له: لَمْلِمْ نفسك واسترجل، كذلك تقول لنا الآيات، تحمَّل مسؤوليتك.

وليس بعيدًا عن هذا، بل في العمق منه، وجود النسخة الإسلامية المحدثة من الوصايا العشر التي سبق وأن أنزلها الله على قوم موسى، النسخة الإسلامية في الآيات (من ٢٢ إلى ٣٨) تتجاوز الوصايا التوراتية المعروفة وتضيف عليها المزيد: عدم البخل وعدم التبذير بل التوسط في

الأمر، عدم اتباع أمر ما دون علم والتواضع، كما تسقط من هذه النسخة الخاتمة وصية تقديس يوم السبت.

هذه الوصايا هي أولًا توحيد الله وعدم عبادة سواه، بر الوالدين، الصدقات، الإنفاق السليم والتوسط بين البخل والتبذير، البعد عن الزنا، حماية الأرواح البريئة، المحافظة على أموال اليتامى، الوفاء بالعهود، والعدل في الميزان وعدم الغش، التحقق من كل شيء قبل اتباعه، التواضع.

وكل هذه الوصايا هي في النهاية «مسؤولية شخصية»، صحيح أن بعضًا منها يخص «أشخاصًا» آخرين بحيث تنظم علاقتك بهم، لكن في النهاية هذه وصايا شخصية، مسؤولية شخصية، السورة تسري بك إلى دورك الذي تحاول أن تبقيه في الظُّلْمَةِ، تضعك بمواجهة عواقب هذا اللقاء، وقرارك تجاهه.

***

تهمس سورة الإسراء في أذنيك بشيء عن القرآن، تقول لك: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩).

القرآن يهديك الطريق إلى الأقْوَم.

عليك أنت أن تسير في هذا الطريق.

***

تسمى أيضًا السورة سورة بني إسرائيل، إذ بعد مطلع السورة تأخذنا فورًا إليهم، بالضبط إلى موقع من قصتهم لم يتكرر في أي سورة أخرى، قصة تعرُّضهم للهلاك والدمار على أيدي أقوام آخرين مرتين.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤).

نتعامل مع هذه الآيات أحيانًا كما لو كانت تحمل نبوءة سرية بزوال «دولة إسرائيل»، والحقيقة أن كل ما ذُكرَ من قصص لبني إسرائيل في القرآن كان الهدف منه أن نتعظ نحن وألّا نمر بنفس الأخطاء التي وقعوا فيها.

ولقد فعلنا بالضبط، بحيث إن هذه الآيات الآن تكاد تنطبق علينا، وتتكرر علينا.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨).

﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾، سنن لا تجامل أحدًا.

***

ثمة آيات شخصية جدًّا في سورة الإسراء، شخصية تخاطب الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام -، وتجعلنا حاضرين في هذا الخطاب.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (الإسراء ٧٣: ٧٤).

وهذا يأخذنا مرة أخرى إلى الآية الأولى: الإسراء، نعرف أنه عاد عليه الصلاة والسلام مهمومًا من أن الناس لن يصدقوا ما سيقوله لهم، ثبت ذلك بالصحاح، وتأتي هذه الآيات كما لو تُلقي الضوء على هذه الفترة أو ما يشابهها، نحن هنا نرى ما يدور في نفسه عليه الصلاة والسلام.

تأتي الآيات لتعطيه الحل، وتعطينا أيضًا في كل موقف مشابه نحتاج فيه إلى التثبيت.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨، ٧٩).

ونحن نعلم أن الصلاة فُرِضَت في رحلة المعراج[1]، هنا نعرف أي توقيت مناسب جاء هذا الفرض، ليكون العلاج والدواء لهذا الموقف، ولكل المواقف التي يكون فيها صدقك بمواجهة الآخرين.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٠).

شخصي جدًّا، لا أحد يعرف صدقك إلا أنت وربك.

***

تسري بك سورة الإسراء إلى الطائر الذي في عنقك.

تقول لك: حَلِّقْ به، وأنت مَنْ يحدد أين يحطُّ.

(١) صحيح البخاري ٣٤٩.

سورة الكهف ١٨

أطوار الاستحالة ليست مستحيلة.

سورة الكهف هي سورة «أطوار الاستحالة».

تنقلك من طَوْرٍ إلى آخر، أربعة أطوار تتمثل في قصص سورة الكهف الرئيسية: فتية الكهف، صاحب الجنتين، موسى والعبد الصالح، وذو القرنين.

كل من هذه الأطوار تمثل مرحلة من مراحل النمو والقوة.

تقريبًا كل شيء في العالم يمر بهذه الأطوار.

كل نجاح، بمختلف أنواع النجاح ومعانيه؛ الفردية والاجتماعية، تمر أولًا بمرحلة كمون، مرحلة يكون الأمر فيه مجرد فكرة، فكرة جديدة خارج سياقات المألوف والمعتاد، غالبًا مستهجنة ومحاربة أو في أحسن الأحوال متجاهلة من الجميع.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۞ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (الكهف ١٠: ١١).

تلك المرحلة هي الكهف، الكهف الذي أوى له الفتية وهم يحملون إيمانهم بالله، والكهف الذي يحتوي أي فكرة في بدايتها، فكرة علمية، أو فكرة لمشروع، أي فكرة تحتاج إلى «حاضنة» عندما تكون لا تزال بذرة، تحتاج أن تُحْمَى من أي تأثير، أن يحتضنها صاحبها بعيدًا عن كل شيء، أن ينفرد بها لكي يستطيع أن يجعلها مميزة.

الكهف هنا مثل الحاضنة؛ الرحم والفكرة، البذرة هنا مثل الجنين الذي لا بد أن ينمو داخل الرحم بعيدًا عن العالم الخارجي.

***

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ۞ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف ٣٢: ٣٤).

مرحلة صاحب الجنتين هي أولى مراحل الخروج من الكهف، النزول إلى الواقع، في القصة يحاور المؤمن «صاحبه» الكافر ويحاول تغيير فكرته، الفكرة إذن أصبحت مؤهَّلة لكي تواجه الفكرة المقابلة وتناقشها، خرجنا من الحاضنة إلى التضاد والتفاعل مع الأفكار الأخرى، تفاعل يمكن أن يكون مثل اللقاح الذي يزود الفكرة الأصلية بمناعتها عبر تكوين مضادات لا بدَّ منها.

كل فكرة تحتاج هذا الجدل، هذا التفاعل، لا يمكن لها أن تنزل إلى التطبيق قبل أن تمر بهذه المرحلة؛ مرحلة صاحب الجنتين.

***

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (الكهف: ٦٠).

مرحلة موسى والعبد الصالح هي مرحلة التطبيق، مرحلة النزول إلى الأمر الواقع، مرحلة المرونة في الفهم والابتعاد عن الألواح الحجرية، كل فكرة عندما تكون مجرد فكرة تحتوي على نوع من المثالية التي ستصطدم حتمًا بالواقع ولن تجد لها مكانًا في التطبيق، بدلًا من ترك الفكرة كلها

وبدلًا من تحطمها على صخرة الواقع، لا بد من نوع من المرونة، لا بد من تحديث مناسب للواقع ومعطياته التي كانت غائبة في مرحلة «الكهف».

الأمر هذا يحدث مع كل فكرة وكل مشروع، مهما كانت طبيعته، بل حتى مع العلاقات الشخصية، الفكرة المسبقة قبل الدخول في «معترك الحياة» تكون «نظرية» ومليئة بالتوقعات العالية، لكن لاحقًا تحدث «تعديلات» تناسب الواقع، دون أن تلغي الفكرة الأصلية تمامًا.

***

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف ٨٣: ٨٥).

مرحلة ذي القرنين هي مرحلة النجاح، ذروة المشروع أو الفكرة، المرحلة النهائية، الهدف لكل ما سبق، في القصة يبدو «اتباع الأسباب» واضحًا كركيزة لهذا النجاح، لكن الحقيقة أن هذا النجاح كان النتيجة لكل ما سبق من مراحل.

ليس هذا فقط، ففي كل مرحلة من هذه المراحل، هناك أيضًا في داخلها كهف صغير، كهف تنسحب إليه لتراجع وتعيد النظر وتعيد التقييم، كهف تختلي فيه مع نفسك ومع فكرتك، وهناك في كل مرحلة ذلك النقاش مع الفكرة المضادة، وفي كل مرحلة أيضًا هناك ذلك التفاعل مع الواقع ومتطلباته.

كل المراحل موجودة في كل طور من الأطوار، المهم أن تكون واعيًا بأهمية ووظيفة كل طور.

***

لو تأملتَ في حياتك لربما وجدت بعض هذه الأطوار، ربما كنت لا تزال تمر بها، ربما كنت في الكهف، وربما كنت لا تعرف أن عليك الخروج منه، ربما وجدت نفسك خارج الكهف قبل الأوان، ودفعتَ ثمنًا باهظًا لذلك، ربما علقتَ في الكهف؛ لأن الخارج بَدَا لك مخيفًا جدًّا.

ربما تجد في الكهف البراءة والنقاء الأول الذي كان ذات يوم، وربما تجد في صاحب الجنتين أول مرة تعرفتَ فيها على أفكار أخرى مختلفة عما تعتنقه، ربما تجد صدمتك الأولى والثانية والثالثة في قصة الموسى والعبد الصالح، ربما ستجد فيها كل ما كرهته في حياتك عندما حدث، واعتبرته أسوأ ما حدث لك، ثم تمر الأيام، فإذا بك تكتشف أنها كانت أفضل ما حدث لك.

هل ستجد مرحلة ذي القرنين أيضًا في حياتك؟ إن كنت ستجد، فحافظْ عليها بكهف بين حين وآخر، تراجع فيه كل ما حدث.

***

نعتبر «أهل الكهف» مثالًا على النوم الطويل، وفي الحقيقة أنهم كانوا قد سبقوا عصرهم.

يمكنك أن تعدَّ الكهف مكانًا للنوم فعلًا، وتقضي حياتك فيه.

لكن يمكن لهذا الكهف أن يكون منجمًا أيضًا.

يمكن لكهفك أن يُخْرِجَ منك أفضل ما فيك[1].

(١) للمزيد عن سورة الكهف: البوصلة القرآنية للمؤلف.

سورة مريم ١٩

عن المرأة الخارقة

مريم، يا مريم...

كيف مررتِ بكل هذا؟

كيف احتملتِهِ؟ كيف تماسكتِ؟ كيف صمد صمودكِ؟!

كيف استطعتِ أن تفعلي ذلك منذ أن عرفتِ حتى النهاية؟

من أي شيء أنتِ يا مريم؟ بأي شيء عُجِنَ طينكِ الأرضي حتى أصبحتِ بهذه القوة؟

يا مريم، لا يستطيع رجل أن يفهم هذا، لا يستطيع أن يتصوره.

لكن المرأة تستطيع، المرأة تستطيع أن تفهم ذلك.

وتشعر بكِ يا مريم.

***

سورة مريم هي عن «المرأة الخارقة»، لكنها ليست خارقة بالمعنى الهوليوودي للكلمة، إنها عن المرأة الخارقة التي يمكن أن نراها كل يوم، ويمكن نتعامل معها كل يوم، بل ربما عشنا معها طيلة حياتنا.

لماذا هي خارقة ما دامت منتشرة هكذا؟ ببساطة لأن «الرجال» لا يستطيعون تحمُّل ما تتحمله المرأة «الخارقة»؛ لذلك عندما يفكرون ويقيِّمون ما تفعله؛ يكتشفون أنها خارقة «بالنسبة لهم»، رغم أن مفاهيم القوة احتُكِرَت للرجل لفترة طويلة، إلا أن هناك نوعًا من القوة لا يطيقها الرجل، ليست ضمن مجال احتكاره، بل هي محتكرة للمرأة، هذا النوع من القوة التي جعلتها مؤهَّلة لتحمُّل آلام الولادة، هذا الجَلَد والصبر الذي يجعلها قادرةً على تحمل أعباء العناية بطفلها، وأحيانًا بعدة أطفال، بالإضافة إلى أكبرهم وربما أصعبهم؛ زوجها.

وهذا كله بالإضافة إلى البيت ومتطلباته، وربما وظيفة لا تقل إرهاقًا عن وظيفة زوجها، تركض هذه المرأة بين عدة جبهات وتنتصر فيها جميعًا، وقد تكون مريضة أو نُفَسَاء أو مرضع أثناء ذلك، ولكن كل شيء يسير غالبًا حسب المعتاد، دون أن ينتبه أحد أصلًا لها، بينما قد يدخل المنزل في حالة طوارئ إذا أصيب الرجل بالزكام.

لا أقول: إن السيدة مريم كانت خارقة بهذا المعنى، لا، هي أعلى بكثير من هذا الخارق «الموجود»، لكن من هذا الباب دَلَفَتْ مريم إلى ألمها، وأيضًا إلى مجدها.

مريم اختزنت كل آلام نساء العالم، وكل صبرهنَّ وجلدهنَّ، هي ممثلة عنهنَّ جميعًا، تنوب عنهنَّ وقد تقطرت كل تجاربهنَّ ومعاناتهنَّ عبرها.

منذ أن وُلِدَت مريم وهي منذورة لكي تثبت أن المرأة يمكنها أن تقوم مقام الرجل، كما جاء في سورة آل عمران:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٣٥).

أمها كانت تريد ذَكَرًا تهبه لله حسب التشريع اليهودي، لكن مريم أنثى، ومن تلك اللحظة كان على مريم أن تثبت ما على ملايين، مئات الملايين من النساء، أن يُثْبِتْنَهُ، ليست الأنثى أقل من الذَّكر، هي ليست كالذَّكر، لكنها ليست أقل منه، ويمكنها أن تقوم بالكثير مما يمكنه هو أن يقوم به، كما يمكنها أن تقوم هي بما لا يمكنه هو أن يفعله.

هذا التحدي يواجه الكثير من الإناث على نحوٍ يجعل حياتهنَّ بأسرها مبرمجة على أساسه، قصة يبدو أنها لن تنتهي منذ فجر التاريخ، تدخل المرأة في دور المرأة الخارقة التي تحارب وتنتصر على كل الجبهات.

كانت لا تزال جنينًا في بطن أمها يوم بدأ التحدي، لم يكن من المعتاد تقديم الإناث للخدمة الدينية، وكان الفرض في الشريعة عندهم تقديم الطفل الأول إذا كان ذَكَرًا وليس أنثى، ولكن أمها كانت نَذَرَتْهَا وأَوْفَتْ بالنذر، وكان على مريم أن تقوم مقام الذَّكَر، وأَبْلَتْ في ذلك بلاءً خارقًا، بل أكثر من ذلك، قامت بدور ما كان يمكن لذَكَرٍ أن يفعله.

قد يتخيل الرجال ما مرت به السيدة مريم، لكني أعتقد أن خيالنا يبقى قاصرًا مقابل ما يمكن أن تفهمه المرأة من ذلك، أن تكون شريفة لم يمسسها بشر في بيئة شديدة التدين والمحافظة، ثم أن تُبَلَّغَ بالخبر الصاعق: حُبْلَى.

الخوف، العار، القيل والقال، الفضيحة، التكذيب، العار، العار.

كل هذا وأوجاع الحمل التقليدية أيضًا.

وهي بمفردها.

نستطيع كرجال أن نتخيل، لكنني أعتقد أن الصورة في أذهان النساء ستكون أوضح وأدق.

***

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم: ٢٣).

تخيلوا المخاض وهي وحدها، تذكروا كيف تكون الاستعدادات اليوم، ثم تخيلوا الأمر، وحدها، في العراء، وطفل أول، دون تجربة سابقة تسهل عليها أنها بمفردها، نعم، لا بد أن ذلك قد حدث قبلُ وبعدُ، نسوة اضطُرِرْنَ أن يلدن في الخفاء وبمفردهنَّ، لكنه يبقى أمرًا صعبًا شديد الصعوبة.

وكان مخاضها مؤلمًا، أجاءها من ألمه إلى جذع النخلة، اضطرها إلى أن تلوذ بجذع النخلة، تتمسك به لعل ذلك يخفِّف ألمها.

وهناك تساقط عليها ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

وعندما عادت إلى قومها كانوا يظنون أنها جاءت تحمل عارها.

بينما كانت في الواقع، تحمل مجدها، كلمة الله.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (مريم: ٣٤).

***

لا يمكن أن أسمع تلك الآيات التي تقص قصة مريم وحملها دون أن يتسلَّل إلى خيالي صوت جعفر بن أبي طالب وهو يقرأها أمام النجاشي، يوم هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارًا من أذى قريش، وأرسلت قريش خلفهم من يطلب من النجاشي تسليمهم.

أتخيل صوته الذي لم أسمعه من قبلُ وهو يقرأ الآيات.[1]

تخيلوه، تخيلوا الكلمات تخرج من جعفر، ويعم الصمت مفسحًا المجال لذلك النور المتدفق حزنًا ورقةً، تخيلوها وهي تتجول في القصر والملك وحوله حاشيته.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۞ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۞ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۞ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۞ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ۞ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم ١٦: ٢٤).

وضعتهم الآيات في قلب أزمة مريم، الأزمة التي جعلتها تتمنى لو أنها ماتت ونُسيتْ تمامًا، ﴿لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾، امرأة في أزمة، وحيدة، على وشك أن تواجه اتهامات العار والفضيحة من قومها.

---

(١) مقتبس من كتاب السيرة مستمرة.

كم تشبه أولئك الغرباء المهاجرين الذين كان قومهم يريدون أن يرجعوهم غصبًا وقهرًا لينالوا منهم سوء العذاب.

لا بد أنهم سمعوا الآيات كما لو كانت تنزل للتو، كما لو أنهم يسمعونها أول مرة.

كانوا بضعة وثمانين رجلًا وزوجاتهم.

كلهم أحسوا أنهم مريم.

***

ونحن أيضًا، البعض منا على الأقل، أجاءنا مخاضنا إلى جذوع نخل، لا، لم تكن جذوع نخل بالضبط، كانت قوارب هجرة، أحيانًا كانت مجرد قَشَّة، وتعلَّقْنَا بها تعلُّق الغريق.

لكن مخاضنا لم ينته عند النخلة، ولا برطب جَنِيٍّ.

لم ينتهِ بعدُ.

***

لا يمكن لقارئ سورة مريم أن يغفل عن تكرار ذكر لفظ «الرحمن» فيها، ١١ مرة ذُكِرَت الكلمة في سورة مريم عدا البسملة، لا يوجد أي سورة أخرى في القرآن تقترب من ذلك، وأقرب شيء إلى ذلك هي سور الأنبياء ويس والملك، وكل منها ذُكِرَت الكلمة فيها ٤ مرات.

صدفة؟! حاشا لله.

لعله عز وجل هنا يشير لنا إلى معاني الرحمة التي تشير إليها لفظة الرحمن، فيربطنا بمريم، بالأم، بالمرأة الخارقة، هل هناك أكثر رحمة من الأم بين البشر؟ أليس معنى الرحمة قد جاء من «الرحم» أم العكس؟ لا فرق، لكن رحمة الأمهات أمر لا خلاف عليه، حتى في قسوتهنَّ أحيانًا، ثمة رحمة تكون من أجل مصلحة أبنائهنَّ وبناتهنَّ.

كما لو أنه عز وجل قد شاء أن يقربنا من معنى «الرحمن» عبر أوسع وأقرب ما نعرفه من معاني الرحمة.

***

في نفس السورة، على بُعد آيات من قصة مريم، يأتينا مشهد لسيدنا إبراهيم في مواجهة مع أبيه، ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم: ٤٦).

الأمهات عادةً لا يفعلن ذلك، رحمتهنَّ تمنعهنَّ من قول ذلك مهما كان موقفهنَّ، لديهنَّ أساليب «مضادة» أخرى طبعًا، لكن هذا النمط نادر عند النساء.

***

وفي نهاية السورة تقريبًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦).

الود؟

كم هو مناسب هذا لجو السورة ولمريم عليها السلام!

***

تختصر كل النساء وتمثلهنَّ أيضًا.

السيدة العذراء، رمز النقاء والرحمة والأمومة.

مريم.

مريمتنا جميعًا.

سورة طه ٢٠

لن أعيش دور الضحية

﴿طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه ١: ٢).

لكن هذا العالم مليء بالشقاء والتعاسة يا رب.

ماذا عنه؟ كيف نتعامل معه؟

الشقاء موجود في هذا العالم كجزء منه، هو موجود قبل أن يتنزَّل القرآن وبعد أن تنزَّل، وفي الغالب سيبقى كذلك إلى أن تقوم القيامة.

الشقاء والسعادة والمرض والصحة والجهل والمعرفة والكفر والإيمان والحب والحقد، كل شيء وضده موجود، كل شيء موجود في هذا العالم، كلها تشكِّل هذا العالم كما نعرفه، ربما النِّسَب ليست متساوية، ربما الشقاء أوضح في الكثير من الأحيان، هذه هي الحياة للأسف.

لكن ماذا عن القرآن؟ لماذا تبدأ السورة هكذا، بنفي ارتباط القرآن بالشقاء، هل هناك شك في هذا؟ هل هناك ما أُوحِي إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- أو إلى المسلمين من حوله بذلك؟

غالبًا نعم.

السورة نزلت في الفترة المكية كما هو معلوم، وكان المسلمون قد تعرَّضوا في هذه الفترة إلى الكثير من الشدة والتضييق وصولًا إلى التعذيب المباشر.

ولعل الأمر بدأ من كفار قريش وهم يقولون للمسلمين: لقد أشقاكم هذا القرآن.

ولعل البعض من المسلمين كان ينظر إلى الأمور، ويُخَيَّل له أن هذا الشقاء أمر ملازم للإيمان.

السورة تقول في مطلعها ألّا نتمادى في ذلك، الشقاء قد يحدث، لكنه ليس هدفًا بحد ذاته ولا مقصدًا، هو محض نتيجة عارضة وعابرة.

يسهل على البعض أن يعيش الدور، دور الشقي المظلوم، يبرر لنفسه البقاء فيه بهذه الحجة أو تلك، كي يبقى في الدور، في عدم المواجهة، هناك مَنْ ظلمه، هناك من يتوجه له باللوم.

السورة تقول لنا، لكل من يستسهل العيش في دور المظلوم والضحية: كُفَّ عن هذا، اخرج عن هذا الدور، واجِهْ.

السورة - بالمناسبة - لا تقول لنا: إن القرآن قد تنزَّل لكي يجعلنا نشعر بالسعادة.

السعادة يمكن أن تحدث، بل هي تحدث لكثيرين بالفعل، يقدم القرآن لهم مصدرًا من مصادر الطمأنينة والسعادة.

لكن هذا مرة أخرى، ليس الهدف منه، بل هو مجرد نتيجة.

القرآن نزل ﴿تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

وسيكون هناك - في خاتمة السورة تقريبًا - شيء آخر عن هذا.

***

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۞ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طه ٩: ١٠).

أول مواجهة تعقدها السورة هي مع سيدنا موسى.

موسى كان طريدًا بسبب قتل سابق، وكان يمكن أن يبقى داخل هذا الدور، دور القاتل الذي لم يتعمد القتل، المظلوم بـ«حظ سيئ» أو بسرعة غضب، المذنب «بالخطأ» الذي سيبقى طريدًا منفيًّا طيلة عمره.

لكن الوحي يأتيه أن ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه: ١٢).

يخرجه الوحي من دوره القديم، دور القاتل المظلوم، ويقدِّمُ له دورًا مختلفًا تمامًا، دور النبي صاحب الرسالة، ويطلب من هذا «المظلوم سابقًا» أن يواجه فرعون نفسه.

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (طه: ٢٤).

أعطاه الوحي دوره الجديد، وأعطى لعصاه دورًا جديدًا أيضًا.

***

لا بد أن صدر موسى قد كان فيه ما فيه وهو يخرج من دور المذنب المظلوم إلى مهمة النبي الرسول.

لا بد أن صدره ضاق الأمر.

وكان الدعاء، دعاء المواجهة، أي مواجهة.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (طه ٢٥: ٢٨).

أن يتقبل صدره الأمر الذي يطالب به، وأن يكون واضحًا في بيان حجته.

وأن يطلب التيسير من الله.

***

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۞ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۞ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه ٣٧: ٣٩).

لم يكن هذا أول خروج من «مظلومية» في حياة سيدنا موسى.

فقد وُلِدَ في مرحلة قتل أطفال بني إسرائيل، ألقته أمه في اليمِّ، ومن ثم سارت الأمور بحيث صار في قصر فرعون.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (طه: ٤٠).

دومًا هناك قدر يمكن أن يُخْرِجَنَا من مظلوميتنا.

علينا أن نقبل به ونتحمله.

***

حتى سحرة فرعون، عندما آمنوا برب موسى، وهددهم فرعون بالتعذيب والصلب.

قالوا له: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: ٧٣).

كانوا مُجْبَرين على السحر، خرجوا من ظلمهم وواجهوا فرعون، دفعوا الثمن حتمًا، لكن لكل شيء مهم في الحياة ثمن، وثمن باهظ أحيانًا.

لكنهم لم يبقوا أسرى في دور مظلومي فرعون.

***

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ۞ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (طه ٨٦: ٨٧).

وعندما عاد موسى إلى قومه ووجدهم يعبدون العجل الذي صنعه السامري.

هم اتهموا السامري بأنه السبب، وهارون قال: إنه لم يفعل شيئًا كي لا يفرق بين بني إسرائيل.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ۞ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه ٩٥: ٩٦).

حتى السامري، ادَّعى أنه رأى ما يشبه الملاك، وبعدها سوَّلت له نفسه.

لم يتحمل أحد المسؤولية.

الكل ضحية.

***

منذ أن وسوس إبليس لآدم وزوجه، وهناك من يجد أن الحل هو أن يكون ضحية مظلومًا كي يتخلى عن مسؤوليته.

لكن عندما أُخْرِجَا من الجنة.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٣).

لا يضلُّ ولا يَشْقَى.

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾(طه: ٢).

على العكس.

من اتبعه لا يضلُّ ولا يشقى.

يمر بالشدائد والصعاب، لكن نظرته لها لن تكون كشقاء.

بل كضريبة، كامتحان.

من اتبعه، لن يضلَّ في دوره، ويبقى في دور الشقي.

بل سيبحث عن الدور كما جاء في هذا «الهدى».

سورة الأنبياء ٢١

هدم من أجل البناء

حمل فأسه معه، وتَحَيَّنَ الفرصة المناسبة.

تسلَّل إلى المعبد.

لم يكن هناك أحد.

ونفَّذ خطته.

انهال ضربًا على التماثيل التي كان يعبدها قومه.

حطمها جميعًا إلا كبيرهم، تركه عامدًا حسب الخطة.

***

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء ٥٧: ٦٣).

ذلك هو المشهد المركزي – الذي لا يُنْسَى – في سورة الأنبياء.

سيدنا إبراهيم – أبو الأنبياء – هو الذي فعل ذلك.

ومن تفاصيل ما تذكره السورة، نفهم إن إبراهيم كان صغير السن وقتها، ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

ونتعرف على مواجهته لقومه عندما استجوبوه وحوَّلَ الاستجواب هو إلى كبير الأصنام، عامدًا أن يواجههم بلا منطقية ما يؤمنون به.

وانتهى الأمر بقرارهم عقوبته بالحرق، ثم كانت النار بردًا وسلامًا عليه.

***

هذا المشهد هو المشهد المركزي في سورة الأنبياء.

لكنه مشهد «هدم»، وهو لا يختصر مسيرة الأنبياء على الإطلاق.

نعم، سنبدأ بالهدم، فهو مهم بالتأكيد.

لكنه هدم من أجل البناء، ليس هدمًا من أجل الهدم، الهدم ليس هدفًا، ليس الهدم إلا وسيلة للوصول إلى مكان مناسب للبناء.

سنرى هناك في قصص الأنبياء الذين سيذكرون في السورة مواقف هدم ودمار للأقوام التي كذَّبت بدعوة الرسل؛ مثل: لوط ونوح -عليهما السلام-.

وسيكون هناك ذكر لأنبياء لم نعرف في قصتهم دمارًا لأقوامهم؛ مثل: إسماعيل وإدريس وذا الكفل وأيوب وزكريا -عليهم السلام أجمعين-.

وسيكون هناك من نعرف أنهم نجحوا في نجاة قومهم؛ مثل: سيدنا يونس - عليه السلام -.

وسيكون هناك تركيز على داود وسليمان - عليهما السلام - وقد حققا أعلى معاني البناء.

العدل كما في مثال حكمهما على صاحب الغنم والحرث، والسنن؛ المعرفة بالصنائع والتحكم بالموارد الطبيعية.

***

إذن مقابل مشهد الهدم المركزي في السورة، نقطة الانطلاق، هناك أيضًا التتمة الضرورية، مشاهد البناء التي تكمل الصورة.

ولو قمنا بحساباتنا، فإن نماذج البناء ستكون أكثر من نماذج الهدم.

لماذا؟

للهدم جاذبيته، خاصة عندما تكون شابًّا ومتمردًا وتريد أن تثبت نفسك مقابل تراث الأجداد، هذه الجاذبية قد تنتج هدمًا لا ينوي البناء، هدمًا من أجل الهدم فحسب.

الهدم سهل (اسألوني أنا عنه!)، التحدي الحقيقي هو في أن تقدم بديلًا عما تهدمه، أن تهدم فكرة سلبية وتنتقدها وتكشف مغالطاتها أمر ليس بالصعب، لكن الصعب حقًّا هو أن تقدم الفكرة البديلة التي تزرعها بدلًا من تلك التي هدمتها، الشيء ذاته مع كل ما يستهدف بالهدم، أي منظومة قيم أو أي مؤسسة، إن كنت تريد أن تهدم وليس في ذهنك أي خطة للبناء، فغالبًا طريقك قصير، والهدم سيكون على رأسك أنت، والنتيجة بالمجمل ستكون لصالح ما حاولت هدمه، حيث إن فشلك سيقدم أدلة للبعض على صلاحيته.

لم تنتهِ رحلة إبراهيم في المعبد تلك الليلة، بل قادته إلى طريق رأيناه فيه وهو يرفع القواعد من البيت، ويؤسس البلد الآمن.

كان المشهد مشهد هدم فعلًا، لكنه هدم من أجل البناء، ولو في مكان آخر.

فلننتبه هنا إلى أن مشهد الهدم هذا لم يؤدِّ إلى أن يؤمن قومه، رغم أنه ضرب معتقداتهم في الصميم.

كما لو أن الرسالة هنا هي أنه لكي تجعل الناس يؤمنون بك، عليك ألَّا تكتفي بهدم إيمانهم،

بل أن تقدم البديل بوضوح.

وهذا ما فعله الأنبياء.

هذا ما قدمته السورة.

***

تقول لنا السورة أيضًا: إن مواجهة الهدم والبناء فيها مخاطر، مخاطر تطلبت أحيانًا أن ينجِّيهم عز وجل من كيد الكافرين أو من الدمار الذي لحق بأقوامهم.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنبياء: ٩).

واستُخْدِمَت الكلمة «نجيناه» مع كل من إبراهيم ولوط ونوح ويونس في هذه السورة.

مع إبراهيم كانت النجاة من النار.

مع لوط كانت النجاة من الحجارة التي دمَّرت قريتهم.

مع نوح من الغرق، ومع يونس كانت من الغم.

مع أيوب كانت بكشف الضر عنه.

مع زكريا كانت بالاستجابة لدعائه بالذرية.

فلننتبه هنا إلى أن الأمر تغير مع تقدم الخط النبوي تاريخيًّا.

بعبارة أخرى، الأنبياء والرسل الأبكر تاريخيًّا: «نوح، إبراهيم، لوط» كانت نجاتهم من دمار حتمي بالظروف الاعتيادية؛ النار، الغرق، الحجارة.

مع الأنبياء اللاحقين الذين تذكرهم السورة تغيَّرَ الأمر.

لم يعد هناك «عقوبة جماعية» تتطلب التدخل، كما لا تذكر السورة «شيئًا مباشرًا» كالذي حدث مع إبراهيم.

كلما اقتربنا من ختم النبوة أكثر - منه عليه الصلاة والسلام - يقل الأمر، مع استثناء ما حدث لسيدنا عيسى - عليه السلام - ولكن رفعه لم يُذْكَرْ في هذه السورة.

كما لو كان الأمر لتدريبنا على أن نعتمد على أنفسنا أكثر فأكثر، ألَّا نتوقع المعجزات، فهي خاصة بالرسل والأنبياء.

كما لو أنها لتدريبنا على ألَّا نتوقع أن تتحول النار بردًا وسلامًا لمجرد أننا دعونا الله أن يفعل ذلك كما فعل مع إبراهيم، تجنَّب أن تقودك طرقك إلى النار، أو حاوِلْ محاربتها وتخفيف آثارها بالطرق التقليدية.

لكن النار لن تتحول بردًا وسلامًا عليك كما تحولت مع أبي الأنبياء، لن يحدث.

الأنبياء قدوتك، لكنك لن تحصل على ما حصلوه من استثناءات معجزة.

بل هم قدوتك مع التركيز على ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨).

***

سورة الأنبياء هي واحدة من ثلاث سور في القرآن تذكرنا بحقيقة نادرة من حقائق الحياة التي لا يجادل فيها أحد؛ الموت.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥).

وما دام الأمر كذلك، وبحسم، ما دام الموت ينتظرنا عند منعطف ما.

فلتكن لحياتنا معنى.

***

وسورة الأنبياء هي السورة التي تذكرنا بحقيقة أخرى.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

العباد الصالحون....

لعلهم أولئك الذين وازنوا بين حسابات الهدم والبناء.

لعلهم أولئك الذين لم يكونوا عن هذه الحسابات غافلين.

سورة الحج ٢٢

تأشيرة حج

ما كان يمكن لسورة نزلت آياتها متفرقة في مكة والمدينة، والحضر والسفر، والليل والنهار، إلا أن تكون «سورة الحج».

الحج الذي هو رحلة تبدأ من بيتك - أينما كنتَ - منذ أن تنوي الحج، وتنتهي إلى البيت العتيق.

وسورة تصف رحلة كهذه، ما كان يمكن إلا أن تتنزل على هذا النحو، حضرًا وسفرًا ليلًا ونهارًا، بين مكة والمدينة.

إنها رحلة، تأخذك السورة لها، حتى لو كنت لم تذهب للحج سابقًا، أو حتى لو كنتَ قد ذهبت مرارًا.

السورة تأخذك مجددًا أو لأول مرة إلى عمق الحج، لكن دون حاجة إلى تأشيرة أو بطاقة سفر.

***

بينما تعدُّ نفسك لهذه الرحلة، تذكرك السورة بأن حياتك كلها رحلة سفر بمحطات متعددة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ

مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

العمر كله رحلة في النهاية.

كما هو الحج رحلة.

***

سورة الحج هي السورة الوحيدة في القرآن التي تسمّي الكعبة بالبيت العتيق.

لم يُذْكَر هذا عن الكعبة أو البيت الحرام إلا هنا في هذه السورة ومرتين.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩).

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٣٣)

البيت العتيق إذن.

وأنت ترحل له.

لعلك ترحل لبيتك، بيتك الأصلي، لعلك عشتَ طيلة حياتك في بيت ليس بيتك ولو كنت تملك سند ملكيته.

لعلك قضيتَ حياتك مغتربًا، مشتاقًا لبيت لا تعرفه.

وها أنت تكتشفه، بيتك الأول هذا الذي لم تَزُرْهُ من قبلُ.

ربما لهذا يسمى «البيت العتيق»[1].

***

في سورة الأنبياء – السورة السابقة لسورة الحج – رأينا سيدنا إبراهيم في بداية الطريق.

مشهد الهدم، بعد أن هدم أوثان قومه.

هنا – في سورة الحج – نراه بعد أن أكمل بناء البيت، وها هو يوجِّه نداءه إلى الكل، أن تعالوا إلى البيت.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج ٢٦: ٢٧).

نحن في مرحلة ما بعد البناء، وهذا النداء بالحج – الموجه لكل الناس – يعكس تجاوز الرسالة مرحلة «محليتها»، كونها محصورة في الناس حول إبراهيم وبنيه، إلى ما هو أبعد وأوسع من ذلك، يمكننا أن نقول: إنها مرحلة «عالمية»، على الأقل بالنسبة للعالم القديم.

مرحلة اكتمال البناء هذه على يد سيدنا إبراهيم، يمكن أن تفسر شيئًا آخر ورد في السورة.

***

(١) للمزيد عن الحج: طوفان محمد عليه الصلاة والسلام للمؤلف.

سورة الحج احتوت على الآية التي أَذِنَ فيها الله للمسلمين بالقتال.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ (الحج ٣٩: ٤٠).

للوهلة الأولى، ما العلاقة بين الحج والإذن بالقتال؟

العلاقة هي في المرحلة.

الحج الأول الذي نادى فيه إبراهيم كان بعد اكتمال البناء.

وهذا الإذن بالقتال حدث بعد أن أصبح للمسلمين تجربتهم الوليدة التي يجب حمايتها والقتال دفاعًا عنها.

صار عندهم في هذه المرحلة - ما بعد الهجرة تحديدًا - بناء يستحق الدفاع عنه لحمايته.

ويستحق أيضًا أن يكبر، أن يتوسع.

القتال أمر ليس باللطيف، وهو ﴿كُرْهٌ لَكُمْ﴾ كما قيل في سورة سابقة.

لكن هناك أشياء كثيرة في الحياة ليست لطيفة بالمطلق.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

إنه الدفع الضروري للبناء.

لولا هذا الدفع لهُدِّمَتْ صوامعُ وبيَعٌ ومساجد.

ومعه يمكن حمايتها، ويمكن حماية أي تجربة «بناء».

***

وتأتي الإشارة بعدها مباشرةً إلى مرحلة ما بعد البناء؛ التمكين.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١).

لقد بنوا، ودافعوا عن البناء، ومن ثم انتصروا في الدفاع والدفع.

فكان أنّ جاء التمكين الذي لم يستغلوه للإفساد، بل ساعدوا الناس وأصلحوا بينهم.

***

في كل القرآن الكريم لم يأت الفعل (يعظم) غير مرتين اثنتين.

في سورة الحج تحديدًا.

والفعل «يعظم» واضح المعنى، يكبر، يفخم.

وقد جاء في استخدامين، تعظيم الحرمات.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج:٣٠).

وتعظيم الشعائر.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢).

والاستخدامان متضادان متقاربان.

ويمكن التعبير عنها بأخذ الأمر بجدية بالغة، لا مزاح ولا تهاون، لا في الحرمات التي لا يجب على الحاج أن يلتزم بعدم تخطيها، ولا في الشعائر التي يجب أن تؤدّى بجدية بالغة.

وكل من اعتمر أو حج، يعرف أن طول مدة أداء المناسك يجعل البعض يتصرف كما لو أن الأمر عادي، يضحك، يتحدث في أي شيء عادي.

تقنيًا، أداء المناسك هنا صحيح، لا يوجد ما يدل على غير ذلك.

لكن التعظيم لها، أخذها بجدية بالغة بحيث تعزل عن صغار الأمور، هو أتقى بالتأكيد.

***

ولا يمكن أن نتجاهل أن الفعل «يعظم» هنا، قد يرتبط بالآية الأولى من السورة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج: ١).

كما أن هذه الآية الأولى أيضًا، تذكرنا بفعل آخر تكرَّر في السورة.

﴿اتَّقُوا﴾ تذكرنا بالتقوى التي يبدو أنها مرتبطة بالحج على نحو قوي.

ففي سورة البقرة - في آيات الحج منها - ذُكِرَت التقوى بصفتها خير الزاد.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الحج: ١٩٧).

وهنا في سورة الحج، التقوى مجددًا.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج:٣٧).

التقوى إذن، تقوى القلوب تحدّد الآية الكريمة.

كم تبدو فريضة الحج من خارجها «عبادة جوارح»!

وكم هي في عمقها «عبادة قلوب»!

أمر لا يمكن أن يحدده إلا المطلع على ما في القلوب.

كل شيء عدا ذلك محض مظاهر.

***

وسورة الحج هي السورة التي حدَّدت لنا أن سيدنا إبراهيم هو الذي سمانا مسلمين.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨).

يشبه الأمر – بلا تشبيه – أن يقال لك: إن جدك فلان – الذي لم تره ولكن سمعتَ عنه كثيرًا – قد اختار لك اسمك عندما وُلدتَ.

يربطك ذلك عاطفيًّا به على نحو مختلف، يصنع بينكما رابطة أعمق من رابطة الدم التي تربطك به.

إبراهيم سمانا مسلمين.

اختار لنا هذا الاسم.

شيء يزيدنا ارتباطًا به وانتماءً لرسالته.

***

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج: ٢٧).

ثمة فج عميق في داخل كل منا.

فج عميق في مجاهل تضاريسنا، بين مرتفعاتنا الوعرة.

ثمة شيء فينا يريد أن يخرج من هذا الفج العميق.

لكي يلبي النداء.

لكي نذهب أخيرًا إلى بيتنا الأول.

البيت العتيق.

كلنا لاجئون مشردون بطريقة ما.

وحده البيت العتيق هو البيت حقًّا.

سورة المؤمنون ٢٣
أهمية الشخص «العادي»

الكل يتحدث عن أهمية أن تكون مبدعًا متميزًا شغوفًا بمجال ما، الكل يتحدث عن مارد ما وعملاق ما في داخلك.

وهذا يُحْدِثُ أثرًا عند البعض فعلًا ... وهؤلاء البعض من المبدعين والمتميزين عادةً ما يكونون قلة. هذه طبيعة الأشياء.

لكننا في غمرة الحديث عن «المبدع» و«الخارق» نكاد ننسى الحديث عن أهمية الشخص العادي، الشخص الذي أهميته في أنه شخص عادي، الكلمة ليست مسبَّة ولا انتقاصًا منه، وكل المتميزين ما كان يمكن لتميزهم أن يكون منتجًا ومؤثرًا لولا «الشخص العادي».

الشخص العادي هدف كل الرسالات وكل الفلسفات وكل الشعارات.

سورة المؤمنون تقابلنا بعد سورة الحج - السورة التي تحدثت عن «انتهاء البناء» - لتحدثنا عن الشخص الذي ما كان يمكن للبناء أن ينتهي من دونه: الشخص العادي.

تأخذنا السورة في بدايتها إلى صفات المؤمنين الذين سيحققون الفلاح، الفوز، الذين سيرثون الفردوس.

قد نتوقع من قائمة الصفات أن تكون صعبة، خارقة الصعوبة، قد نتوقع على سبيل المثال ما نسمعه عن أعمال بعض السلف في العبادات، الصلاة ألف ركعة في اليوم والليلة، أو قيام الليل كله طيلة أيام السنة، أو قراءة القرآن في ركعة واحدة.

لكن لا شيء من كل هذا.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (المؤمنون ١: ١٠).

خشوع في الصلاة ومحافظة عليها، إعراض عن اللغو والتفاهات، زكاة، عفة، أمانة للعهد ورعاية له.

لن أدَّعي أنها سهلة أبدًا، ولن أدَّعي وجودها في شخص بعينه.

ولكنها صفات ممكنة التحقيق، ليست خارقة ولا مستحيلة، يمكن أن تعدَّ في حياتك عدة أشخاص عرفتهم وأنت تظن بينك وبين نفسك أنهم قد حققوا هذه الصفات أو أغلبها، أو هذا ما بَدَا لك منهم، إلا الخشوع في الصلاة الذي لا يمكن أن يُقاس أو يُعرف، والذي لا بد من الاعتراف أنه قد يكون أصعب ما في القائمة.

هي صفات يمكن إنجازها، ليست صفات الواحد في المليون بالتأكيد، ولا نسبة محتملة عندي لمن يمكن أن يحققها، لكن يمكن لجارك أو عمك

أو رفيق لك أن يكون قد حققها، دون أن يبدو عليه ذلك التميز أو الإبداع، ودون ْن يكون له منجزات كبيرة تتحدث عنها وسائل الإعلام.

إنها صفات يمكن للشخص العادي أن يحققها ويحوزها.

لو أننا نظرنا إلى هذه الصفات من منظور معاصر؛ لرأينا في هذا الشخص شخصًا ملتزمًا بالقوانين والتعليمات، سواء تلك التي تنظم علاقته بربه؛ الصلاة، الخشوع فيها والمحافظة عليها، أو العبادات عمومًا، أو التي تنظم علاقته بالمجتمع؛ الزكاة، العفة، أمانة العهد.

هو شخص عادي، ملتزم بالقانون (بالمعنى الواسع للكلمة، علمًا أن أمانة العهد تشمل القانون فعلًا).

ليس هذا فقط.

بل إن سورة المؤمنون تأخذنا إلى قصص الأنبياء، وتبين لنا أن الكفار كانوا يرون أن الأنبياء كانوا أشخاصًا عاديين، وكان هذا سببًا لرفض دعوتهم.

كل الأنبياء الذين ستردُ قصتهم في هذه السورة ستشير إلى ذلك.

مع نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

مع صالح: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٣)

مع موسى وهارون: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (المؤمنون: ٤٧).

كل هؤلاء بَدَوْا أشخاصًا عاديين.

وبمتابعة خواتم ما حدث في هذه القصص، نصل إلى نتيجة مهمة، لا تقلل أبدًا من قيمة الشخص العادي.

***

ماذا عن الأشخاص الآخرين الذين لم يحققوا الفوز والفلاح، وانتهوا إلى جهنم.

هم أيضًا في الغالب كانوا أشخاصًا عاديين، فالشخص العادي يمكن أن يأخذ أيًّا من الطريقين.

المؤمنون اختاروا طريق الانضباط بالتعليمات، الآخرون للأسف لم يفعلوا، سيقولون هم لاحقًا مفسرين ما حدث: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (المؤمنون: ١٠٦).

لقد انشقُّوا عن الانضباط والالتزام، فضَلُّوا الطريق.

***

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٢).

وردت هذه الآية أو ما يشابهها في المبنى والمعنى خمس مرات في القرآن الكريم.

هنا – في سورة المؤمنون – هي المرة الأخيرة التي سنقرأها أثناء قراءة المصحف.

كما لو أنها ذُكِرَت هنا بالضبط لتؤكد فكرة أن هذه الصفات ممكنة التحقيق لأي شخص دون مواصفات خارقة.

***

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

هذه هي مراحل نشوء الإنسان العادي، أي كلنا.

وعندما يولد طفلًا، سيكون جميلًا، فقط لأنه إنسان، رغم أنه عادي.

الكل جميل ما دام خلق الله.

العادي أيضًا جميل، وأيضًا مهم، ولولا العادي لما تميَّزَ أحد ولا نجح مشروع ولا تحققت رسالة.

فتبارك الله أحسن الخالقين.

سورة النور ٢٤

«نور، أنّى أراه؟!»

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥).

ربما تكون آية ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أكثر الآيات جمالًا وإلهامًا في القرآن الكريم، جميلة وروحانية، وتبعث على الطمأنينة.

المثل الذي استُخْدِمَ لتقريب ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ شديد الجمال والحميمية.

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

والمشكاة هي الكوَّة في الحائط، مغلقة ليست نافذة، كانت موجودة في طرز العمارة التقليدية، ويوضع فيها المصباح لحمايته من تيار هواء قد يؤثر عليه.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾.

حماية أخرى لنور المصباح، الزجاجة ستمنع - مجددًا - أي تيار هوائي يمكن أن يؤثر على نور المصباح.

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

الزجاجة نفسها مضيئة تلتمع، الكوكب الدري هو غالبًا كوكب الزهرة، الكوكب الأكثر لمعانًا بالنسبة للأرض بعد الشمس والقمر.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.

الوقود الذي يُستخدم في المصباح الذي في الزجاجة التي في المشكاة هو زيت مستخرَج من شجرة الزيتون، واحدة من أكثر الأشجار المعمِّرة في العالم، والتي تبقى منتجة رغم تقدمها في السن، كما تبقى خضراء طيلة أيام السنة، هذا الزيت هو الأصفى والأنقى بمعايير الوقود في المصابيح.

ولأن هذه الشجرة ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، فكل ثمارها تعرَّضت لنفس المستوى الوسطي من أشعة الشمس، وهذا يجعل زيتها متجانسًا تمامًا.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

من شدة نقاء هذا الزيت، يكاد يضيء دون أن يوقَد.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

نعم، نحن في دوائر متداخلة من النور، نور المصباح، نور الزيت، ونور الزجاجة أيضًا؛ لأنها تعكس نور المصباح كما يعكس الكوكب نور الشمس.

هذا النور يغمر السماوات والأرض.

وهو يغمرك أيضًا، يغمر قلبك وروحك، يغمر كلك بكل ما فيك.

أنت أمام الجدار، والنور منبعث من الكوَّة في الحائط، هادئ ثابت لا يهتز، وهو بثلاث تدرجات من النور؛ نور على نور.

النور يغمر المكان، وأنت أمام الجدار، هل يمكن إلا أن تنجذب إلى هذا النور، يحيط بك ويخترقك؟ نور لا يشبه الأضواء الساطعة الزاعقة التي نعرفها اليوم، ولا أضواء النيون الباهتة الكئيبة، بل نور حقيقي يصعب وصفه، كل ما عرفت في حياتك من أضواء كان نسخة مزوَّرة وباهتة من النور، محاولة فاشلة لتقليد هذا النور.

من تلك الكوَّة يتدفق النور، ويغطي على عالمك كله، يغرقك من أقصاك إلى أقصاك بطمأنينة آسِرَة لا فكاك عنها، يغمرك النور حتى تتنفسه، فيصير لهاثك كالنشوة.

ثم تقول: نعم، نور السماوات والأرض.

***

للوهلة الأولى، قد نجد أن هذه الآية، باذخة الجمال بهيَّة الروحانية، تنتمي لسور بسياق مختلف عن سورة النور، آية روحانية كهذه، يمكن أن نتوقَّع أنها تكون في السور المكية، السور التي ركزت على جلال الله وصفاته وقدرته، أكثر مما فعلت السور المدنية.

لكن هذا التوقع خاطئ تمامًا.

ليس هذا فقط، بل إن السورة المدنية التي جاءت فيها هذه الآية قد بدأت بداية مختلفة تمامًا عن هذا الجو الروحاني، بل إن النسق العام لها، كان بعيدًا عن هذا الجو.

بدأت السورة هذه البداية.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور ١: ٢).

السورة تبدأ بعقوبة الزناة مائة جلدة.

وتستمر في هذا الاتجاه؛ عقوبة قذف المحصنات ثمانون جلدة، لمن تحدث على عرض امرأة دون أربعة شهود، اتهام الأزواج لبعضهم البعض، حادثة الإفك.

ثم هناك بعض التعليمات أو القواعد السلوكية التي تقوم مقام غلق الأبواب المفتوحة التي يمكن أن تقود للفاحشة، مثل عدم دخول البيوت دون استئذان، الغض من البصر (الغض من البصر وليس غض البصر كما ينتشر وهناك فارق بين الاثنين)، والآيات التي تحدد شكل تغطية المرأة لرأسها وصدرها.

في خضمِّ هذا الاتجاه المنهمك في تعديل «التجاوزات» التي تحدث في العلاقات بين الجنسين، ووضع ضوابط لها، في خضمِّ هذا الأمر بالغ الدنيوية وكل ما يرتبط به من غيبة وبهتان وقيل وقال، تأتي آية ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

يضربك النور فجأة دون مقدمات، كنت في شيء آخر تمامًا، شهوات وعلاجها وعقوباتها، وفجأة، ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾.



قد تستغرب الأمر قليلاً في البداية.

ما العلاقة في السياق؟

لكن لو فكرت قليلاً لَعَلِمْتَ.

***

لم تأت تلك الآية ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالرغم من ذلك السياق.

بل بسببه.

نعم، ليس بالرغم من أن السياق كان في اتجاه العلاقات بين الجنسين وضوابطها.

بل بسبب ذلك.

القرآن كان يتنزل على مجتمع حي، وليس على مدينة فاضلة.

والمجتمع الحي مكوَّن من بشر خطَّائين بطبيعتهم، ليس مجتمع ملائكة تمشي على الأرض، بل بشر لديهم نوازعهم المختلفة وتجاربهم وزللهم وسقوطهم وسموهم.

وهؤلاء البشر يمكن جداً أن يتعرضوا لأخطاء في الاتجاه الذي تحدثت عنه السورة.

ولأنهم كذلك، فهم بحاجة إلى جرعة معادلة ومكثفة من النورانية والروحانية.

مثلنا جميعا، كلنا نحتاج إلى هذه الجرعة من النور في عروقنا وبصائرنا، وهم مثلنا، المجتمع كله بحاجة إلى هذا لكي يوازن طبيعته

البشرية الخطّاءة، حتى أولئك الذين تحدَّثَتْ عنهم السورة في مطلعها، حتى الزناة والزانيات وأولئك الذين يرمون المحصنات، حتى أولئك بحاجة إلى ذلك النور المتدفق من المشكاة، كلنا بحاجة بالتأكيد، لكنهم أيضًا قادرون على التفاعل مع النور، على رؤيته في أعماقهم، على رؤية أنفسهم من خلاله.

***

ليس هذا فقط.

الكثير من هذه القضايا تُعَدُّ حساسة، تُعَدُّ من المحرمات التي لا داعي لذكرها أصلًا، تكفيها المواعظ العامة دون تفاصيل، وكل شيء على ما يرام في المجتمع وفقط المجتمعات الأخرى هي التي تعجُّ بالمعاصي والعلاقات الحرة، نحن على ما يرام والحمد لله.

تسلط السورة النور على عيوب المجتمع ومحرماته دون تخوُّف، واجِهةً حقيقة بشرية المجتمع ولا تحوِّلُهُ إلى مقدس ملائكي؛ لأنه سيتحول إلى مجتمع يفعل في الخفاء ما يلعنه في العلن.

السورة تعلِّمنا أن نوجه النور إلى تجاوزات الطبيعة البشرية وإخفاقاتها؛ لأن هذا هو الطريق لمعالجة الأمر.

وستتعرف على نفسك أكثر وبصورة أدق مع هذا النور الذي غمرك.

وكما تطهِّر الشمس الجروح وتقتل جراثيمها.

فإن هذا النور المتدفق من الكوة يمكنه أن يطهِّرَك، ويقتل جراثيم وأدران روحك.

***

أمر مهم بخصوص العقوبات الواردة في السورة، وهي عقوبات تخص الزناة، وعقوبات أخرى تخص الذين يَرْمُون «النساء» ويتهمونهنَّ في أعراضهن.

عقوبة الزنا ١٠٠ جلدة للشريكين.

وعقوبة الاتهام دون شهود ٨٠ جلدة.

أي إن عقوبة «لحديث عن الأمر واتهام شخصين بزنا؛ تعادل ٨٠٪ من عقوبة فعل الزنا نفسه.

لكن هذا ليس كل شيء.

لأن عقوبة «الزنا» لن تتحقق إلا بوجود أربعة شهود شاهدوا الواقعة فعليًّا، شاهدوها تفصيلًا وليس مثلًا أنَّ شاهدًا رجلًا وامرأة يختليان في مكان ما، لا، إن قال هذا شيئًا عن زنا وهو لم يشاهد سوى أنهما دخلا إلى مكان مغلق، فهذا يُجْلَد.

عمليًّا، هذا يجعل تحقق العقوبة صعبًا جدًّا؛ إذ هذا يعني أن الواقعة حدثت بتفاصيلها الكاملة على نحو علني فاحش، وهو أمر غير منتشر، أو أن الطرفين اعترفا لأي سبب كان.

وهذا كله يجعل هذه العقوبات رادعة من طرفين.

رادعة للشريكين، ورادعة أكثر لمن يخوض في الأمر ويتحدث عنه، لماذا أكثر؟ لأن الواقعة تحتاج إلى شهود شاهدوا الأمر بالتفصيل وهو صعب، أما عقوبة الخائضين في الأعراض فهي لا تحتاج إلى هذا التعقيد، اتهمت

فلان وفلانة، هات أربعة شهود على ما تقول؛ شاهدوا كل شيء، أو تعاقَب ٨٠ بالمائة من عقوبة الفعل نفسه، ولا تُقبَل شهادتك بعدها.

الأمر باختصار هو تعامل واقعي مع الطبيعة البشرية، الأخطاء تحدث، لكن الستر أَوْلَى، إن لم يكن هناك شهود واعتراف، فالأمر سيبقى أخرويًّا، وربما هناك توبة ومغفرة وعفو قبلها.

والأخطاء تحدث، لكن الحديث عنها يزيدها ويشيع الفاحشة؛ لذا فعقوبة من يتحدث عن الأمر مشددة جدًّا وتقارب - من ناحية الشدة -عقوبة الفعل نفسه.

***

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

هؤلاء لا يشترط أن يكونوا مروجي الدعارة أو فاعلي الفاحشة.

هناك بعض النفسيات التي تنوح وتبكي على الفضيلة طيلة الوقت، لكنها في الوقت نفسه تتحدث عن أن «الكل الآن ساقط»، «الكل يفعلها»، «العالم يمشي هكذا».

هؤلاء يريدون ضمنًا أن يقولوا: لم يبق هناك شرفاء إلا نحن.

هؤلاء أيضًا يحبون أن تشيع الفاحشة.

***

وهناك أيضًا: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

وهذا أيضًا من النور على نور على نور.

***

ومقابل النور، هناك في الجهة الأخرى سراب وظلمات.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور ٣٩: ٤٠).

***

سورة النور.

الآن، أنت ترى أفضل.

الفرقان ٢٥

أهمية ألَّا تكترث كثيرًا لما يقال

كل منا يملك لحظات صعبة مرت عليه في حياته.

لحظات كانت تبدو فيها الأمور أصعب من الاحتمال، ليس بسبب صعوبة المهمة الملقاة على عاتقنا ولا بسبب طبيعة الظروف المحيطة بها فحسب.

بل ببساطة لأن كلام الناس قد يزيد كل الأمور صعوبة، تجد نفسك فجأةً فريسة لاتهاماتهم وسخريتهم وسوء ظنونهم وأحيانًا كثيرة افتراءاتهم وكذبهم، ويكون ما في داخلك مختلفًا جدًّا عما يقولون وعما يفترون، وتصبح هذه الجبهة فجأة أصعب وأكثر مشقة من جبهة العمل الأصلي الذي كنت قد بدأته.

يمكنك أن تقول: ولماذا كلام الناس مهم؟ دعهم وكلامهم، المهم أن تفعل ما أنت مؤمن به.

صحيح، لكنك لا تولد مع هذه القدرة، لا نولد «بجلد التمساح» للأسف، بل نتطور بهذا الاتجاه مع الوقت، عبر التجارب والمواجهات الصعبة، تجد نفسك شيئًا فشيئًا أقل اكتراثًا بما يقال، وتنتبه لنفسك فجأة ذات يوم واذا بجلدك قد فَقَدَ حساسيته.

يختلف الأمر من شخص لآخر بحسب درجة حساسيته، البعض لا يستغرق معهم التحول مدة طويلة، والبعض الآخر لا يصلون إلى ذلك أبدًا.

لكن أغلب الناس يصلون إلى التحول في نقطة ما من تجاربهم ومواجهاتهم.

قد يكون الأمر بسبب رأي خاص مختلف تتبناه، أو بسبب مشروع بدأت به وهو مضاد لكل ما عرفوا من مشاريع، قد يكون بسبب خيار شخصي في حياتك، ربما يكون لشيء لا دَخْلَ لك به، حجم أنفك أو لون بشرتك، ربما بسبب وزنك أو طريقتك في الكلام.

ربما بلا سبب على الإطلاق غير حساسيتك نفسها.

البعض من الناس يحاول دومًا أن يجد فريسة يتسلى بها، يختارها الأضعف والأكثر حساسية لكي يقضي بها وقتًا، أو يعوِّض عبرها إحباطاته وتعرضه نفسه لأن يكون صيدًا وفريسة في وقت سابق، دورة لا تنتهي أبدًا، قد نكون نحن أحيانًا قد قمنا بهذا الشيء؛ تعويضًا لإحباط ما، أو مسايرة لمن حولنا، أو استعراضًا لعضلات سخريتنا.

أمر شائع جدًّا.

لكن شيوعه لا يقلل من صعوبته.

***

سورة الفرقان تقبض عليك في لحظاتك الصعبة تلك وتقول لك: حقًّا، من تظن نفسك يا صاح؟ لقد تعرَّضَ مَنْ هو أفضل منك بكثير إلى ما هو أسوأ من هذا بكثير، فلِمَ تعتقد أنك استثناء؟

تأخذنا السورة إلى داخل نفسه الكريمة - عليه الصلاة والسلام -، إلى مواضع تلك الطعنات التي حاول كفار مكة أن يجرحوه من خلالها، تأخذنا السورة إلى حزنه النبيل - عليه الصلاة والسلام -، ثم تقول لنا بين السطور: تماسك وتجلَّد إذن، هذا هو الرجل الذي بلغ الكمال الإنساني، ورغم ذلك فقد تعرَّض لأسوأ مما تعرضت له.

كُفَّ عن التذمر والبكاء، تخطَّ الأمر، وحاوِلْ ألَّا تكترث لما يقولون.

***

سورة الفرقان فيها شيء من الحزن النبيل الراقي الذي كان يشعر به - عليه الصلاة والسلام - في المرحلة التي نزلت فيها السورة، نحن في منتصف المرحلة المكية تقريبًا، بعد هجرة الحبشة وقبل الإسراء.

وكفار مكة لا يزالون على عنادهم، لا يزالون يتهمونه بشتى الاتهامات ويتعرضون له بالسخرية والانتقاص.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٤، ٥).

كل الصدق الذي يحمله في قلبه، كل الثقل الكبير الذي كان ينوء به منذ أن تنزَّل عليه الوحي، كان هؤلاء يقابلونه بأنه مجرد كذبة، تمثيلية، ساهم فيها هو مع آخرين من أتباعه أو ممن لم يظهروا بوضوح.

مقابل كل الجدية التي كان عليه الصلاة والسلام يتعامل بها مع الأمر، كان هؤلاء يرفعون أكتافهم ساخرين متسائلين عن أهمية ما جاء به محمد،

كل شيء مما يقوله موجود في أخبار الأولين، لم يأت بجديد، محمد يجمع ما كُتِبَ من قبل، ويساعده في ذلك مَنْ له علم بما في أخبار الآخرين.

ولأن وجود التفاصيل في أي كذبة يجعلها أكثر إقناعًا، فقد حددوا الوقت الذي تحدث فيه عملية إملاء الأساطير هذه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٧).

كانوا يعيبون عليه بشريته، يعيبون عليه أنه يتصرف كما يفعل الناس، ويأكل كما يأكلون، ويمشي في أسواقهم، أي ظلم أن تشعر أن من يرفضك يتحجج بكونك إنسانًا ليرفضك، ماذا أفعل مثلًا؟ ماذا تقترحون؟ يقترحون أن يكون معه ملاك، أو يدله ربه على كنز يغنيه عن العمل تمامًا، أو أن يجعل له جنة بحيث يأكل منها متى ما أراد، بدلًا من السعي لرزقه.

لكنهم ليسوا جادين في شيء مما يقولون، مَنْ يعلّق إيمانه على طلبات كهذه سيبقى يجد ما يطلبه، لن تنتهي طلباتهم واحتجاجاتهم. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۞ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (الفرقان ٨: ٩).

سريعًا يجدون تفسيرًا آخر: «السحر»، لقد سحركم محمد فاتبعتموه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١).

ولو أُنْزِلَ عليهم ملائكة؛ سيقولون: هذا سِحْرٌ سَحَرَ أبصارنا، ولو أنهم رأوه - جدلًا - لقالوا: أَرَبٌّ يُرَى؟

لن ينتهي الأمر، لقد استكبروا في أنفسهم، الأنا في دواخلهم تضخَّمت على نحو لا يُرْجَى شفاؤه، كل من تتضخم أناه يجد صعوبة في تقبُّل وجود مَنْ هو أفضل منه، واتباع الرسول يتضمن ذلك حتمًا، أناهم استكبرت وتضخمت لدرجة أنها وصلت لتكون إلهًا شخصيًّا لكل منهم.»

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان:٤٣).

وصل الأمر لهذا الحد، إلهه هواه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢).

ولو أن القرآن أُنْزِلَ عليه جملة واحدة لقالوا: لمَ أُنْزِلَ جملة واحدة؟ أما كان من الأفضل أن يتنزل مفرَّقًا؟ سيجادلون في أي شيء وعكسه، إلهه هواه.

لكن تحقيق طلباتهم ليس هدفًا بأي حال من الأحوال، وهذا القرآن يتنزل عليك في أطوارك المتعددة؛ ليثبتك في كل طور ويقودك إلى ما بعده.

﴿إِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان: ٤١).

يقولونها منتقصين، أهذا الذي بَعَثَ الله رسولًا؟ ألم يجد مَنْ هو أفضل منه؟! ما باله هذا بالضبط؟ ما هي المواصفات التي كنتم ستقبلون بها؟ لا شيء بالتأكيد، مهما كانت المواصفات سيتعاملون بنفس الطريقة: أهذا الذي بعث الله رسولًا؟! الأنا في دواخلهم تجعلهم غير قادرين على تقبُّل أيٍّ كان في موضع أعلى منهم.

القرآن يجعل عليه الصلاة والسلام يرى نهاية هؤلاء، النهاية الأخيرة جدًّا: الندم، العض على الأصابع من الندم، والاتهامات بينهم.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (الفرقان ٢٧: ٢٩).

ولكن القرآن أيضًا يُتْبِع هذا المشهد بمشهد الرسول وهو يبث حزنه إلى ربه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠).

شكواه لم تكن عن تلك الطعنات أو الكلمات الجارحة، بل عن عدم سماعهم للقرآن، لم تكن شكواه شخصية، رغم كل «شخصنتهم»، لكنه كان يشكو من أجل رسالته، من أجل قضيته.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٤).

هذا هو الحل الذي يجعلك تتجاوز كل ما يقال، هم حاليًّا - وبعد كل ما بذلته من جهد معهم - كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا، لا يسمعون ما تقول ولا يعقلونه؛ لذا تجاوزهم، لا تكترث أصلًا لما يقولون.

***

لا يعني هذا أن كل انتقاد يوجَّه لنا يدل على أننا على صواب، وليس صحيحًا بالمطلق أن «الأشجار المثمرة وحدها هي التي تُرْمَى بالحجارة» كما يروِّج البعض، بعض ما يوجَّه من انتقادات تكون صحيحة تمامًا،

ويكون ما نفعله هو الخطأ، ليس الانتقاد دليلًا للخطأ ولا للصواب، ولا التصفيق دليلًا على أيٍّ منهما أيضًا، هذا أمر مختلف تمامًا.

لكنك ربما كنت تعلم جيدًا في قرارة نفسك، إن كنت على صواب أو خطأ.

وتعلم أيضًا أيَّ الانتقادات كانت في جوهر الموضوع، وأيًّا منها كان لدوافع أخرى، مثل تلك التي مرت في السورة.

***

واحدة من أجمل وأرق الآيات في وصف المؤمنين جاءت في سورة الفرقان.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

تعامل الآية على أنها تصف المؤمن الهيِّن الليِّن.

لكنها ربما تصفه أيضًا بعد أن وصل لهذه المرحلة التي لا يكترث فيها لما يقال وما يُطْعَن به، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾، تصالحوا تمامًا مع حقيقة أن ليس كل مَنْ في الأرض سيؤمن، وأن إرضاء الجميع أو إقناع الجميع مهمة مستحيلة، وتصالحوا مع أن بعض البشر مصر على عدم الفهم، تصالحوا مع كل ذلك، فقالوا سلامًا.

***

في درب مواجهاتنا وصراعاتنا وحملنا لقضايانا، نكون أمام عدة مراحل في التعامل مع الطعنات.

واحدة من هذه المراحل لها جاذبية شديدة، وهي مرحلة «القنفذ»، أن تحمي جلدك بأشواك القنفذ، ليس من السهل أن يطعنك أحد، فهو قد يصاب أيضًا بأشواكك، وهذا يوفر الحماية لك ولحساسيتك، ولكنه أيضًا يجعلك «مكورًا» على نفسك على نحو مغلق وغير متفاعل مع ما حولك.

مرحلة «جلد التمساح» أفضل وأجدى وأوعى بكثير.

محظوظون هم أولئك الذين يملكون الوعي الكافي والإرادة اللازمة للوصول لها.

سورة الشعراء ٢٦

لا تَلُمْ نفسك كثيرًا

الأشخاص مرهفو الحس الصادقون، يميلون أحيانًا إلى لوم أنفسهم، عندما لا تسير الأمور معهم كما ينبغي لها أن تسير.

يفكرون: لعل الخطأ كان منهم، لعل أسلوبهم هو السبب ... لعلها النية!

يميلون بطبعهم الحساس إلى تحمُّل المسؤولية عن عدم الوصول إلى النتيجة المرجوة، حتى لو كانوا قد بذلوا كل ما يستطيعون.

لكنهم في غمرة صدقهم مع أنفسهم، لا يجدون تفسيرًا آخر، لا بد أننا مسؤولون عن هذا.

***

مر عليه الصلاة والسلام بشيء مقارب في المرحلة المكية.

كان غالبية قومه لا يزالون على موقفهم الرافض للإيمان.

وكان عدد المؤمنين قد وقف عند حد معين، كل من يريد أن يؤمن آمن بعد إسلام عمر، ووصلت الأمور بعدها إلى حالة ساكنة، لا جديد.

وكان عليه الصلاة والسلام يؤلمه ذلك جدًّا، يؤلمه أن يرى أقاربه وأقرانه وعشيرته وأهل مدينته وهم يصرون على الذهاب إلى النار.

كلمة «يؤلمه» لا تعبر بالضبط عما كان يعتمل في صدره الشريف -عليه الصلاة والسلام -.

كان الأمر أكبر وأشد بكثير.

كان الأمر يكاد «يهلكه» حرفيًّا، هكذا خاطبه القرآن، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣).

وباخع تعني مُهْلِك نفسه، أو قاتلها من الغم.

كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - في هذه المرحلة قد وصل إلى هذه الدرجة.

صدقُ الصادقين مؤذٍ جدًّا، فكيف بالصادق الأمين؟!

لكن الوحي الكريم تنزَّل على قلبه؛ ليخفف عنه.

سورة الشعراء.

فلننتبه هنا إلى أن مخاطبة الوحي للرسول - عليه الصلاة والسلام - بكونه «باخع نفسه» قد جاءت مرتين: مرة في سورة الكهف، والأخرى هنا في الشعراء.

لكن ترتيب نزول سورة الشعراء كان سابقًا لنزول سورة الكهف، حتى وإن كان الترتيب في المصحف اليوم مختلفًا، وهذا يعني أن سورة الشعراء هي تعاملت أولًا مع وضعه - عليه الصلاة والسلام - في هذا الألم من عدم إيمان قومه.

فماذا فعلت سورة الشعراء؟

أخذته أولًا إلى قصة سيدنا موسى - عليه السلام -.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ۞ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (الشعراء: ١٠: ١٤).

موسى كان معه رسول آخر؛ هو هارون، وكان مؤيدًا بالمعجزة في يده، وتحقق انتصاره بمعجزته على رؤوس الأشهاد.

لكن كل هذا لم يغير من موقف مَنْ كان مصرًّا على الكفر.

لا شيء أكثر يمكن أن يُفْعَلَ معهم، لقد فعل موسى كل شيء، ومع ذلك لم يؤمن فرعون وآله.

إذن الأمر لا يتعلق بما يفعله رسول ما وما لا يفعله، كلهم فعلوا الأقصى حتمًا، لكن قضية الإيمان أعْقَدُ بكثير.

فلا تحمِّلْ نفسك أكثر مما تحمله بالأساس.

***

ثم تنقله السورة إلى سيدنا إبراهيم - عليه السلام -.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۞ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۞ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٦٩: ٧٤).

هذه المرة المواجهة ليست مع الاستبداد الصارخ كما حدث في قصة سيدنا موسى، بل مع مؤسسة استبداد من نوع آخر، استبداد ناعم: العائلة

والأبوة، نجد حوار إبراهيم مع أبيه وقومه حوارًا هادئًا في منتهى الرقي والرقة.

لكن لم يؤمنوا أيضًا.

تعددت أساليب الرسل مع أقوامهم.

لكن الإيمان والكفر أَعْقَدُ بكثير من ذلك.

تلك الكلمات التي قالها إبراهيم تبدو كما لو كانت تربَّت على قلب محمد، وعلى قلب كل مكلوم من بعده.

كان يتحدث عن رب العالمين، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الشعراء ٧٨: ٨٢).

***

تأخذنا السورة لاحقًا إلى قصص أنبياء آخرين: نوح، هود، صالح، لوط، شعيب - عليهم السلام أجمعين -.

نمر عليهم واحدًا واحدًا، كل منهم في عصر ومكان مختلف، لكن السورة تأخذنا إليهم وتجعلنا نرى المتشابه في قصصهم، كما لو أنها تقول لنا: إنها كلها قصة واحدة تكررت عدة مرات بنسخ متعددة عبر الأزمنة والأماكن، تنبهنا إلى وجود «نمط» متكرر.

تنبهنا السورة إلى المشتركات في هذه القصص، دعوة الأنبياء كانت واحدة في الدعوة إلى الله ونبذ سواه، لكن هناك كلمات مفتاحية تكررها السورة مع كل نبي منهم.

في أربعة أنبياء من الخمسة، يستخدم القرآن «أخوهم» في وصف علاقته بقومه ويستخدم نفس الحوار.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٠٦: ١٠٩).

تكرر الأمر مع هود، صالح، لوط، نفس الحوار بالضبط، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٠٧: ١٠٩).

وتكرر مع شعيب أيضًا لكن دون كلمة «أخوهم»، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٧٧: ١٨٠)

نفس أساسات الحوار عند كل هؤلاء، ثم يتفرق عند كل منهم حسب جريمة قومه أو مشكلتهم الأساسية.

***

تحلِّق سورة الشعراء إلى حيث يمكننا أن نرى هذه القصص من أعلى كما يراها الطائر، ومن إطلالة الطائر تلك، نرى المحكَم والمشترك في تلك القصص، نفهم مسارات القصة واتجاهاتها، نرى أن ثمة نمط متكرر.

هذا النمط لا يخص وجود نبي يدعو قومه وتنتهي القصة بالعذاب للقوم الكافرين فحسب.

لكن زاوية نظر الطائر من أعلى ستنبهنا إلى ما هو أشمل من هذا التفصيل، سيبقى هناك كفر وإيمان في هذا العالم، سيُمَدُّ هذا ويُجَزَّرُ ذاك، سيتبادلان الأدوار أحيانًا، لكن سيبقيان في هذا الوجود، مهما بذل الأنبياء، مهما كانت هناك براهين، سيبقى هناك مَنْ لن يؤمن، ربما أحيانًا نكون مسؤولين عن ذلك فعلًا بتقصيرنا أو إهمالنا أو حتى أخطائنا.

لكن ذلك ليس بعد أن نفعل كل ما بوسعنا.

***

السورة أخذته عليه الصلاة والسلام من شعور الألم الشديد على عدم إيمان قومه إلى ما هو أبعد، إلى القضية الأساسية في الإيمان.

ثمة أمور أساسية في الحياة، لا تنتهي ولا تزول، قد تخفُّ، قد تُجَزَّرُ، قد يبدو أن بعض الأمور الأخرى قد غلبتها، لكنها ما تلبث أن تعود من جديد، وتختفي تلك التي جاءت محلها، كما لو أنها لم تكن.

الإيمان بالله من هذه الأمور التي ستبقى موجودة، قد نتخيَّل أن الإلحاد على وشك الانتصار ونحن نرى زيادة نسبته، لكننا نرى جزءًا صغيرًا فقط من المشهد الذي طالما تكرر، سيبقى هناك إيمان دومًا، وسيبقى هناك كفر، يُمَدُّ هذا ويُجَزَّرُ ذاك، ثم يتبادلان الأدوار، ويكون عليك أن تختار.

***

للجديد زهوته وجاذبيته، والناس تحب أن تجربه، لكنها تستهلكه أيضًا بسرعة، وتبحث عن شيء آخر.

الناس قد تحب ما هو صرعة، موضة، وقد يتخيل المشاهد أن هذه الصرعة شيء سيبقى، وستتغلب وتظهر، لكن بعد فترة، لا أحد يذكرها أبدًا.

هذه الصرعات تشبه ما كان يفعله الشعراء آنذاك، يقدمون شيئًا براقًا مبهرًا، لكنهم لا يعنون شيئًا مما يقولون، يهيمون هنا وهناك دون هدف أو بوصلة، يتكسبون من مدح هذا أو قدح ذاك، ينالون النجاح والرواج لبعض الوقت، ثم يُنْسَى أثرهم، كما لو أنهم لم يكونوا.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء ٢٢٤: ٢٢٦).

***

فرق كبير بين ألم صاحب القضية، الذي يعرف أين قضيته، وبين الذي يهيم في كل وادٍ ويقول ما لا يفعل.

مثل الفرق بين ما يبقى، ما سيبقى موجودًا وبين ما سيزول بعد أن يأخذ وقته كصرعة، ومثل الفرق بين ثكلى تبكي مَنْ حَمَلَتْهُ وهنًا على وهن، وبين نائحة مستأجَرَة تتخذ من البكاء مهنةً.

سورة النمل ٢٧

أقصر الطرق أطولها أحيانًا

كثيرًا ما نستعجل النتائج على نحو يجعلنا لا نصل لها أبدًا، نحاول الوصول بأقصر الطرق وأقلها تكلفةً، وتكون النتيجة باهظة الثمن على كل النواحي.

يكاد هذا النزق يكون طبيعة بشرية، يكاد يكون هو الأصل في السلوك البشري.

لكن البشر يتعلمون من تجاربهم، أو هذا ما يُفْتَرَض أن يحدث على الأقل؛ لذا فقد تم ترويض هذه الطبيعة البشرية وتقليل مخاطرها عند البعض.

ولا يزال كثيرون يتركون هذه الطبيعة البشرية تحتجزهم في متاهة من التجارب والأخطاء المكررة، يكررون دومًا نفس تجربة الاستعجال بحذافيرها، على أمل أن تضبط معهم هذه المرة.

ولا تضبط أبدًا.

***

سورة النمل تقول لنا شيئًا ساطعًا عن هذا كله.

تقدم لنا أولًا نبي الله موسى - عليه السلام - وهو يستلم الوحي أول مرة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۞ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۞ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ۞ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (النمل ٩: ١٢).

كان مع أهله في الصحراء، مجرد رجل فقير ومطلوب للعدالة مع أهله، يسيرون في الصحراء على هامش الهامش، لو أن قُطّاعَ الطرق هاجموهم وقتلوهم لربما لم ينتبه لفقدانهم أحد، وربما ما تغير شيء من حياة أحد.

لكن ما حدث بعدها أحدث تغييرات في العالم كله.

رأى موسى نارًا، فذهب يطلب من أصحابها خبرًا عن الطريق أو ربما قليلًا من النار يستخدمها لأهله.

عاد بخبر عن الطريق بالفعل، لكن ليس أي طريق، عاد بالوحي الذي يشقُّ الطريق الصواب للجميع.

وما حدث بعد ذلك، أصبح تاريخًا يعرفه الجميع.

***

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل ١٥: ١٦).

تنتقل بنا السورة بعدها من موسى إلى سليمان وداود -عليهما السلام-.

سليمان لديه معارف كثيرة من ضمنها منطق الطير وحتى النمل، وبسبب ذلك فمملكته مزدهرة وقوية.

﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۞ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۞ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل ٢٨: ٣٠).

سنراه وهو يخاطب ملكة سبأ ويعرض عليها الدخول في دينه.

وسنرى ما يحدث في كواليس القصر عندها ونقاشها مع حاشيتها.

ثم ما استخدمه سليمان من «العلم» لكي يبهرها بقوة وتقدم مملكته.

ثم إسلامها.

***

ما العلاقة بين المشهدين: الأول والثاني؟

يمكن أن نلاحظ مثلًا كيف تغير موقف «الملك» من نفس الدعوة إلى الله.

موسى وفرعون، سليمان وملكة سبأ.

فرعون لم يقتنع رغم كل ما قدمه موسى من براهين.

مع ملكة سبأ كان الأمر أكثر يسرًا بفارق كبير.

هل يتعلق الأمر ببصيرة ملكة سبأ مثلًا بما يبدو أنه بعد عن الانفراد بالرأي بكل ما يمثل ذلك من صفات؟

أم أنه يتعلق أيضًا بالفارق الكبير بين أن يأتي موسى كفرد مهما كان مؤيَّدًا بمعجزات، وبين أن يأتي رسول سليمان ممثلاً لدولة قوية مزدهرة ومتقدمة بمقاييس عصرها؟

يمكن أن تدلنا آيات سورة النمل نفسها على بعض الفروق والروابط. مع فرعون.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: ١٤)

﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ كانوا عالين، واستعلوا أكثر.

أما في رسالة سليمان للملكة سبأ.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣١).

الآن الطرف المؤمن صار أعلى، وهو يطلب من الطرف الآخر ألَّا يكون أعلى منه.

هل لعلو الطرف المؤمن أثر في تجاوب ملكة سبأ معه؟

بلا شك.

***

لكن العلاقة الأهم بين المشهدين برأيي تتعلق بشيء آخر.

العلاقة بين موسى تقريبًا لوحده ومطلوب للعدالة وهو يستلم الوحي، وبين سليمان وهو يوجه رسالة إلى ملكة سبأ هو عامل الوقت.

أجيال كثيرة فصلت بين بني إسرائيل في عهد موسى، وبينهم في عهد سليمان، أجيال خاضت الكثير من التجارب وحصلت على الكثير من الخبرات إلى أن وصلت إلى المرحلة العليا - في عهد سليمان.

أخذت الثمرة وقتها، الكثير من الصراع مع النفس وسنوات في التيه وتجارب دفعت فيها تضحيات كبيرة.

لكن الثمرة في النهاية أثبتت أنها تستحق.

عدا الثمرة الأُخروية التي تستحق أكثر في النهاية جدًّا.

***

ومقابل هذا النجاح الذي تطلَّبَ وقتًا كبيرًا، تأخذنا سورة النمل إلى الدمار العاجل الذي أصاب قريتَي: صالح ولوط.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل: ٤٦).

وكانت النتيجة سريعة بعد تكذيبهم.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٥٢).

وكذلك كان الأمر مع قوم لوط، تكذيب ودمار سريع.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (النمل: ٥٨).

***

بينما تعرض سورة النمل أَنْعُمَ الله على عباده، تأتي آية قد تستوقفنا.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: ٦٢).

هذه الآية هي ضمن سياق الحديث عن أَنْعُم الله؛ خلق السماوات والأرض، نزول الماء وإنبات الشجر، استقرار الأرض والأنهار إلخ.

وفجأة تأتي هذه الآية: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾.

في آية واحدة انتقلنا من وضع «المضطر» إلى «خلفاء الأرض».

لكن السياق يخبرنا أن الأمر يستغرق وقتًا طويلًا.، وأن العلاقة بين الاثنين كالعلاقة بين قطرة المطر وعلو الشجر في الآيات السابقة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (النمل ٧١: ٧٢).

***

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (النمل ٩١: ٩٢).

كأفراد، ليس أمامنا سوى أن نفعل ما ينبغي فعله، نحن جزء صغير جدًّا، بحجم نملة من مشهد كبير جدًّا لن نتمكن من رؤيته كاملًا.

علينا أن نفعل ما يجب أن نفعله، من اهتدى فلنفسه.

نعم، نحن صغار في النهاية بحجم النملة.

لكن دأب النملة هو الذي يحقق ذلك التراكم الكبير في النهاية.

دأب نملة وتحليق هدهد.

وقلب وعقل مؤمنَين.

سورة القَصَص ٢٨

قصص تنتهي، وأخرى لا تنتهي أبدًا

بعض القصص لا تنتهي أبدًا، حتى بعد أن تنتهي.

تستمر، تتناسل، تتكاثر، تجد طريقة ما لكي توجد لها صيغ جديدة مختلفة.

وبعض القصص تنتهي فقط لتبدأ قصة جديدة في داخلك، تدخل فيك القصة وتُحْدِثُ أثرًا يبقى معك، ومن هذا الأثر تبدأ قصة جديدة، قصتك لا تبقى كما هي بعد أن دخلت فيها قصة أخرى، كل شيء يتغير.

كل القصص في النهاية متشابهة بعد أن تجردها من التفاصيل والأسماء والأماكن والتواريخ.

حتى قصتك التي تعتقد أن أحدًا لم يمر بها من قبلُ.

***

سورة القَصَص تأخذنا إلى القصص، وتجمعها في قصة واحدة.

هذا بالضبط ما تفعله.

قصة سيدنا موسى كانت متفرقة على أكثر من عشر سور، رأينا أجزاءً منها في البقرة، الأعراف، طه، في النمل، وسور أخرى.

هنا نراها وقد تجمعت، على الأقل هذا «أشمل» ما سنراه من قصته عليه السلام.

سورة القَصَص تأخذنا من اليمِّ إلى اليمِّ، من إلقاء أم موسى لطفلها في اليم، إلى لحظة غرق فرعون وجنده في اليمِّ، كل ما حدث بينهما من أحداث عرفناه في سورة أخرى سابقة متفرقة، لكن هنا تجميع كل ما حدث، ما عدا جزء السحرة لا يُشَار له في السورة هنا.

ما الفرق بين أن تقرأ قصة موسى متفرقة - كما في أغلب السور - وبين أن تقرأها متسلسلة من ولادته إلى نجاته وقومه من فرعون؟

مع القصص المتفرقة، أنت تطَّلع على موقف أو جزء من القصة وتربطه السورة لك بمواقف أخرى من قصص أنبياء آخرين، سواء بالمشابهة أو الاختلاف، أي إنك تقرأ القصة من خلال منظور يتجاوز سياق القصة المباشر إلى سياقات عامة تربطها بقصص أخرى، ربما بُقَسم إبليس في الإخراج من الجنة، أو بعذاب قوم نوح، أو بتكذيب الكفار.

مع القصص وهي متفرقة، أنت ترى من منظور أعلى بكثير، الطائر يحلق أعلى ويطلُّ على منظر أكبر، ثم تؤشِّر لك السورة على نقاط هنا وهناك بحيث تربط بينها.

مع القصة وهي متسلسلة، إطلالة الطائر تأتي من ارتفاع أقل من السابق، ولكن بتركيز أكبر على مساحة واحدة، كما لو أنك كنتَ ترى في القصص المفرقة خارطة العالم أجمع، ثم صرتَ في القصة المتسلسلة ترى خارطة لبلد واحد أو قارة واحدة.

الأغلب في قصص القرآن هو الأول؛ أن تكون القصص متفرقة بحيث تراها وهي مترابطة مع قصص أخرى.

ولكن هذا لا يمنع من وجود القصص متجمعة كما في سورة يوسف؛ حيث عرضت قصة يوسف كاملة، وكما في سورة القصص، حيث عرضت قصة موسى إلى خروجه وقومه من مصر.

القصة وهي متسلسلة تروي علاقة أجزاء القصة ببعضها، التطور الطبيعي للأحداث في سياقها، وهو أمر مهم حتمًا، لكن لأنه الطبيعي والمعتاد في القصص، فالقرآن لا يقدمه كثيرًا.

لكن عندما يقدمه، فهو يقدمه لسبب.

مع سورة يوسف كان الأمر لإيصال فكرة أن النجاح ممكن في أماكن أخرى، ليس بالضرورة أن تنجح في بلدك الأم، يمكن أن تحقق أعلى نجاح في مكان مختلف، ولكن ذلك ما كان يمكن أن يصل بوضوح إلا بربط كل الأحداث وما تعرَّض له يوسف من البئر إلى القصر مرورًا بالسجن.

مع سورة القصص الأمر مختلف.

***

علينا هنا أن نذكر أن سيدنا موسى هو النبي الأكثر ذكرًا في القرآن الكريم، فقد ذُكِرَ ١٣٦ مرة، وهذا يعني أن قصته هي الأكثر حضورًا في القرآن الكريم.

لماذا؟ أسباب كثيرة، لعل أهمها هو أنه واجَهَ عدة جبهات في دعوته إلى الله، واجَهَ فرعون ومؤسسة الاستبداد، وواجه الطبيعة البشرية في قومه

وعنصريتهم ومشاكل كثيرة لا أول لها ولا آخر، وواجه أيضًا نفسه، كان يعاني من عدم سيطرته على غضبه، وهو أمر أدى إلى ارتكابه قتل خطأ قبل الوحي.

وكان موسى أيضًا زعيمًا قائدًا، خرج بقومه من مصر بعد أن كانوا يتعرَّضون للاضطهاد من قِبَل فرعون وقومه.

موسى إذن كان مدرسة كبيرة جدًّا لكل من يريد أن يتعلم، لا يوجد مواجهة لنبي لم يخُضْهَا موسى ويذهب إلى طرفها الأقصى.

وكان هذا بالتأكيد أمر يعني الكثير له عليه الصلاة والسلام.

كل هذه المواجهات كان يخوضها هو أيضًا بطريقة أو بأخرى.

***

منذ الليلة الأولى لأول وحي نزل عليه الصلاة والسلام، وهناك مَنْ ربط بينه وبين موسى عليه السلام، قال له ورقة بن نوفل وهو يشرح له ما الذي حدث له عندما جاءه الوحي:

«هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى».

كان ورقة دقيقًا في التشبيه، لن يكون عليه الصلاة والسلام مثل يونس أو لوط أو صالح، بل سيكون مثل موسى، نبي وصاحب رسالة وتشريع وقائد أيضًا.

ولعله ومنذ تلك الليلة، أخذ عليه الصلاة والسلام يقرأ قصص موسى عليه السلام - بينما هي تتنزَّل عليه - بعين المترقِّب لما سيحدث معه.

ليس في قصة موسى فقط بالتأكيد.

لكن النبي الأكثر ذكرًا في القرآن كان لا بد أن يكون له أثر فيه عليه الصلاة والسلام.

***

في قصة موسى كما جَمَعَتْ في سورة القصص جانبًا وتفصيلًا مهمًّا لم يَرِدْ في أي مكان آخر، جانبًا إنسانيًّا مهمًّا، قد لا يبدو مهمًّا في الدعوة بشكل مباشر، لكن كان له أثر كبير في تأهيله لها.

أتحدث هنا عن واقعة مساعدته للفتاتين، ومن ثَمَّ زواجه من واحدة منهما بعد أن اقترحت على أبيها أن يستأجره؛ لأنه القوي الأمين.

تلك السنوات التي قضاها سيدنا موسى في مَدْيَن وهو يعمل كأجير؛ أَهَّلَتْهُ ليتنزَّل عليه الوحي ويحمل الرسالة إلى فرعون وقومه، قبلها كان موسى ربيب القصور، قوي وأمين نعم، لكنه كان مترفًا، سريع الغضب، سنوات العمل كأجير جعلته يصبح شخصًا مسؤولًا مهيئًا لما سيأتي من مهام، لا يمكن لقائد إلا أن يمر بذلك لكي يكون قائدًا فعلًا.

وهذا الجزء - على أهميته - ما كان يمكن أن يُفْهَمَ إلا في سياق القصة كاملة، خروجه من مصر وهو خائف من العقوبة، ومن ثَمَّ ذهابه إلى مدين وعمله فيها عشر سنوات، ومن ثَمَّ نزول الوحي عليه.

قال له شعيب، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢٥).

وكان ذلك هو ما حدث فعلًا، نجا من ظلمهم، ونجا من أن تبقى شخصيته مظلومة في أسر القصور والترف.

﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هي عنوان سورة القصص، لقد نجا منهم كذا مرة، مرة في اليمِّ في البداية المبكرة، ومرة عندما خرج إلى مدين، ومرة أخيرة عندما خرج بقومه عبر اليمِّ، بينما غرق فرعون

قصة داخل قصة داخل قصة، وكلها هذه المرة قصة واحدة، تشير إلى النجاة من القوم الظالمين، نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة.

موسى ينتهي من مواجهة فرعون ويخرج بقومه، وهناك سيبدأ بمواجهتهم هم، المواجهة التي ستثبت أنها أصعب.

هل كان ثمة ما يدور في مكة في تلك المرحلة مما يمكن أن يشابه كل هذا؟ هل كانت مرحلة جديدة على وشك البدء؟

نعم، سورة القصص نزلت قبل سورة الإسراء.

والإسراء كانت بداية مرحلة جديدة.

القَصَص إذن كانت تؤذِنُ بنهاية مرحلة.

***

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: ٥٦).

نعم، قصته مع عمه تنتهي هنا أيضًا.

أبو طالب يموت دون أن يقول كلمة الإيمان، قلب محمد يتفطَّر بينما هو يطلب منه أن يقول ولو كلمة على فراش الموت، لكن كفار قريش على الطرف الآخر: أتترك دين عبد المطلب؟

ولا يقولها، يموت دون أن يقولها.

القصة تنتهي كما تنتهي كل القصص، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مهما أحببتَ، لا شيء يمكن أن يغير ذلك.

ذهب العم السند الذي وقف معه منذ طفولته.

كانت هذه نهاية مؤسفة للقصة[1].

***

لكن هذا لم يكن كل شيء.

فبعد شهر تقريبًا، تتوفَّى خديجة - رضي الله عنها -.

يفقد المرأة السند التي وقفت معه منذ البداية، نعم، إنها نهاية مرحلة بالفعل، عمه وزوجته يرحلان.

لكن الفراق كان مختلفًا هنا، سيكون ثمة لقاء مؤكد مع خديجة.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (القصص: ٨٥).

لقاء في الجنة بلا شك ولا ريب.

---

(١) للمزيد: السيرة مستمرة للمؤلف

وتنتهي السورة بمواساة لمن فقد سندين في شهر واحد، تخفف وطأة قانون الحياة القاسي.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨)

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

كل القصص تنتهي، الكل يرحلون، ولا يبقى إلا هو عز وجل.

***

قال عليه الصلاة والسلام:

«أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عش ما شئتَ فإنك ميت، وأَحْبِبْ مَنْ شئتَ، فإنك مفارقه[1]».

هل جاءه تلك الليلة يوم توفت خديجة - رضي الله عنها-؟

ودرس الحياة هذا، (أحبب من شئت فإنك مفارقه)، هل جاءه ليلة الفراق الصعبة تلك.

ربما.

هل كل القصص تنتهي؟

ربما بعضها لا ينتهي أبدًا.

بعض القصص تعيش فينا، حتى بعد أن يرحل كل أبطالها.

(١) أبو داود ١٨٦٢.

سورة العنكبوت ٢٩

هجرة..

حياتنا في النهاية سلسلة امتحانات متتالية.

في كل مفترق طرق، هناك خيار، هناك اختبار، هناك امتحان.

لكن كما في الحياة الدراسية هناك امتحانات حاسمة مصيرية، تغير المسار ويعتمد عليها ما بعده، هناك أيضًا امتحانات كهذه في حياتنا الواقعية، امتحانات تحدد مصيرنا، ربما حتى مصيرنا الأخروي.

امتحانات كبيرة كهذه تتعلق عادةً بقدرتنا على الثبات على مبادئنا، أن نكون على قدر ما مؤمن به، أن نثبت أهليتنا لما نعتنقه من أفكار.

عندما تكون الأمور يسيرة لطيفة، لن تكون هناك مشكلة في أن تعتنق أفكارك ومبادئك وأن تتحدث عن ذلك، بل وأن تحكم على الناس بها.

لكن الامتحان هو أن تتمسَّك بها عندما تأتي ساعة الجد والاختبار، أن تبقى عليها بينما الإعصار يضربك من الداخل ومن الخارج ومن كل الجهات.

امتحان كهذا لا يحدث في كل خطوة، لا يحدث دومًا، لكن عندما يحدث، فقد تكون نتائجه دائمة.

***

﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت ١: ٣).

سورة العنكبوت تتحدث عن هذا النوع من الامتحانات، الامتحانات الكبرى، الأهم حتى من امتحانات الثانوية العامة.

تتحدث عن الامتحان، الفتنة.

***

ما الذي يمكن أن يكون هذا الامتحان الذي تعرَّض له الذين آمنوا في تلك الفترة؟

الامتحانات كثيرة ومتداخلة ومتعددة، لكن لا بد أن يكون هناك امتحان كبير، جديد من نوعه، تعرَّض له المؤمنون، بحيث كان فتنة.

ما الذي يمكن أن يكون، وقد تعرضوا فعلًا للكثير من الامتحانات والفتن منذ أن آمنوا، بل إن خيار الإيمان وإظهاره كان أيضًا فتنة؟

ما هي هذه الفتنة الجديدة؟

سنعرف بمجرد أن نعلم متى نزلت هذه السورة.

***

سورة العنكبوت من أواخر ما نزل في مكة، قبل هجرته عليه الصلاة والسلام.

في الحقيقة وفي تسلسل الترتيب الأكثر انتشارًا، السورة كانت قبل الأخيرة بالنسبة للفترة المكية، وبعض الأقوال تجعل آياتها نزلت بين مكة والمدينة.

ونحن نعرف طبعًا أن المسلمين كانوا قد سبقوا الرسول -عليه الصلاة والسلام - في الهجرة إلى المدينة.

أي إن سورة العنكبوت نزلت في الوقت الذي كان فيه بعض المسلمين يهاجرون، سرًّا أو جهرًا إلى المدينة.

الامتحان الكبير هو هذا، هو قرار مغادرة مكة، الأمر ليس سهلًا على الجميع، مهما كان الأذى الذي تعرَّضوا له، لكن في النهاية كانوا قد صمدوا لسنوات طويلة، ما الذي يمكن أن يحدث أسوأ؟!

لقد مروا بالكثير فعلًا، ولكنهم بعد ١٣ سنة بالنسبة للبعض منهم، كانوا قد تعايشوا مع الواقع الصعب.

لكن هذا القرار الجديد؛ أن يتركوا مكة، الأهل والأقارب ممن بقوا مشركين ولكن أيضًا لا يزالون أقرباء، العشيرة، العمل والمال، البيوت.

وأن يذهبوا إلى وضع جديد لا يزال مجهولًا، ومن المؤكد أن العودة عنه لن تكون سهلة.

لم يكن القرار سهلًا.

كثيرًا ما تتعبنا أوطاننا، في الحقيقة كثيرًا ما تفعل بنا أكثر بكثير من مجرد التعب، لكن قرار مغادرتها ليس سهلًا بالمرة، على الأقل بالنسبة لكثيرين، قد يستغرق منهم سنوات من التفكير والأرق والقلق، وقد لا يصلون له أبدًا، وقد يكون أسهل لآخرين، لكنه في العموم قرار مصيري؛ فتنة.

هكذا هو الأمر اليوم، وقد كان كذلك وأكثر وقتها، الهجرة اليوم مألوفة، والناس يتبادلون التهاني عندما يحصلون عليها، لكنها لم تكن كذلك آنذاك، وهذا التنقل لم يكن مقبولاً بالنسبة للعربي الحضري، مَنْ يولد في مدينة يموت فيها غالبًا.

لكن.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢).

***

لو قرأنا السورة من هذا المنظور؛ لوجدنا لكل شيء معنًى مختلفًا.

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٦).

الجهاد، السورة مكية قبل أي معركة، لكن المشكلة هي في فكرتنا التي تقصر الجهاد على الحرب والقتال، وتنسى أنه بذل للجهد وأن بعض المواجهات الشخصية الاجتماعية تكون أكثر ضراوةً من أي مواجهة عسكرية.

هذا القرار جهاد أيضًا.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٨).

نعم، مفهوم جدًّا الآن، كان هناك من الآباء والأمهات مَنْ يحاول أن يستخدم العاطفة كوسيلة لابتزاز أولادهم على البقاء وعدم الهجرة.

فلننتبه أيضًا إلى ﴿جَاهَدَاكَ﴾، هذا جهاد أيضًا، ولكن من الطرف المقابل، يبذل فيه جهده وعواطفه من أجل هدف معين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (العنكبوت: ١٢).

ابقوا معنا ونحمل عنكم ذلك، يا للإغراء! فليبق الوضع الساكن كما هو بأي ثمن.

ثم تَعْرِضُ السورة لقصص أنبياء في لحظات خروجهم من مدنهم، كل قصة من هذه القصص عُرِضَتْ سابقًا في سور مختلفة، لكننا الآن نراها على نحو مختلف، هذه المرة نراهم وهم يهاجرون، كما يجب أن يفعل مَنْ تنزَّلت السورة بينهم.

نرى نوحًا وهو يركب السفينة.

وإبراهيم وهو ينجو من النار ويخرج من قريته.

بل إننا سنرى لوطًا وهو يعلنها، ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(العنكبوت: ٢٦).

لم يُسْتَخْدَم لفظ «مهاجر» في وصف أي نبي في القرآن، هذه هي المرة الوحيدة، وقد جاءت في سورة العنكبوت، السورة التي أُنْزِلَت بينما المسلمون يعدُّون العُدَّة للهجرة من مكة بالتدريج.

صدفة؟! حاشا لله.

***

حتى المثل الذي أخذت السورة اسمها منه، نقرأه الآن على نحو مختلف.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

هذه البيوت التي تتمسكون بها، المجتمعات التي لا تريدون الهجرة عنها، مهما كنتم تحبونها ومتعلقين بها، مهما بَدَتْ جميلة مزخرفة أو مريحة.

في حقيقتها ليست أقوى من بيوت عنكبوت قد تنهار في أي وقت.

لو أن بعضنا نظر بصدق وتجرُّد إلى الكثير من مجتمعاتنا، أوطاننا لقلنا دون مواربة.

نعم، نعيش في مجتمعات عناكب.

***

وفي نفس السورة جاءت أيضًا هذه الآية.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (العنكبوت ٥٦).

إنها تأشيرة هجرة من نوع مختلف عن الذي نعرفه.

***

وتنتهي السورة مرة أخرى بالجهاد.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

الجهاد مرة أخرى، في سورة مكية، في خضمِّ الصراع الداخلي لقرار الهجرة.

لأنه أكبر بكثير من أن يُخْتَزَلَ بمعركة سيوف أو قنابل.

سبلنا؟

لعلها تلك الطرق التي ستتيسر لاحقًا بعد تنفيذ القرار.

سورة الروم ٣٩

أثر الفراشة

بعض الأحداث التي تبدو بعيدة نسبيًّا عنا في البداية، تؤثر لاحقًا على حياتنا الخاصة وحياة الملايين من الناس حولنا.

حرب بين بلدين وأنت تعيش في بلد ثالث ربما لا يكون حتى مجاورًا لأي من البلدين، لكن النتائج تطالك بالتدريج، وتغير من حياتك إلى درجة لم تتخيل حدوثها يوم سمعت بخبر نشوب الحرب أول مرة.

التأثيرات المتداخلة في العالم مثل الكرات على طاولة البلياردو، تطال الطاولة كلها حتى لو كان اتجاه الكرة الأولى محددًا في حيز معين.

وما يبدو في البداية خبرًا رئيسيًّا يخص السياسة العامة في مكان بعيد، قد ينتهي ليُحْدِثَ تغييرات شخصية في بيتك ومع أفراد أسرتك.

هل يمكنك أن تُحْدِثَ تغييرًا كفرد في كل هذا؟!

ربما، لا يمكن فعل الكثير.

لكن وعيك فيما يدور سيُحْدِثُ فرقًا حتمًا في تعاملك مع ما يدور.

***

﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (الروم ١: ٤).

سورة الروم تنقل لنا هذا الوعي.

حرب بين أقوى إمبراطوريتين في العالم آنذاك: إمبراطوريتي الروم والفُرْس، كانت تجري آنذاك في الأناضول أو مناطق قرب الساحل الشرقي للبحر المتوسط[1]. لماذا يكون الأمر مهمًّا جدًّا في مكة في وسط جزيرة العرب؟ لماذا يفرح المؤمنون أو يحزنون أو أي شيء؟ الأمر بعيد تمامًا.

لو أن هذا حدث في عصرنا الحالي؛ لرأينا من يقول: اللهم أَهْلِك الظالمين بالظالمين، وأَخْرِجْنَا من بينهم سالمين، بالنسبة لوعي الكثيرين منا اليوم، الروم والفرس في سلة واحدة، ولن يختلف من ينتصر على من في الصراع الدائر.

لكن بالنسبة للقرآن، لا سواء.

ربما ليس فقط لأن الروم كانوا أقرب – كأهل كتاب – إلى المسلمين من الفُرْس.

ولا لأن تأثيرات النفوذ الفارسي في الجزيرة كانت أخطر وأعقد على المسلمين من الروم عبر دولة المناذرة في شمال شرق الجزيرة، وتأثيراتهم في شرق الجزيرة وجنوبها.

---

(١) للمزيد: السيرة مستمرة للمؤلف.

ولكن ربما أيضًا لأن هذه الحرب المتواصلة بين أقوى إمبراطوريتين في العالم وتداوُل النصر والخسارة بينهما كان يؤدي إلى إنهاك واستنزاف القوتين معًا، وربما يمهِّد لظهور قوة ثالثة جديدة.

نحن الآن في أواخر المرحلة المكية، سورة الروم كانت من أواخر ما نزل في مكة، تفصلها عن الرحلة إلى المدينة سورتان فقط.

وعمليًّا كانت هجرة المسلمين التدريجية قد بدأت غالبًا في تلك الفترة.

الحرب في الشمال بين أقوى دولتين في العالم القديم.

لكن في الجنوب، كانت هناك نقطة جديدة بدأت في التكوُّن، وعلى نحوٍ لم يكن ربما قد لَفَتَ أيًّا من القوتين آنذاك.

﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٦).

***

وسورة الروم تذكِّر بدورة حياة الدول والمجتمعات، وتشبِّهها بدورة حياة الإنسان.

نمو، قوة، ضعف، انهيار.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۞ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الروم ٩: ١١).

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم ١٩: ٢٠).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الروم: ٤٠).

من المؤكد أن ما يشابه هذه الآيات قد وردت في سور أخرى، لكن السياق هنا - المرتبط بصراع الروم وفارس - يجعل لهذه الآيات معانٍ مختلفة تتعلق بدورة حياة الدول والسنن التي تتحكم بها كما تتحكم بدورة حياة الإنسان.

فلننتبه هنا أيضًا إلى أن لفظ ﴿عَمَرُوهَا﴾ عن الأرض لم يرد في أي مكان آخر في القرآن غير هنا في سورة الروم، ورد لفظ ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ في سورة هود ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ولكن نسبة فعل الإعمار للإنسان لم يرد إلا في سورة الروم.

وقد ورد في صيغة التنافس: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩).

ليس صدفة، حاشا لله، بل تذكير بمعايير المنافسة والقوة بين الدول، ليست الحرب والقوة العسكرية فقط، بل أيضًا الإعمار.

***

وليس صدفة أيضًا أن تأتي الإشارة إلى اختلاف الأعراق والثقافات في هذه السورة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

هذا الوعي الجديد ينفتح على الاختلاف الثقافات والأعراق باعتباره آية من آيات الله في خلقه وليس أمرًا يجب العمل على إلغائه.

***

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

هل كان الظلم؟ الاستعباد؟ البذخ والإسراف مقابل الفقر والجوع؟

هل هو هذه الرؤية المادية التي لا ترى إلا جانبًا واحدًا من الحياة؟

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧).

ربما هذا كله وأكثر.

لكن ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، يرجعون إلى ماذا؟!

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

سورة لقمان ٣١

بيان وراثة

كل سور القرآن التي حملت أسماءً لأشخاص في عناوينها كانت لأنبياء ورسل: نوح، هود، يونس، يوسف، إبراهيم، عليهم السلام أجمعين.

وهناك استثناءان اثنان:

الأول هو استثناء معروف لاسم السيدة التي مثَّلت كل تضحيات ومعاناة النساء عبر العصور؛ مريم.

والثاني هو لقمان.

وجود اسم مريم مفهوم تمامًا لكل السياقات الإعجازية التي عاشتها وقربها من النبوة.

لكن لقمان شيء آخر، شيء مختلف تمامًا، يجبرنا على التوقف طويلًا.

إذ ليس من السهل أبدًا أن تكون في هذه المقارنة، أن يوضع اسمك في موضع لم يكن إلا للأنبياء.

***

لم يكن لقمان فاتحًا عظيمًا أو قائدًا عادلًا مصلحًا.

لم يحصل على مكانته التي حصل عليها لأنه عابد أو زاهد، أو بسبب فعل الخير.

ربما كان كل هذه الأشياء بالمناسبة، لكننا لا نعرف ذلك؛ لأن القرآن لم يذكرها عنه، بل ذكر شيئًا مختلفًا.

ماذا كان لقمان؟ ما الذي نقله القرآن الكريم عنه؟

كان مربِّيًا.

أو على الأقل هذا ما أظهره القرآن منه، هذا هو الجزء الذي جعله يستحق مكانته.

***

مُرَبٍّ؟

هذا فقط؟

نعم، كان مربيًا، قد تنظر إلى الأمر على أنه مجرد عمل تكميلي أو تحصيل حاصل.

لكن هذا العمل كان مهمًّا لدرجة جعلت من لقمان في مكانته تلك.

قد ينظر البعض أيضًا إلى هذا العمل على أنه مجرد تنظير، وهي الكلمة التي صارت تعامَل كما لو كانت سبة أو منقصة حاليًّا، رغم أنها عالية المقام في حقيقتها؛ لأنها تعبر عن أرقى ما يمكن أن للإنسان أن يمارسه: التفكير.

بكل الأحوال، سواء كانت التربية تنظيرًا أو تفكيرًا، فقد كانت أساسية لدرجة جعلت من لقمان في الموضع الذي هو فيه.

***

لكنه لم يكن أي مربٍّ بالتأكيد.

كان حكيمًا.

***

و«الحكمة» أمر ظاهر في هذه السورة.

﴿الم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (لقمان: ١، ٢).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (لقمان: ٩).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان: ١٢).

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧).

الحكمة إذن مرة وصف للكتاب، ومرتان وصف لله عز وجل.

ومرة وصف لما آتى الله لقمان.

وهذا حضور مكثف للحكمة في سورة عدد آياتها ٣٤ فقط.

الحكمة إذن مصدرها الله، صفة منه، وهي صفة لكتابه، وهو يمنحها لمن شاء.

***

الإحسان أيضًا له حضور مكثف في سورة لقمان.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان: ٣).

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ٢٢).

***

الآية الأخيرة في السورة ربما تشير أيضًا إلى أمر يرتبط بالحكمة.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:٣٤).

فالله وصف نفسه وكتابه بالحكمة، ثم انتهت السورة بوصفه بالعلم والخبرة.

وهل الحكمة - عندما تؤتى للبشر - ليست إلا هذا الناتج من العلم والخبرة والإحسان؟

وهل يمكن أن يكون هناك حكمة بعلم فقط، أو بخبرة فقط، أو بإحسان فقط.

بل هو المزيج من هذه الصفات الثلاثة الذي يؤتى ثماره في الحكمة؟

علم دون خبرة محض معرفة بلا جذور تطبيق عملي.

العلم مع الخبرة: قدرة وتمكُّن.

لكن بدون بوصلة لاستخدام هذه القدرة وتوجيهها في الاتجاه الصواب.

إنما الإحسان هو هذا العنصر الثالث الذي يجعل من المزيج ينتج الحكمة.

***

أمر آخر يجب أن ننتبه له هنا هو حضور الأبوة، أو العلاقة بين الأبناء ووالديهم في سورة لقمان.

هناك وصية لقمان بالوالدين، وهناك أيضًا الإشارة إلى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان: ٣٣) وأيضًا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، هذا بالإضافة إلى أن حوار لقمان كان مع ابنه.

هل يشير هذا إلى أن عمق الحكمة وجوهرها هو هذا التواصل الذي يمرر عصارتها وخلاصتها إلى الجيل التالي؟ وهذا هو الاستمرار الحقيقي، مهما أنجزت وحققتَ من مآثر، فإن عدم محافظتك على الجيل التالي يعني ضياع كل ما حققته.

والسورة تشير أيضًا إلى أن ليس كل الآباء ينبغي اتباعهم بالضرورة ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان: ٢١).

لكن ليس كل الآباء ينبغي تجاهل ما يقولون أيضًا.

***

أهم ما يمكن أن تمنحه لأولادك ليس ما ستورثه لهم ولا اسمك ولا المكانة الاجتماعية.

بل هو أشياء تقولها لهم، وتبقى فيهم ما عاشوا، يلجؤون إليها في شدائدهم وامتحاناتهم ومفترقات الطرق في حياتهم، أو حتى في حياتهم اليومية.

ربما تكون نصائح صغيرة عن كلمة مهذبة لطيفة يقولونها فيمنحون الود لمن حولهم.

أو قد تكون كلمة ضمن موقف صلب، يتقوون به ويقوون من حولهم.

هذا أهم ما يمكن أن يرثوه منه.

***

بينما نقرأ وصايا لقمان وحكمته تستوقفنا هذه الآية:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧).

هذه الأبحر السبعة التي يمكن أن تنفد لو أصبحت مدادًا لكلمات الله، هل تشمل كلمات الحكمة التي تعكس قدرة الله وتقرِّبُ له عز وجل؟

هذه الكلمات التي على ألسنة البشر ولكنها تقرِّب كلمة الله لهم، هل هي ضمن هذا المداد؟

ربما.

***

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (لقمان: ٦).

عادةً يتبادر إلى أذهاننا أن لهو الحديث هو الحديث التافه العادي.

لكن لو دققنا في الآية؛ لوجدناها تحدد ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ونحن نعرف أن الآيات القرآنية تُستَخدم أحيانًا لهذا، ليس الحديث التافه وحده، بل أحيانًا حديث مليء بالآيات وبالأحاديث، ولكنها توظَّف بعيدًا عن مسارها تمامًا - بقصد أو بغير قصد - فتضل عن سبيل الله ومقاصده.

كم من سنن في الهيئة أو اللباس استُخدِمَت للتغطية والإلهاء عن سبيل الله، عن مقاصده.

المحك دومًا في ذلك الناتج الذي ينبثق من تفاعل العلم والخبرة والإحسان.

بعبارة أخرى: في الحكمة.

سورة السجدة ٣٢

رعشة القلب الأولى

يحدث كثيرًا أن تغطي الألفة والرتابة على مشاعرنا حتى تفقد حرارتها الأولى، ويَضْحَى الأمر مجرد رتيب تعوُّد لا أثر للهيب أو شغف فيه.

يحدث هذا كثيرًا في العلاقات الإنسانية، وأيضًا في علاقاتنا مع الأماكن والأشياء، وربما حتى مع المهنة التي شغفنا بها يومًا، أو الهواية التي كانت تشغل وقتنا في مرحلة ما.

يدخل الملل، الرتابة، والتثاؤب.

يحدث هذا كثيرًا.

ويحدث أحيانًا – وأحيانًا كثيرة جدًّا – في علاقتنا مع الإيمان بالله عز وجل، تعالى سبحانه عن كل تشبيه.

***

القارئ الذي كان يبكينا قبل سنوات، صرنا نمر على صوته مرور الكرام.

الداعية الذي كانت كلماته تهزنا قبل عقد من الزمان، صار لا يحرك فينا أي شيء، الآيات التي كانت تجعل أنفاسنا تضطرب، لم تعد كذلك.

يحدث هذا كثيرًا، وكثيرًا جدًّا.

وقد نجد الكثير من الأسباب التي تفسر هذا، أسباب تمزج بين السياسة وعلم الاجتماع، فشل تيار الإسلام السياسي وكوارثه، الفظاعات التي ارتُكِبَتْ باسم الدين، التصرفات الشخصية لهذا الرمز أو ذاك.

وكل هذا صحيح ومؤثر ولا بد.

ولكن هذا الفتور كان سيحدث حتى لو لم يتغير العالم من حولنا، وحتى لو يتورط فلان أو فلان فيما تورطا به، الفتور هو جزء من طبيعة الأشياء.

من الطبيعي جدًّا أن يحدث، على الأقل مع أغلب الناس.

أن يتحول الإيمان بالتدريج ومع مرور الوقت إلى مجرد تصديق.

***

سورة السجدة تسلط الضوء على جزء من الفرق بين الإيمان وبين التصديق.

تجعلنا نراجع ما نعتقد أنه إيماننا.

تضعنا أمام مشهد لهذا الإيمان الحقيقي، ثم تضعنا أمام إيماننا نحن.

هل هذا يشبه ذاك؟

***

لكي تصل بنا السورة إلى هذا المشهد، تمر بنا أولًا بالجهة المعاكسة.

تأخذنا إلى المكذبين، بينما هم يكذبون بأهم وأدق شيئين في الإيمان: الكتاب.

والقيامة.

هذان هما الشيئان اللَّذَان يقف عندهما الكثير من الرافضين للإيمان، ويتخذونهما سببًا في الابتعاد عنه إلى الجهة المعاكسة.

الكتاب أو الوحي، ويوم القيامة، البعث.

أغلب غير المؤمنين يمكن لهم أن يقرو، بوجود الله، وبقدرته على خلق كل ما في الكون.

لكنهم يقفون عند هذا دون خطوة إضافية.

أن يتحدث هذا الإله العظيم الخالق مع أحد البشر بوسيلة ما، أو أن يعيد إحياء كل من مات على الأرض، هذا يبدو بالنسبة لهم غير ممكن.

الخلق موجود ومشاهَد؛ لذا فالإيمان بوجود خالق ما أمر غير صعب.

لكن الوحي والحساب؟ هاتان هما القضيتان اللتان يقف عندهما البعض، ويفلون راجعين.

﴿الم ۞ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (السجدة: ١-٣).

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (السجدة: ١٠)

ما العمل؟

لا شيء مباشر، هؤلاء سيُعْرَفُون لاحقًا.

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۞ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة ١١: ١٢).

لكن لماذا؟ لماذا لاحقًا؟

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣).

هذا هو الامتحان، يمكن بسهولة أن يجعل الله الكل مؤمنين، لكن أين الاختبار في الأمر لو كان هكذا؟

مَنْ هو المؤمن حقًّا في كل هذا؟ هل هو الذي صدَّق بالوحي وبيوم القيامة؟

لا، بل هو في مرحلة ما بعد التصديق، الإيمان.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(السجدة ١٥: ١٦).

هذا هو مشهد الإيمان الأعلى، أو على الأقل هذا المشهد يعبر عن جزء كبير من هذا الإيمان.

أن يخرَّ المرء ساجدًا، أي أن يخضع دون وعي مسبق منه أو إرادة، إيمانه يتصرف عنه دون أن يستكبر، دون أن تمنعه عن ذلك أي «أنا» متسلطة ترى في خضوعه أو في خضوع عقله إهانة لها.

﴿تَتَجَافَى﴾.

هذا اللفظ الذي عبَّرَ به القرآن عن علاقة هؤلاء مع أَسِرَّتهم هو لفظ يمتلك سحرًا خاصًّا، لم يَرِدْ سوى مرة واحدة في القرآن في هذا الموضع، وهو يعبر عن علاقة تباعد بين الشخص وسريره، لكنه تباعد متقطع، يترك الشخص سريره - على حاجته الطبيعية له - لشوقه إلى موعد آخر، يدعو فيه ربه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

هذا المشهد يعبر عن «الذين آمنوا».

فهل هو يعبر عنا؟

***

كيف السبيل للوصول إلى هذا؟ الخروج من التصديق إلى الإيمان؟

عموم السورة مغمورة باليقين.

واليقين هو مرحلة عليا من الإيمان، درجة من درجاته.

لكن عندما تضع «اليقين» هدفًا لك، فإنك قد تصل إلى ما دونه، إلى الإيمان.

كيف السورة مغمورة بهذا؟

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ «لَا رَيْبَ» فِيهِ﴾.

﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا «مُوقِنُونَ»﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ «فِي مِرْيَةٍ» مِنْ لِقَائِهِ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا «يُوقِنُونَ»﴾.

كلها إشارات إلى يقين لا لَبْسَ فيه، وجوده هو المنجى، وغيابه إشارة هلاك.

وهو محرك إيمان المؤمن، الذي «يتجافى جنبه عن مضجعه».

***

كيف السبيل إلى هذا اليقين؟

ليس سهلًا ولا وصفة تسهل الوصول له.

لكن أي صاحب يقين عليه أن يحدد أمرين لكي تكون هدفًا ليقينه: الوحي والبعث.

هذان الأمران يجب أن يكونا حاضرين في ذهنه، مستحضرًا مشاهدهما في ذاكرته المستمدة من القرآن.

لو تحقق جزء من اليقين فيهما تحديدًا، فالباقي تفاصيل.

***

تشير لنا السورة أيضًا بطريقة في ذلك قد تجعلنا نرجع إلى الله.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١).

استثمِرْ مشاكلك الدنيوية استثمارًا أمثل في جعلك تتقرب إلى الله، وربما يقودك هذا إلى ما بعد وما بعد، مصلحة؟ بالتأكيد مصلحة، لا تنس أنك عبد، اخلع أناك كما خلع موسى نعليه، نعم، أناك مثل نعليه.

نعم، هي مصلحة، وهو يقولها لك صراحةً، لعلك ترجع.

***

ثمة حوار أخير ينهي السورة يعبر أيضًا عن اليقين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۞ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ (السجدة:٣٠).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾.

بالضبط كما ننتظر أذان المغرب في نهاية يوم رمضان ونحن نعرف أنه سيأتي.

كذلك انتظِرْ يوم الفتح، يوم البعث، يوم يتأكدون من أنهم كانوا في الجهة الخطأ.

سورة الأحزاب ٣٣

كورس تعليم حفر الخنادق

البيوت لا تحتاج فقط إلى قواعد وسقوف وجدران.

بل هي تحتاج أيضًا إلى خندق حولها.

قد يبدو ذلك أمرًا مترفًا في البداية، ولا يُدْرَج في خريطة البناء.

لكن كل من مَرَّ بتجربة بناء أُسْرَة يعرف تمامًا عما أتحدث، يعرف كم هو مهم وأساسي أن يكون هناك خندق ما.

ليس الأسرة أو البيت وحده يحتاج إلى خندق.

بل كل منا يحتاج إلى هذا الخندق، إلى خندق ما بمعزل عن وجوده ضمن أسرة أو لا.

نحتاج إلى هذا الخندق، بل إلى عدة خنادق.

بعضها تحمينا من الخارج.

والبعض الآخر تحمينا من الداخل.

من أنفسنا، من التمادي.

كلنا نعرف هذا بطريقة ما، لكن ربما دون أن نفعل شيئًا تجاهه.

سورة الأحزاب التي نزلت أثناء معركة الخندق تضع معولًا في يد كل منا، وتقول: احفر خندقك بنفسك.

***

درس الحياة الأول في حفر الخنادق.

كلنا يحتاج إلى هذا الخندق.

حتى الرسول - عليه الصلاة والسلام - نفسه.

حتى هو.

الخندق الأول الذي يحتاجه الجميع:

«التقوى».

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب: ١)

اليوم يمكن لعبارة «اتق الله» أن تثير غضب من تقال له، كما لو كانت انتقاصًا منه ومن تقواه، أو كما لو كان هو فوق مستوى التذكير بالتقوى.

لكن ها هي السورة تفتتح بهذا الأمر، وبهذه الصيغة المباشرة للنبي - عليه الصلاة والسلام -، لا أحد فوق هذا الأمر، لا أحد فوق أن يحتاج هذه النصيحة، هذا الخندق.

هذا هو الخندق الأول: التقوى.

وبالفعل، ما الذي يمكن أن يعبر عن التقوى أكثر من الخندق الذي يقيك من المخاطر؟

هذا خندق لا مفر من حفره، إن لم تفعل، فأنت تحفر ما سيقودك إلى الهاوية.

***

﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب: ٤).

يحميك هذا الخندق من أن يدخلك قلب آخر يشوِّش على قلبك، من أن يتسلل قلب إلى قلبك، فيجعل لك قلبين، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه؛ لأن هذا ببساطة سيخرب عمل القلب الأصل.

يحميك الخندق أيضًا من تداخل الحقيقة مع الوهم، علاقات القرابة والدم لن تتغير فقط بكلمة تقولها لهذا السبب أو ذاك، زوجتك لن تصبح كأمك فقط لأنك تريد عقوبتها دون أن تطلقها، وهذا الغريب لم يصبح ابنك فقط؛ لأنك تريد زيادة عدد الذكور في قبيلتك كي تزيد قوتها.

معايير القوة والارتباط ستتغير من الآن فصاعدًا، ويجب أن توضح دومًا بحفر هذا الخندق الذي يميزها عما سواها.

***

سابقًا، كانت السلطة الأبوية هي السلطة الأعلى التي يمكن تخيلها في المجتمع القبلي، السلطة الأبوية التي لا تُمَثَّل في الأب فقط، بل في الجد وفي زعيم القبيلة.

لكن اليوم الأمر مختلف.

هناك نوع مختلف من السلطة قادم الآن، سلطة مصدرها الإيمان، وقوامها الإيمان، وقوتها التنفيذية بالإيمان.

إنها السلطة التي تهتم بك أكثر من اهتمامك بنفسك؛ لأنها ببساطة تعرفك أكثر مما تعرف نفسك.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: ٦).

كيف تكون أزواج النبي أمهات المؤمنين دون أن يكون هو عليه الصلاة والسلام أبًا للمؤمنين؟

أليس هذا هو المعتاد؟ إن كانت فلانة أمك، فزوجها أبوك.

نعم، لكن هذا ليس ضمن المعتاد، هنا نخرج من السلطة الأبوية التقليدية إلى شيء جديد مختلف، تتمثل السلطة الجديدة في شكل من أشكالها بهذه الأمومة، الأمومة احتواء وعطف وحنان واحتضان، وأنت من خلال علاقة الأمومة هذه بزوجات النبي، تنتمي لبيت النبوة، تكون ربيبًا فيه دون أن تختلط علاقتك فيه عليه الصلاة والسلام لتصبح علاقة أبوة بدلًا من علاقة رسول بمتبعيه.

أمهاتنا هُنَّ اللائي قمن بتربيتنا.

وهنَّ كذلك فعلًا عبر القرون، ودور أمهات المؤمنين هو هذا.

كل واحدة منهنَّ: السيدة خديجة، السيدة عائشة، السيدة حفصة، لكل منهنَّ دور في غرس شيء ما فينا.

أو هذا ما يجب أن يحدث على الأقل.

***

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب ١٠: ١١).

ثم تأخذنا السورة إلى عمق المواجهة التي تطلَّبَتْ حفر الخندق، إلى غزوة الأحزاب.

لقد جاءوا من كل مكان، من الداخل والخارج، زاغت الأبصار؛ إذ لم يعد هناك مكان واحد يمكن التركيز عليه، القلوب عند الحناجر، تكاد تخرج من هول ما تشعر به، يكاد يخرج ما بها من إيمان في خضمِّ محاولتنا الإمساك بالقلب، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.

الحصار من الخارج، والزلزال من الداخل.

كثيرًا ما حدث ذلك، كثيرًا ما انتظرنا أن تأتي العاصفة لتحمينا، لكن لم يحدث، لم تأتِ العاصفة، أو ربما أتت لكن لم نحسن استثمارها، بل إننا انتظرنا العاصفة المنقذة ونحن لم نحفر الخندق أصلًا.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب ١٢: ١٣).

في كل مرة لم تأت العاصفة، أو لم يأت النصر، أو جاءت الهزيمة، كان يخرج البعض منا، أحيانًا يخرج جزء منا ليقول: أين وعد الله؟

والله لم يعدنا أصلًا بهذا المعنى الذي نحاول أن نتشبث به، بل قدَّم لنا مجموعة أسباب تقود إلى نتائج، لم ننجز الأسباب، ولكن انتظرنا النتائج، ولمَّا لم تحدث، قلنا: أين وعد الله؟ وذهب البعض بعيدًا في ذلك إلى حد ترك الإيمان كله، بناءً على مجموعة افتراضات خاطئة.

﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب:١٣)

الكثيرون منا تركوا بيوتهم عورة فعلًا، بلا خنادق، تركوها عُرْضَةً لكل ما يأتي من سموم، البعض منا كان فخورًا بذلك أصلًا، وطفق يقدم الأسباب الموجبة لذلك.

وكانت النتيجة واحدة: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

***

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب: ١٨).

﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ بكسر الواو، الذين يعيقون الناس، ربما أحيانًا تحدث الإعاقة بنشر اليأس، وأحيانًا بنشر أمل خيالي بسقف توقعات مرتفع، يقود إلى اليأس بعد أن يثبت فشله، ليست الإعاقة فقط في دعوات التحبيط والتثبيط، بل أيضًا في استخدام الأمل كمخدر، في الترويج أن النصر «صبر ساعة» بمعزل عن صبر سنوات من العمل، في النظر إلى

السماء باعتبارها ستتدخَّل في اللحظة الحاسمة لتقلب كل النتائج، كثيرون هم من يروجون لكل هذا، وهم «معوِّقون» على نحو أسوأ بكثير من أصحاب الأفكار السلبية؛ لأن نتائج هؤلاء تكون أشد وَقْعًا على المدى البعيد.

***

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

هذا هو الخندق الأهم في حياة كل منا، أن نتبع خطاه، أن نحاول فهم ما كان يفعله وكيف كان يفكر، وكيف كان يتصرف.

لماذا تأخذنا سورة الأحزاب وغيرها من السور إلى داخل بيته، إلى مشاكل قد يتعرض لها كل بيت؟ لأنه من المهم جدًّا أن نفهم واقعيته وبشريته، لم يصل لما وصله دون المرور بالمشاكل اليومية لكل الناس، لم يكن لديه قدرات خارقة تجعل كل مَنْ حوله يطيعونه، بل كان يجاهد من أجل ذلك، ومعرفة ذلك بالنسبة لنا أمر أساسي في الاقتداء به، لا يوجد حل سحري لأي مشكلة، بل مواجهتها أولًا كما هي، وعرض الحلول الممكنة، حتى مع أصعب هذه الحلول.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (الأحزاب: ٣٢).

علينا أن ننتبه هنا إلى أن كل شخصية عامة - في أي مجال كانت شهرتها - تتعرَّض للنظر إليها من خلال عدسة مكبرة، يحدث هذا حتى مع مشاهير الفن والرياضة، إذ تتم مراقبة زوجاتهم أو أولادهم على نحو

يجعل من أي هفوة طبيعية حدثًا جللًا وأمرًا كبيرًا، الناس تتعامل مع المشاهير عمومًا بمعايير مختلفة عن تلك التي تعامل نفسها بها، وهذا أمر يكاد يكون جزءًا من الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان، مهما كان هذا المشهور بسيطًا أو متواضعًا أو مُصرًّا على أن يعيش حياته كما الآخرين، الناس لن تتركه يفعل ذلك تمامًا، وستتعامل مع «عاديته» باعتبارها حدثًا خارقًا، ونفس الشيء سيحدث مع أبنائه أو أهل بيته.

إذا كان يحدث مع المشاهير العاديين، فهو يحدث من باب أَوْلَى مع مشاهير الدعاة والمصلحين، ومن باب أَوْلَى وأَوْلَى مع الرسل والأنبياء.

السورة تحفر خنادقَ لحماية أهل بيت النبي - عليه الصلاة والسلام - من هذه الطبيعة البشرية، لحمايتنا من التمادي في ذلك، من النظر لهم بعين تجعلهم ليسوا من البشر؛ لأن هذه النظرة بالذات هي التي تسيء لهم عندما نتعامل مع بشريتهم باعتبارها أخطاءً لا تُغْتَفَر.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

لا يمكن لدور البيت التربوي - دور الاقتداء والتعليم - أن يكون فاعلًا ومتفاعلًا عبر العصور إن لم يكن رجس هذه النظرة التضخيمية قد زال.

لا يمكنك أصلًا أن تقتدي بشخص أو تتعلم منه إن كنت تعامله على أسس غير بشرية.

وأهل البيت - بالتعريف - هم مَنْ حملوا بيت النبوة لنا، بأخلاقه وسلوكياته، والتعامل معهم على أسس تضخمهم وتحاسبهم على طبيعتهم البشرية يعطل عملية التربية نفسها.

الخنادق التي وُضِعَت هنا في السورة، والتي حققت نوعًا من الحماية لأهل بيته عليه الصلاة والسلام، كانت ضرورية لجعل دور أهل البيت التربوي أكثر نجاعةً وتركيزًا.

***

وسورة الأحزاب هي التي وصفته - عليه الصلاة والسلام - بالسراج المنير.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦).

﴿وسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

سراجًا منيرًا نحتاجه أثناء حفر الخندق، في الظلمة، بينما نتلمس طريقنا للخروج.

نعم، سراجًا منيرًا، رغم أننا لم نتعامل معه على هذا الأساس في أكثر الأحيان.

***

وهي السورة التي نزل فيها الأمر بالصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام -.

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وهذا خندق آخر نحفره حول علاقتنا به عليه الصلاة والسلام، علاقتنا التي يمكن أن تكون أهم علاقة إنسانية في حياة كل منا، خندق يحمينا من الإفراط والتفريط في هذه العلاقة، إذ تميل الطبيعة البشرية إلى الانحياز إلى جهة من الطرفين؛ إما الإفراط - الغلو - الذي يحول الأنبياء والرسل - وحتى الأولياء - إلى أشباه آلهة، وأحياناً إلى آلهة.

أو التفريط المعاكس، الذي يسقط فيه آخرون، حيث يتم نزع كل ما هو مقدس عن الأنبياء.

«الصلاة على النبي» هي الخندق الذي يمنعنا من السقوط هنا أو هناك.

فهي تمنحه مكانة مقدسة بلا شك.

لكنها في الوقت نفسه، تضع مكانته بمعزل عن الغلو.

كيف؟

لأن الصلاة على النبي هي دعاء له، أي إنك تدعو الله له عليه الصلاة والسلام.

لا يمكنك أن تصلي على النبي وأن تصلي له.

مجرد كون أعظم عبادة ترتبط به عليه الصلاة والسلام هي الدعاء له؛ فهذا أمر يحمي مكانته من الغلو.

على الأقل من ناحية التعبد.

***

وهذا الخندق الذي يحوط مكانته عليه الصلاة والسلام، يرتبط بخندق آخر يحيط بك، كما لو أن ثمة قناة موصلة بين الخندقين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤١-٤٣).

الله يصلي علينا؛ بمعنى الرحمة، وملائكته؛ بمعنى استغفارهم لنا.

وخروجنا من الظلمات إلى النور.

حدث ذلك عبر السراج المنير، الذي نتلمس طريق الخروج معه عليه الصلاة والسلام.

***

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

تحتاج الأمانة إلى خنادق حولها لحمايتها.

وهذه السورة تقدّم لنا علامات مهمة في حفر الخنادق.

سورة سبأ ٣٤

أوهام القوة وأوهام الضعف

كثيرون منا يمتلكون عن أنفسهم أوهامًا عديدة، بعضها أوهام تجعلهم أكبر أو أقوى أو أفضل أو أعلم أو أجمل، وبعضها أوهام تجعلهم أصغر أو أضعف أو أكثر جهلًا أو أقبح.

في الحالتين، هذه الأوهام يمكن أن تأخذ صاحبها إلى هاويته، ليس مباشرةً بالتأكيد، لكن في الطريق إلى الهاوية ثمة إشارات إلى ما هو قادم.

نرى ذلك كثيرًا مع أشخاص حولنا نعرفهم ويعرفوننا، ربما نراه أحيانًا مع أنفسنا، أحيانًا نتنبه إلى الإشارات المحذرة فنمسك اللجام، وأحيانًا لا نتنبه؛ فنذهب إلى النهايات.

أوهام القوة والضعف تلك تعتاش على بعضها البعض، مثل طرفَي معادلة لا وجود لأحدهما دون الآخر.

أولئك الذين يتوهمون القوة يمارسونها على أولئك الذين يتوهمون الضعف، والذين يتوهمون أنهم الأفضل يؤثِرون على أولئك الذين يتوهمون العكس، كل وهم يقابل ضده في معادلة تحتاج إلى الأوهام كي تتوازن.

ما علاقة كل هذا بسورة سبأ؟

الأمر يتوضح في مركز السورة، الحدث الذي أَخَذَ اسمها؛ سبأ.

***

ملخص ما أشارت إليه الآيات أن سبأ كانت تشهد ازدهارًا اقتصاديًّا كبيرًا، قائمًا بشكل كبير على تنوع منتجاتها الزراعية، ومن ثَمَّ الإتجار بهذه المنتجات، وكانت الرحلة التجارية التي تبيع منتجات سبأ تمر بطريق فيه قرى ظاهرة[1]، وهذا يعني وجود مراكز مدنية طيلة الطريق على نحو يجعل الطريق آمنًا؛ إذ إن قُطَّاعَ الطرق لا يمكنهم غزو قوافل التجارة إلا عندما تمر في طريق مقفر بعيد.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨)

ورغم ميزة هذا الأمر، إلا أنه يمكن أن يكون عيبًا في حسابات من يرغب بالمزيد من الربح، فالطريق الآمن يمنع التجار من فرصة الاحتكار ورفع السعر، يمكن لأيٍّ كان أن يجلب نفس البضاعة من مصدرها الأصلي عندما يكون الطريق آمنًا[2].

لذلك فقد فضَّل الملأ في سبأ التضحية بأمان الطرق في سبيل المزيد من الأرباح.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: ١٩).

أوهام القوة جعلتهم يتصورون أنهم سيكونون قادرين على تحقيق الحفاظ على أمن قوافلهم واحتكار تجارتهم وتحقيق المزيد من الأرباح.

---

(١) مفصل تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ١٣ صفحة ٢٤١.

(٢) " قالوا ربنا باعد بين أسفارنا..رؤية تدبر اقتصادية" يحيى البوليني موقع المسلم نت.

لكن الضربة جاءتهم في مصدر تجارتهم الأصلي: في المنتجات الزراعية.

وقد أدى انهيار سد مأرب إلى أكبر هجرة من اليمن إلى الجزيرة العربية.

***

لكن السورة تضم أيضًا قصة أخرى يمكن أن نرى فيها هذا الوهم من جديد.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۞ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ ١٣: ١٤).

الجن هنا كانوا يعملون ما لا يستطيع البشر فعله، كانوا متقدمين بطريقة ما على بقية البشر، ودَفَعَهُمْ هذا إلى توهُّم أنهم الأعلم، بل دفعهم هذا إلى تصور أن علمهم لا حدود له، إلى أن اصطدموا بعدم معرفتهم بوفاة سليمان رغم مرور بعض الوقت على ذلك.

يحدث هذا كثيرًا اليوم، تحوُّل الإيمان بأن العلم لا حدود لقدراته وأنه قادر على الرد على كل الأسئلة وإيجاد كل الحلول، هذا الوهم شائع جدًّا اليوم، وهو من أسباب الإلحاد الجديد، ثمة هاوية تنتظر هؤلاء مع أسئلة يتجاهلونها أولًا لأنهم يعرفون أن العلم - بطبيعته - لا يمكنه أن يجيب عليها، ثم يمضون إلى ما أبعد من ذلك، يقررون أن اللا جواب هو جواب بحد ذاته.

إنه وهم آخر من تلك الأوهام التي يعتاش عليها البعض، ريثما تُودي بهم إلى هاوية ما.

***

على بُعْدِ آيات من كل هذا سنرى ذلك الحوار:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سبأ ٣١: ٣٣).

وتدور طاحونة التلاوم وتبادل الاتهامات، أصحاب أوهام الاستضعاف والصغار يلومون أصحاب أوهام القوة والاستكبار، وهؤلاء بدورهم يلومونهم ويبرئون أنفسهم، قصة كل يوم، ومكر الليل والنهار يحيق بالجميع، والأغلال في النهاية تسحب الجميع، لا فرق كبير بين متوهم بالقوة ومتوهم بالضعف، الكل مجرم بالجريمة ذاتها لكن بأدوات مختلفة.

وتنتهي السورة بخاتمة موحية جدًّا، تجعلنا جميعًا في مواجهة هذه السبأ التي قد نسكنها دون أن نعلم، تجعلنا نراجع أوهامنا التي تعوّدنا التعامل معها على أنها حقائق لا تقبل الشك.

الحق في مواجهة الباطل، في مواجهة الوهم الذي لا يبدئ ولا يعيد.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۞ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبأ: ٤٨، ٤٩).

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۞ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (سبأ: ٥٠، ٥١).

الوهم مكان قريب جدًّا، تلك الأوهام التي تقودنا إلى الهاوية قريبة جدًّا منا، أقرب مما نتخيل، هي في داخلنا، في أعماقنا.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (سبأ: ٥٢).

الوهم بدأ قريبًا، ثم قادنا إلى بعيد، إلى هاوية سحيقة لا ردَّ يأتي منها ولا جواب.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۞ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾(سبأ: ٥٣، ٥٤).

ذلك الشك المريب، قد يكون هو هذا الوهم الذي ينزلق البعض إليه.

في حياة كل منا سبأ ما، وهْمٌ قوة أو ضعف ما، أو أي وهْمٍ مزخرف آخر يعبِّد طريقنا إلى الهاوية.

في حياة كل منا خطوط طول وخطوط عرض تحاول أن تقودنا إلى سبأ ما.

المهم أن نكون واعين بما هو، وما هو حق.

سورة فاطر ٣٥

عن تحديد المواقف والفرص الثانية..

منذ أن تبدأ رحلة حياتنا وهناك خيارات تحتِّم علينا أن تحدد موقفًا تجاهها.

منذ البداية المبكرة لها إلى نهاية الرحلة

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(فاطر: ١١).

في هذه الرحلة، لو نظرنا لها من بعيد دون تفاصيل، سنرى أن الأمر يمكن أن يُخْتَزَل - على الأقل في أجزاء كبيرة منه - إلى أن تكون هنا أو هناك، أن تكون مع الحق أو الباطل، أن تحدد موقفك إن كنت معه عز وجل، أي مع نفسك.

أو أن تكون قد تحالفتَ ضد نفسك، واتخذتَ نفسك عدوًّا.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ فاطر﴾ (فاطر: ٦).

من أجل القدرة على تحديد المواقف يجب أن نميز بين ما هو مختلف، وما هو ضد.

كثيرون لا يميزون بين الأمرين، يتوهمون أن كل اختلاف هو أمر يجب أن تكون ضده، وينسون أن الأمر يتدرج أحيانًا مثل الطيف، مثل أجنحة متدرجة لنفس الملاك.

﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ١).

بعض الأمور المختلفة لا تكون مخالفة فعلًا لما سبق، لكننا عندما لا نميز بين الأمرين، نسقط في فخ محاربة كل شيء، والتصور أنه من حزب أصحاب السعير.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر: ١٢).

البحران مختلفان، من السهل جدًّا على من لم يعرف واحدًا منهما أن يتصور أن هذا الذي لم يعرفه، المختلف عما عرفه، هو ضد، لكن اختلاف البحرين لم يكن اختلاف تضاد، كان مجرد تدرج في صورة واحدة، نغفل عن كلها فتفوتنا الفكرة.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: ١٣).

الليل والنهار، يَبْدُوَان مختلفين جدًّا، يبدو كل منهما لو كان معاكسًا للآخر تمامًا، لكن هذا ما تراه من قريب فحسب، عندما تكون داخل حدود

الليل أو داخل حدود النهار، لكن لو ابتعدت، لو نظرت من الأعلى، سترى أنهما يتكاملان معًا، بل ويتبادلان الأدوار بينهما.

لكن هذا الأمر لا ينطبق على كل شيء، هناك من الأشياء ما يندرج اختلافها ضمن التنوع والتدرج والتكامل، وهناك ما لا يحدث فيه ذلك، هناك ما يجب أن تحدد موقفًا منه، هناك ما يجب أن تحدد موقعك ومكانك منه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۞ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۞ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر ١٩: ٢٢).

هذه أضداد كاملة لا نسبي فيها ولا تدرُّج، وعليك أن تحدد موقفك، هل تختار العمى أم البصيرة؟ هل تختار الظلمات أم النور؟ هل تختار أن تبقى في منطقة الراحة دومًا، أن تكون مسترخيًا تحت الظل، أم عليك أن تحسم أمرك وتمضي إلى ما يجب أن تمضي إليه ولو كان في منتهى الحَر؟

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٣).

هنا الإنذار، رسالة تطلب منك أن تحدد موقفك مما يدور حولك، يمكنك أن تختار ألَّا ترى شيئًا، أن تغمض عينيك، أن تختبئ في الظلام.. تحت الظلام.. في الظلال، أن تكون الظلال عنوانك الدائم الذي لا تستطيع الخروج منه.

ويمكنك أن تختار البصيرة، أن تنزع عن عينيك وعقلك كل عوائق الرؤية والفكر، وأن تختار أن يغمرك النور بدلًا من أن تغطس في الظلمة، وأن تخرج عن مناطق اعتيادك وراحتك إلى قارات العمل والتغيير.

خيارات كهذه لا يمكن أن يكون موقفك منها «بَيْنَ بَيْنَ»، لا يمكن أن تكون رماديًّا هنا، لا يمكن أن تضع قدمك في منطقة والقدم الأخرى في المنطقة المضادة، لا فصام هنا، لا يوجد أصلًا خيار كهذا.

هنا ثمة قرار حاسم يجب أن يُتَّخَذَ.

هذا القرار وبهذا الاتجاه، هو جزء من الفطرة الإنسانية، كيف؟ لأن العمى، الظلمات، الظل؛ هي خيارات تقود إلى الموت في آخر المطاف، طبيعة الحياة الإنسانية والصراع المستمر من أجل البقاء يتطلب أن تحدد موقفًا فيه الحركة الواعية بما حولك، قد تقودك الحركة إلى الهلاك أيضًا، لكنها تحتوي أيضًا على احتمالية النجاة، أما البقاء في الوضع الساكن؛ في العمى والظلمات والظل، فهي توقيع مسبَق على رسالة الانتحار، مهما طال الأمد.

الحياة الإنسانية بطبيعتها تتطلب هذا القرار، هذا الانتقال من منطقة (العمى/الظل) إلى منطقة النور والعمل هو جزء من تعريف الحياة.

لذا كانت المقارنة النافية بين الأموات والأحياء، هي المقارنة المتممة لمقارنات العمى - البصيرة، الظلمات - النور، الظل - الحَرور.

هذا القرار الذي نحدد فيه موقفنا، هو جزء من الفطرة التي أودعها الله فينا، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي تبتدئ السورة بالحمد له في هذه الصفة تحديدًا: أنه فاطر كل شيء، والفاطر هو الذي ابتدأ كل شيء، كما لو أن الحمد هنا يتجه لله الذي وضع هذا القانون وابتدأ فيه كل شيء؛ السماوات والأرض، ومن ضمنها نحن.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر ٢٧: ٢٨).

هذا الاختلاف المتنوع المتدرج هو سنة الله في خلقه، وقدرة الناس - بعضهم على الأقل - على تمييز هذا الاختلاف عن الاختلاف المتضاد هو منبع خشية الله، الخشية التي تثمر تحديدًا صائبًا للمواقف بين الخيارات المتنوعة.

في النهاية، أغلب الخيارات من النوع المفصلي يمكن اختزالها إلى اختيار بسيط عليك أن تحدد موقفك منه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{ (فاطر:١٥).

عليك أن تحدد موقفك، هل تنحاز إلى فقرك الذي هو جزء أساسي من طبيعتك الإنسانية، المفتقرة إلى الكمال بالتعريف؟ أم تذعن إلى الحقيقة وتحدد موقفك لتكون مع الله الغني بالتعريف؟

القرار شخصي جدًا، يخص كل شخص على حدَة، مهما كانت تبعات هذا الموقف تمس وتؤثر على أشخاص آخرين.

﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر:١٨).

كلٌّ يحمل ثقله بنفسه، يحمل قراراته ومواقفه ونتائجه، من سيتحرى الصواب سينتفع نفسه أولًا..

أداؤنا كبشر سيختلف في امتحان تحديد المواقف هذا.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(فاطر: ٣٢).

بعضنا سيكون ظالمًا، ظالمًا لمن؟ لنفسه أولًا، كل ظلم للآخرين هو ظلم للنفس أولًا؛ لأنه انحياز لطبيعة بشرية مفتقرة إلى الكمال، إنه الرهان على الخاسر.

آخرون سيكونون مقتصدين، لم يحددوا دومًا المواقف الصائبة، لكن كان لديهم رصيد من تحديد المواقف الصحيحة في الوقت الصحيح.

وآخرون سابقون بالخيرات، خياراتهم دومًا في الخير، يحددون مواقفهم بناءً على تلك الخشية المثمرة، فتكون في الاتجاه الصحيح.

من يحدد كل هذا؟ من يحدد الظالم من المقتصد من السابق في الخيرات؟ ليس أيٌّ منا، كلنا في النهاية نجلس في قاعة الامتحان كممتحنين، لكن البعض منا يتصور أن له الحق أن يوزع نتائج الامتحان قبل انتهائه وقبل تصحيح النتائج.

في النهاية، واضع الامتحان وحده - عز وجل - هو الذي يحدد مَن المقتصد، مَن الظالم، ومَن السابق بالخيرات، ومن المحتمل جدًّا أن من نصَّبوا أنفسهم كموزعين للنتائج يكونون في خانة الظالمين، وهو عز وجل أعلم، كما أن ذلك محتمل أيضًا بحق كاتب هذه السطور وقارئيها كذلك.

لا أحد يمكنه أن يعلم قبل أن تُعْلَنَ النتائج.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر٣٣: ٣٤).

أولئك الذين دخلوا الجنة، سيحمدون الله الذي أذهب عنهم الْحَزَن، وهو معنى أوسع من الحُزن (نقيض السرور)، بل يعني الأرض الغليظة التي يصعب الإنبات فيها.

طريقهم كان صعبًا، خياراتهم لم تكن هينة، لم يكن الدرب معبَّدًا دومًا، ربما دفعوا ثمنًا غاليًا نتيجة تحديدهم لمواقفهم، ولكنهم وصلوا إلى الجنة في نهاية المطاف.

آخرون ستكون أوضاعهم مختلفة تمامًا، هنا سيدفع ثمن المواقف الخاطئة، أو اللا موقف أحيانًا.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٧).

لكن زمن الفرص الثانية قد انتهى، كان هناك ما يكفي منها في الحياة الدنيا.

في النهاية، تحديد المواقف هي جوهر الاستخلاف، الاستخلاف الذي هو الهدف من وجودنا في الأرض.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (فاطر: ٣٩).

تحديد المواقف هذا - بين ثنائيات متعارضة - هو جزء من نظام هذا الكون كله.

﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر:٤١).

هل من فرار من هذا؟! من ضرورة اتخاذ موقف، من أن تكون مجموعة هذه المواقف أساسية في تحديد مصيرنا لاحقًا.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر:٤٣).

لا فرار، هذه هي سنت الأولين والآخرين، سنة الله في خلقه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾(فاطر: ٤٥).

لكنه لن يؤاخذهم، بل يترك لهم الفرص الثانية، العمر كله فرص ثانية في النهاية، يؤخرهم إلى حين أن تُستَنفَد هذه الفرص، ليسوا دوابًّا، الدواب ليس عليها أن تحدد موقفها من شيء.

الإشارة إلى نهاية الفرص الثانية ليس تهديدًا بعواقب التخلي عن تحديد المواقف فحسب.

بل هو أيضًا تذكير بأنك إنسان، تحفيز لهذا الإنسان في داخلك أن يرتقي إلى إنسانيته.

أن يحدد موقفه.

ليس مثل المخلوقات الأخرى.

سورة يس ٣٦

يا إنسان!

اعتدنا على أن تُقْرَأَ هذه السورة على الموتى، لا دليل قوي على صحة هذا الفعل، وقد فهم الأولون الدليل الضعيف على أنه قراءة لهذه السورة على المحتضر، وليس الميت الذي مات وانتهى عمله.

رغم هذا، لم أفهم لماذا سورة يس تحديدًا هي التي تُقْرَأ على الميت أو حتى المحتضر، ما الذي يميزها حتى يجعلها خاصة بالموت؟ فيها ذكرٌ للموت نعم، لكن ليس أكثر من سور أخرى كثيرة، الموت وما بعد الموت من العناصر الثابتة في النسيج القرآني، ويندر أن تخلو سورة من ذكره، خاصةً من السور الطويلة أو حتى متوسطة الطول.

ما الذي فيها إذن؟ لماذا ارتبطت في أذهان الناس بالموت حتى صارت ملازِمَة لشعائر ما بعد الموت عند الكثيرين؟

لم أكن أفهم ذلك تمامًا.

اليوم يبدو لي الأمر كما لو أنه متعلق بمعنى أعمق للحياة، ومعنى أعمق للموت.

سورة يس تحدثنا عن حياة تشبه الموت، وعن موت هو أقرب للحياة.

عن موت متنكر بالعيش، وحياة تحدث بعد الموت.

***

يبدأ الأمر بنداء؛ يس.

ثمة خلاف بين أن تكون يس من الأحرف المقطعة في أوائل السور، أو أن تكون اسمًا من أسمائه عليه الصلاة والسلام، أو أن تعني: يا رجل أو يا إنسان، بالحبشية، ذكر المفسرون هذه الاحتمالات الثلاثة في تفسيرهم لمطلع السورة.

وهذا الخلاف يقدم لنا منطقة متداخلة خصبة بين «يا إنسان» وبين أن يكون المنادَى هو الرسول عليه الصلاة والسلام، خاصةً أن بقية الآيات تخاطبه بوضوح: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (يس: ٢، ٣).

كما لو أنك تجد في نفسك شيئًا يجمعك معه عليه الصلاة والسلام، شيئًا في إنسانيتك يؤهلك لتكون معه في فئة مخاطبة واحدة.

ليس هذا فقط، لكن إنسانيته عليه الصلاة والسلام ستكون مفتاحًا لنا في فهم السورة.

إنسانيته عليه الصلاة والسلام هي أرقى ما يمكن لإنسان أن يحققه.

وعندما يكون الحديث عن حياة كالموت وموت كالحياة، فإن هذا إنسانية من هذا الرقي، سيكون لها دور كبير.

***

الحياة التي تقول لنا السورة: إنها كالموت، والتي تريد أن تبعثنا منها هي حياة الغفلة، حياة في ظل غياب الوعي.

غافلون مُقْمَحُون لا يبصرون، وبالتالي: لا يؤمنون.

الغفلة هي الوصف الأول، ثمة أشياء كبيرة تحدث حولهم في عالمهم لكنهم أقفلوا على أنفسهم داخل عالم ضيق يحجزهم عن العالم الحقيقي.

﴿مُقْمَحُونَ﴾ الكلمة تعني أن رؤوسهم مرفوعة إلى الأعلى[1]، وأبصارهم تتجه نحو الأسفل، لا أعرف وصفًا للغفلة أعمق من هذا، أن تنظر إلى الأرض، حتى لو كان رأسك مرفوعًا إلى الأعلى وتبدو مرتفعًا شامخًا، لكن في الحقيقة: أنت تنظر إلى الأرض، إلى سفاسف الأمور، إلى تفاصيل التفاصيل التي لو حُذفت لما أثَّرت في شيء.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (يس: ٨).

﴿مُقْمَحُونَ﴾، الأغلال التي في أعناقهم ليست بالضرورة قيودًا مادية مرئية، هي على الأغلب: أغلال نفسية وعقلية تجعلهم مشدودين إلى القطيع، تجعلهم جزءًا من قطيع الخوض مع الخائضين. رؤوسهم إلى الأعلى؛ لأنهم ربما يعيشون حياتهم طولًا وعرضًا، لكن أبصارهم إلى الأسفل؛ لأنهم ببساطة لم يعرفوا أن ثمة بُعدًا آخر غير الطول والعرض: العمق.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ٩).

سد من أمام، وسد من الخلف، لا يرون القادم، ولا يرون الماضي، كيف يمكن لوعي أن يتشكل عندما تؤخذ منه إمكانية النظر إلى الأمام والخلف، لا نظر إلا إلى القاع.

---

(١) لسان العرب مادة قمح.

لكن هذه السدود، ومن قبلها الأغلال، الآيات تقول عنها «جعلنا»، أي إن هؤلاء - في هذه الحالة - لا حول لهم ولا قوة، الله - عز وجل - هو الذي جعل هذه الأغلال في أعناقهم وهذه السدود بين أيديهم ومن خلفهم.

إنهم بطريقة ما، مُسَيَّرُون على طريق القطيع.

لكن هذا التصور ناشئ عن خلط في أفهامنا بين «الجعل» و«الخلق»، السورة لم تقل: إن الله خلق في أعناقهم هذه الأغلال أو السدود بين أيديهم ومن خلفهم، بل قالت: إنه جعلها.

ما الفرق؟

الفرق أن الجعل يعني تصيير أو توظيف شيء معين موجود من قبل هذا الجعل؛ ليكون في وظيفة معينة، بينما الخلق يعني إيجاد هذا الشيء أصلًا.[1]

إذن الأغلال والسدود كانت موجودة بصيغة ما، والفعل الإلهي كان أنه جعلها بصيغة الأغلال والسدود.

كانت موجودة - أولًا - باختيارهم، بكامل إرادتهم وسابق تصورهم وتصميمهم.

وعندما أبقوا عليها لفترة ما دون أن يجربوا إزاحتها؛ جعلها الله أغلالًا وسدودًا.

---

(١) كما في:

{وَالله جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا} [النحل: ٨١]

{الله الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)} [الروم: ٥٤].

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا} [الفرقان: ٥٤].

وأصبح:

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يس: ١٠).

ليسوا ضحايا، بل هم شركاء أساسيون في الجريمة، جريمة حياة الغفلة، حياة كالموت.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس: ١٢).

كل الموتى سيحييهم الله ليواجهوا هذا الاختبار: هل كانت حياتهم موتًا آخر قبل أن يموتوا؟ هل دلت آثارهم على حياة غفلة كالموت؟ أم كانت حياتهم حياة حقيقية؟

الجواب عن هذا السؤال سيترتب عليه أشياء كثيرة، بل ربما يمكن القول: سيترتب عليه كل شيء.

لكن كما مع كل امتحان، لن نعرف الإجابة إلا لاحقًا، حياتنا كلها نقضيها في قاعة الامتحان ونحن نحاول أن نقدم أجوبتنا؛ بوعي أحيانًا ودون وعي - للأسف - في أحيان كثيرة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(يس: ١٢).

﴿وآثَارَهُمْ﴾ تُوقِفُنَا هنا، آثارنا هي التي تبقى، بعض أعمالنا ستكون أقل أهمية من أخرى، هناك أعمال ستترك آثارًا، ربما في حياة آخرين، ربما بعد أن نمضي، ربما آثار إيجابية وربما سلبية، هذه الأعمال ربما سيكون لها وزن أكبر من تلك التي كانت آثارها ضيقة النطاق وعابرة للزمان.

من يحدد النطاق والزمان؟

ليس نحن بالتأكيد، هذا جزء من الامتحان ومن نتائجه التي لن تُعْرَفَ إلا بعد أن ينتهي كل شيء، لكنه أمر يُذَكَر ولا بد، يجعلنا ننتبه إلى أهمية أن يكون هناك أثر إيجابي وعابر للزمان فيما نفعله في حياتنا.

تأخذنا السورة بعدها مباشرةً إلى «أصحاب القرية»، قرية يبدو أنها تعيش تلك الحياة التي تجعل رؤوسها مرتفعة وعيونها منخفضة إلى الأسفل إلى كل ما هو متدنٍّ، إنهم قوم مسرفون، ثلاثة رسل أُرْسِلُوا لهذه القرية، ولكن أهلها يمانعون، لقد تشاءموا من الرسل وما يدعون إليه، في الوقت الذي يتمسكون فيه بمصدر الشؤم: بحياتهم المنغمسة في كل ما هو متدنٍّ، الحياة التي ظاهرها حياة، ولكن باطنها موت مقنَّع.

لكن السورة لا تتركنا مع الرسل، بل تمر بهم وتمضي إلى شخص عادي، مجرد رجل آخر في المدينة، لكنه حمل الحقيقة التي يؤمن بها إلى قومه وهو مشفق عليهم؛ لأنهم لا يبصرون.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (يس ٢٠: ٢٥).

مجرد رجل آخر قد يشبهنا جميعًا، ربما بلا ملامح مميزة مثل أغلبنا، ليس برسول، لكنه آمن بما قالته الرسل، آمن بحياة في عمق الحياة وبعد الحياة، وجاء يسعى من أقصى المدينة وهو يحمل ما يرى إلى الناس.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس ٢٦: ٢٧)

لقد انتهى الأمر فيما يخص امتحانه، صدرت نتيجته النهائية: أن ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، ماذا كان رده: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، لو أنهم كانوا قد خرجوا من أغلالهم، لو أنهم نظروا إلى الأعلى، لو أنهم آمنوا بالبعد الأعمق للحياة.

لقد حمل معه ذلك الشعور بالحسرة عليهم حتى آخر العمر، لا، بل بعد آخر العمر، في الآخرة. لا يمكن أن يحدث ذلك من دون أن يكون هناك حب لهم، وليس فقط حب للفكرة التي يحملها.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (يس:٣٠).

حتى النهاية، سيكون هناك هذا الشعور بالحسرة، لو أنهم سمعوا، لو أنهم رفعوا أبصارهم إلى الأعلى، لو أنهم أدركوا معنى الحياة قبل أن يموتوا.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۞ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس ٣٣: ٣٦).

نحن لا نزال في معنى الحياة والموت، الحياة هنا تخرج من الموت، الأرض كانت ميتة غير منتجة، ثم انبثقت فيها الحياة؛ جنات وعيون ونخيل وأعناب، وعمل يدوي يطعم الناس.

والأزواج أيضًا تنبت من هناك، من نفس الأرض، ولعل هذه الأزواج تكون ميتة أيضًا إلى أن تنتج، مثل موت الأرض التي خرجت منها، لعل الحياة في أعمق معانيها هو هذا الإنتاج الذي يحقق الهدف من الخلق.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يس: ٤٨).

لا يرون إلا ما هو أدناهم؛ لذا فهم لا يستطيعون فهم الآخرة، يريدونها (الآن وهنا) ليفهموها؛ لأنهم لا يفهمون إلا ما هو آنيٌّ ومباشر، الآن وهنا.

لذلك يسألون: متى؟

ولو جاءهم الجواب مباشرًا محددًا التاريخ؛ لما تغيَّرَ شيء في موقفهم، إنهم مُقْمَحون، رؤوسهم مرتفعة ولكن أبصارهم في الأرض، يعيشون الحياة موتى، ببعد الحياة الأدنى.

***

من بين كل سور القرآن، فإن هذه السورة تحديدًا هي الأكثر التي تكررت فيها كلمة «مبين»، في سياقات مختلفة.

إمام مبين، ضلال مبين، عدو مبين، خصيم مبين، وقرآن مبين.

سبع مرات، تكررت فيها الكلمة، كما لو كانت تشير لنا إلى أهمية أن يكون كل شيء واضحًا، معنى الحياة ومعنى الموت ومعنى الضلال ومَنْ هو عدوك ومن هو خصمك.

هناك أشياء يجب أن تكون واضحة؛ لأن حياتك - وبالتالي آخرتك - ستعتمد عليها.

هناك أشياء عليك أن تحدد بوصلتها؛ لأنها ستحدد أين سترسو مراكبك في النهاية.

***

﴿يس﴾.

فلنتذكر أنها ربما كانت تعني: يا رجل، أو يا إنسان.

﴿يس﴾ يا إنسان، السورة تقول لك أن تعيش حقًّا قبل أن تموت، ألَّا تموت قبل الموت.

نحن أَوْلَى بقراءتها من الموتى.

ما دام لدينا فرصة.

الصافات ٣٧

استعد، تثبَّت، انطلق

سورة الصافات هي السورة التي تأخذك إلى الصف.

تُجلِسك في الصف الأول، الصف الأمامي، وتجعلك تراقب ما يحدث، تتعلم منه، ومن ثَمَّ تأخذ دورك في العمل، تصطف لتعمل.

***

تبدأ السورة بهذا القَسَم:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ (الصافات ١: ٣).

ثمة ترتيب في الأمر، الصف أولًا ثم الزجر فالذِّكر.

السياق هنا هو عن الملائكة كما تقول كل كتب التفسير.

ملائكة تقف صفًّا وملائكة تزجر وملائكة تتلو الذكر.

نفهم معنى الصف هو الاستواء، الوقوف بانتظام، بسوية، بصفوف متوازية.

الزجر، نعرف أنه النهر، لكنه ليس هذا فقط، فهو أيضا الحث، الحمل على المُضِي بسرعة، تقول العرب: زَجَرَ الإبل أي حثها على الإسراع.

يبدو هذا المعنى أكثر اتساقًا مع ما سبق، ومع جو السورة العام كما سنرى.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾.

بعد الاستواء والحث على الإسراع، يأتي الذكر.

الذكر هو حفظ الشيء، دراسته، جريانه على لسانك.

لدينا إذن ثلاث مراحل.

الاستواء في الصف، الحث على الإسراع والمضي، وبعدها: أن يبدأ الذكر، الذكر بهذا المعنى الذي يتضمن الفهم وتبليغ الفهم.

الأمر يشبه: استعد، تثبَّت، انطلق.

سورة الصافات تأخذنا إلى هذه الثلاثية، إلى حيث نقف في الصف الأمامي، تحثنا على المضي، ثم تقول: اذكروا جيدًا ما سترون وستعون؛ لأنه سيتكرر دومًا بأشكال مختلفة.

***

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۞ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (الصافات ٦: ٩).

أول ما سنعرفه في هذا الصف الأمامي أن عالمنا هذا محصَّنٌ من التدخلات الخارجية التي يؤمن بوجودها البعض، لا نجم يؤثر على حياتك

أو صفاتك لأنك وُلدتَ في مطلعه، لا أبراج هناك تؤثر على حياتنا إلا تلك الأبراج التي نبنيها نحن، والتي نؤثر عليها أكثر مما تؤثر علينا.

افهم هذا وانطلق بعدها، أنت تتعامل مع هذا العالم المرئي وظروفه وتعقيداته وتداخلاته، لا تعلق فشلك أو تفسر نجاح الآخرين بشيء قادم من عالم آخر لم يبذل فيه البشر جهدًا.

دخول هذا الفهم الخاطئ إلى ثلاثية الاستواء والحث والذكر سيقتل أهم معاني الثلاثية.

ما هي معاني هذه الثلاثية؟ سنرى.

***

في هذا الصف سنرى أشياءً متقابلة، كلًّا في طرف، فيها ما يجمعها، فيها تشابه، ولكن جوهر كل واحدة منها يعاكس الأخرى، وسيكون علينا أن ننتبه لهذا التشابه، وأن ننتبه أكثر للجوهر خلف التشابه.

ضمن هذه التقابلات سنرى أسئلة تُطْرَح ظاهرها متشابه، لكن لأن أجوبتها مختلفة فكل ما سيلي ذلك سيكون مختلفًا.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۞ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات ٢٧: ٢٩).

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۞ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾(الصافات ٥٠: ٥٢).

السؤال هو هو، كيف وصلنا إلى هنا؟ لكن الجواب كان مختلفًا تمامًا في كل مرة.

لأن نقطة النهاية كانت مختلفة، مرة طُرِحَ السؤال في جهنم، حيث انتهت الطرق الخاطئة، ومرة طُرِحَ في الجنة، حيث قادت الطرق الصواب.

***

ضمن نفس منطق الأسئلة والأسئلة المضادة يأتي السؤال الأهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾...؟

نعرف ذلك من القرآن، ونعرفه من المشككين والملحدين في زماننا وفي كل زمان، مسألة البعث من الموت هي التحدي الأكبر لعقولهم، يقيسونها بمقاييس الحياة اليومية المادية المباشرة، فيجدون صعوبة في تصديقها أو تخيلها، فيسألون هذا السؤال: أبعد أن نموت ونصبح عظامًا متحللة؟

قد نتخيل أن السؤال تكرر كثيرًا في القرآن، لكنه ذُكِرَ خمس مرات فقط في كل سور القرآن.

اثنتان منها في سورة الصافات:

المرة الأولى كانت بالصيغة التي نعرفها والتي تكررت في بقية المواضع.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (الصافات: ١٦).

والمرة الثانية حدث فيها تغيير بسيط، لكنه تغيير مهم جدًّا يُكمِل الصورة، ويجيب عن السؤال تلقائيًّا.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (الصافات: ٥٣).

مبعوثون أولًا.

مدينون ثانيًا.

المعنى ذاته؟ لا.

مدينون، والتي تعني أنهم مُجازون، مُحاسَبون، عليهم دَيْنٌ يجب تسديده.

هذا المعنى يتمم معنى البعث ويجعله أكثر تقبلًا بالنسبة للعقل البشري، البعث من الموت هو لهدف وجدوى: ثمة ديون يجب أن تُسَدَّد، الحياة كلها مبنية على الأسباب والنتائج، وعندما تكون هناك نتائج لا نراها مباشرةً، فهذا فقط لأنها مؤجلة، وكل الحسابات «النهائية» تكون آجلة، لا نرى في حياتنا سوى حسابات عاجلة مختزلة.

مبعوثون نعم، ولكن: مبعوثون لأنهم مَدِينون.

كلنا مبعوثون ومَدِينون.

ونحن في الصف سنفهم ذلك بوضوح أكبر.

***

في الصف أيضًا سنرى شجرتين؛ كل واحدة منهما في طرف مضاد للآخر.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۞ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۞ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (الصافات ٦٢: ٦٥).

الأولى هي شجرة الزقوم، الشجرة الفتنة للظالمين.

والثانية؟

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۞ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ۞ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات ١٤٥: ١٤٧).

إنها الشجرة التي نبتت على النبي يونس بعد أن خرج من بطن الحوت، قبل أن يعود لمواجهة المهمة التي تصور أنها مستحيلة.

الشجرة الأولى: الفتنة، ربما تكون أكثر ارتفاعًا وبروزًا من شجرة اليقطين، لكن ارتفاع الأولى هو الذي يجعلها فتنة، هو الذي يجعل الناس ينخدعون بها، يعتقدون أن علوَّها يجعلها أفضل، لكن العبرة الحقيقية هي في الثمار، في النتائج، وليس في الارتفاع.

شجرة اليقطين ليست شاهقة العلو والارتفاع، لكنها كانت شجرة الأمل والعمل والمضي في المهام التي كنا نعتقد أنها مستحيلة.

وكذلك يحدث كثيرًا في حياتنا، نرى الأعلى والأكثر ارتفاعًا، فتنخدع به وببريقه ونغفل عن نتائجه وثماره، وقد نزهد فيما يبدو أقل ارتفاعًا وبروزًا فلا ننتبه عن فوائد ثماره.

بعض المنتجات في المدنية الحديثة قد تجذبنا، تخطف اهتمامنا، وقد يتخذ البعض من أضوائها المتراقصة منارًا له، لكننا لا نفكر كثيرًا في مآلاتها، في نهاية الطريق الذي تقودنا إليه.

تلك هي شجرة الزقوم: الفتنة، طريق مختصر إلى جهنم.

وقد ننظر باستخفاف إلى منتج آخر، تبدو أضواؤه شاحبة نسبيًّا، يبدو قديمًا، ولكن ثمرته لا تنتهي صلاحيتها، يمكن أن تمد دومًا بالإيمان العابر للأزمان، بالأمل المتجدد رغم الوعي بصعوبات الواقع.

تلك هي شجرة اليقطين، الطريق الطويل الذي لا بد من المضي فيه إلى النجاة والنجاح.

***

في كل سور القرآن تتكرر عبارة «عباد الله المخلصين» ثمان مرات.

من هذه الثمان: تحتل سورة الصافات مرتبة الصدارة.

خمس مرات تكررت فيها هذا العبارة.

المرات الأربعة الأولى كانت بصيغة الاستثناء:

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۞ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات ٣٨: ٤٠).

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات ٧٣: ٧٤).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات ١٢٧: ١٢٨).

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات ١٥٨: ١٦٠).

لكن في المرة الأخيرة جاءت العبارة بصيغة مختلفة:

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ۞ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ۞ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات ١٦٧: ١٦٩).

هناك من يحاول التحجج، لو أن عندنا ﴿ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾؛ لأصبحنا من هؤلاء، من عباد الله المخلصين، لو أننا كنا مع الرسول، زمن الرسول؛ لأصبحنا مثل الصحابة.

مبدئيًّا، لكل مرحلة تاريخية ظروفها، كما لكل شخص تفرُّده الذي لا يطابق فيه أحدًا كما بصمته لا تطابق أحدًا، لا أحد يمكنه أن يكون نسخة من شخص آخر، وخاصة من شخص ينتمي لحقبة تاريخية مختلفة.

وهذا لا يمنع الاقتداء، السير على النهج، أن نجد الإلهام بهذه الشخصيات، ولكن لا تطابق، لا نسخ كربونية عابرة للزمان والمكان.

الأهم من هذا: إن حجة «لو أننا كنا في ذلك الزمان؛ لكُنَّا مثلهم» حجة ساقطة أصلًا؛ لأن هناك ناسًا عاشوا في تلك الحقبة، وكانوا على الطرف الآخر، لا شيء يضمن أبدًا أنك ستكون في أي طرف ضمن ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾(الصافات:٥٠)، قد تكون من المصدقين بالبعث والجزاء، وقد تكون قد قلتَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

فلننتبه أن «عباد الله المخلَصين» تعبير يمكن أن يصف أي شخص دون مؤهلات مسبقة، لا يتطلب منه أن يكون رسولًا أو نبيًّا أو صحابيًّا أو حواريًّا، جواز المرور إلى هذه «الفئة» يتطلب الإخلاص في العبادة فقط، ليس أمرًا سهلًا يمكن الحصول عليه بسهولة، لكنه أيضًا ليس مستحيلًا.

***

تأخذنا سورة الصافات عبر ثلاثية: «الاستواء والحث والذكر» إلى قصص الأنبياء، لكننا سنراها هذه المرة من خلال هذه الثلاثية تحديدًا.

سنبدأ بنوح، ثم نذهب إلى إبراهيم، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم لوط، وأخيرًا يونس.

أغلب قصص الأنبياء نعرفها من سور سابقة، عدا إلياس الذي لا يُذْكَر في القرآن إلا هذه المرة.

لكن ما الذي يميز قصص الأنبياء في سورة الصافات عن سواها؟

ما الذي نراه عبر ثلاثية الاستواء والحث والذكر؟

سنرى أن كل هؤلاء - عدا يونس - قد ذُكِرَ ومعه أهله أو أسرته أو ذريته.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۞ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۞ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (الصافات ٧٥: ٧٧).

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات ٩٩: ١٠١).

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۞ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۞ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (الصافات ١١٤: ١١٦).

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ۞ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۞ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات ١٢٣: ١٣٠).

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ (الصافات ١٣٣: ١٣٥).

ليس صدفة أن يكون هناك ذكر للأهل في كل هذه السياقات؛ أسرة أو أخ أو زوجة أو آل، الاصطفاف أولًا يكون هنا في الأسرة، الحصن الأول وأحيانًا الأخير في النهاية، الأسرة هنا بمعناها الضيق: الأخ والزوجة والأبناء، ومعناها الأوسع: الذرية، الآل.

لست وحدك تمامًا، على الأقل عليك أن تجرب ألّا تكون كذلك، أن تتمسك بأسرتك ومن حولك لأن قوتك تزيد بقوتهم، كما قوة كل شخص منهم تزيد بقوتك، الأمر يشبه بديهيات الحساب. ١+ ١ = ٢، و٢+ ٢ = ٤.

فلننتبه أن الأمر هنا يعتمد أولًا على غريزة أساسية من غرائز البشر؛ التناسل والتكاثر، منذ فجر الحياة، وهذه الغريزة تحرك كل المخلوقات، كل مخلوق في كل نوع يريد أن يحفظ نوعه عبر صراع مستمر على البقاء، ولكي تبقى فإن عليك أن تنتج نسخة من نوعك، تدخل بدورها في ملحمة الصراع من أجل البقاء.

لكن الأمر هنا يتجاوز بدائية الغريزة التي نشترك فيها مع كل المخلوقات إلى ما هو أعلى، لم يعد الأمر مجرد بقاء للنوع، بل أصبح مرتبطًا بحاجاتك النفسية أيضًا، في أن يكون هناك معنى في هذه الرابطة، أن يكون البقاء «نوعيًّا» وأن تكون العلاقات بين أفراد هذه الرابطة تربطهم بأكثر من قرابة الدم والعرق والنسب، بل بالقيم الأخلاقية المحرِّكة للمجتمع، القيم التي تحمي المجتمع والتي تجعله ينمو ويتطور في الوقت نفسه.

جوهر الأمر هنا أن غريزة البقاء التي تمثل واحدة من مخاوف الإنسان المزمنة، تتحول هنا إلى عنصر قوة.

أن تتحول نقاط ضعفك إلى منبع لقوتك.

هذا درس مهم نتعلمه في هذا الصف.

كل ما يخيفك في أعماقك، كل تلك المخاوف السرية التي قد تعتبرها عُقَدًا لك، يمكن أن تتحول لتصبح منجمًا للقوة والعطاء والإبداع.

لكن يلزم أولًا أن تكون واعيًا معترفًا بها.

***

لكن لماذا «يونس» يختلف عن كل الأنبياء الذين ذُكِرُوا في عدم وجود أي ذِكْرٍ لأسرة أو ذرية في سياق قصته؟

السبب واضح، علينا أن نعرف أن ذلك قد لا يتيسر أحيانًا لأي سبب كان، الأمور ستكون أكثر صعوبة عندما تكون وحدك، لكن هذا لا يشترط بالضرورة ترك المهمة أو الفشل، على العكس، نجاح يونس في جعل قومه يؤمنون وجعل إيمانهم ينقذهم كان أمرًا مميزًا له بين سياقات قصص الأنبياء الذين ذُكِرُوا في السورة.

مخاوفك قد تكون أكبر دوافع نجاحك.

نعم.

***

أيضًا يمكننا أن نلاحظ من سياقات قصص الأنبياء أننا نرى صورًا في حالة حركة سريعة، نوح يركب السفينة، إبراهيم يحطم الأصنام وتتوالى

الأحداث معه بعدها، ينتقل من بلد إلى آخر. الشيء ذاته بالنسبة لموسى وهارون ولوط ويونس.

هناك حركة دائمة، هجرة، انتقال من حال إلى آخر.

كأن هذا يتسق مع معنى الزجر، الحث على الإسراع؟

***

لم تنته دروس الصافّات.

ثمة درس مهم جدًّا في خضمّ هذه السياقات.

فسورة الصافات هي السورة الوحيدة التي ذُكِرَت فيها قصة رؤيا إبراهيم بذبح ابنه، لم يُذْكَر الأمر أو ترد إشارة له في أي سورة أخرى.

القصة جاءت في سورة نصطف فيها بانتظام، ونحث على العمل، ومن ثم نرى العبرة والذكر.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات ١٠٣: ١٠٧).

فلنتذكر هنا أولًا أن التضحية بالأبناء كانت طقسًا شائعًا في مجتمعات كثيرة من ضمنها مجتمعات الشرق الأدنى التي جال فيها سيدنا إبراهيم، وما يستفظعه البعض عندما يمرون على القصة كان أمرًا مقبولًا، وعلى العكس، فقد كانت هذه الواقعة - الرؤيا والطاعة والهم بتنفيذ الأمر،

ومن ثم الفداء - بمثابة خطوة انفصال لا بد منها للخروج من منظومة القرابين البشرية.

إذن سيدنا إبراهيم، الذي عانى من العقم فترة طويلة، وبعد أن بُشِّرَ بمجيء غلام، وبعد أن جاء الغلام وكبر حتى ﴿بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي أصبح يعينه، تأتي الرؤيا: الذبح.

الأمر هنا أصعب بكثير من تجربة سيدنا يونس، يونس تأقلم على وضعه، سيدنا إبراهيم مر بامتحان أشد بكثير، حُرِمَ من الأبناء أولًا، ثم ذاق نعمة وجودهم وتربيتهم وأن يقفوا بجانبه.

ثم الذبح بيديه.

التضحية عظيمة.

لا يشبه الأمر ابن نوح أو زوجة لوط، لا، ذاك كان خيارهما، هنا الابن كان مؤمنًا منسجمًا مع قيم والده.

الامتحان أصعب بكثير.

لعل هذا السياق يشير إلى أننا قد نضطر في أحيان كثيرة أن نضحي بما هو عزيز جدًّا علينا، بما هو جزء منا، ليس لأن هذا الجزء ينبغي التخلص منه لِعَيْبٍ فيه، بل لأن الأولويات تحتِّم تقديم أشياء أخرى أَوْلَى وأَهَم، أن تتخلص مما هو عزيز عليك - مثل جزء من قلبك - لأن قيمك تحتِّم ذلك.

امتحان عظيم، نسأل الله أن يجنبنا إياه.

***

بعد هذه السياقات يأتي تذكير مهم.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (الصافات ١٤٩: ١٥٣).

لا يأتي هذا التذكير هنا صدفة، حاشا لله.

الحاجة الإنسانية إلى التزاوج والإنجاب جعلت البعض يعتقد أن الإله يمكن أن يمتلك نفس الاحتياج، التصور البشري محصور بطبيعته البشرية، البعض لا يمكنه أن يتصور أن هناك ما هو خارج هذه الطبيعة؛ لذا فهم يتصورون الإله مثل البشر، وأنه - حاشاه - يتزوج وينجب إلخ.

لكن رب العالمين لا احتياج له أصلًا، هذه الحاجات بشرية فحسب، وتصوراتنا عنه عز وجل عليها أن تتخلص من كل ما نعرفه من طباع البشر.

هذه أول خطوة للخروج من سوء الفهم، سوء الفهم الذي قد يتراوح بين انحراف في العقيدة الصافية نحو الشرك أو نحو الإلحاد الرافض لفكرة الله: ما هذا الإله الذي يشبه البشر؟

***

صفٌّ استوينا فيه.

وزجر، حث، تنبيه انتبهنا له.

وتذكرة لكي نرى كل ما يمر بنا من منظار دقيق.

وليس صدفة - حاشا لله - أن تنتهي السورة بهذه التسبيحة تحديدًا:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: ١٨٠).

رب العزة، المرة الوحيدة التي وُصِفَ رب العالمين بهذه الصفة هي في هذه السورة.

العزة، نستشعر معانيها أكثر عندما نكون في «الصف»، متنبهين لأي أمر أو زجر أو حث، وفي قمة الاستعداد للذكر.

رب العزة، نعم سبحانه.

خاصة أن السورة التالية ستتحدث عن العزة والشقاق.

سورة ص ٣٨

عن العزة والشقاق

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص ١: ٢)

تدخل عليك سورة ص فجأة من دون مقدمات، تقول لك: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: ٢).

بل؟

بل تفيد الاستدراك، تتحدث عن شيء معين، فتستدرك، هو أكثر مما قلت ومما تصورت.

أو تستدرك، لتقول شيئًا معاكسًا لما ذُكِرَ.

لكن السورة تبدأ هكذا، دون أن يكون هناك ما يسبق هذه الـ «بل» حتى تستدرك عليه.

لا، كان هناك شيء في نفسك، والسورة ألقت القبض عليك متلبسًا به، وقالت لك بوضوح: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: ٢).

ماذا كنت تقول في نفسك حتى قال لك القرآن هذا؟!

لا بد أنك كنت تقول شيئًا عن قوة الذين كفروا، عن عزتهم، عن هيمنتهم على العالم، عن تقدمهم، عن تطورهم.

أليس كذلك؟

«القرآن ذو الذكر» يقرأ أفكارك، إن لم تكن تقولها الآن، فربما قلتها سابقًا، أو ستقولها لاحقًا، وها هو يقول لك - استباقًا -: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: ٢).

نعم، إنهم في عزة ظاهرة للعيان، لكن ثمة ما هو أكثر في هذه العزة، ثمة شيء قد لا يكون مرئيًّا على الفور، يستلزم أن تدقق كي ترى ما تحت هذه العزة من شقاق.

يشبه الأمر بناءً تاريخيًّا شامخًا مرتفعًا، تراه من بعيد فيخطف بصرك بهيبته، ثم تقترب فترى آثار التصدعات والشقوق على واجهته، ثم تقترب أكثر فتسمع صوتًا في الجدران، وتشعر بحركتها بفعل الريح.

من بعيد، الأمر مختلف تمامًا.

﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (ص ٦: ٨).

يريدون الإبقاء على الوضع القائم ضد أي تغيير، كل شيء مؤامرة بالنسبة لهم، مؤامرة تريد أن تطيح بهم وبعزتهم وبقوتهم وبثروتهم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ (ص ١٢: ١٣).

قبلهم كانوا هؤلاء، ولكن السلسلة تستمر، دومًا هناك حضارات ومجتمعات تشبه هذه المجتمعات. عزة لا تخطئها العين، ولكن أيضًا شقاق.

لا يتعلق الأمر بالمجتمعات والحضارات فقط، بل بالأشخاص أيضًا.

أحيانًا ترى البعض في حالات عِزَّة مبهرة.

ولكن هذا من بعيد فقط، من الداخل هناك مشاكل كثيرة، ربما هناك صراع في داخل هذا الشخص، ربما هناك أرق وقلق يأكلانه كل ليلة، ربما هو فريسة سهلة لهذه العزة كل يوم.

وربما ستعرف لاحقًا حقائق تؤكد هذا، تؤكد التصدعات والشقاق خلف الواجهة المبهرة، وربما لن تعرف قط، سيأخذ معه أسراره إلى قبره، ثم إلى يوم عرضه وحسابه.

المهم، لا تغتر كثيرًا بالعزة، سواء في الأشخاص أو في المجتمعات، فقد يكون هناك ما لا تراه خلف هذه العزة.

***

هكذا إذن، هل يرسل لنا القرآن رسالة مفادها أن هذه المجتمعات والشخصيات القوية ليست بهذه القوة التي نتخيلها، وأن علينا أن ننتظر إلى أن تتغلب نقاط الضعف على نقاط القوة وينتهي الأمر؟

محال، القرآن لا يفعل هذا.

القرآن يدلنا على أمثلة أخرى للعزة، العزة المستمدة من رب العزة - كما وصفته السورة السابقة تمامًا -، العزة التي يأمرنا - عز وجل - أن نمشي على خطاها ونقتفي آثارها، لا التي ننبهر بها فحسب.

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ۝ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ۝ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص ١٧: ٢٤).

هذا هو نموذج العزة، ﴿دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾.

كم يدًا لسيدنا داود؟ اثنتان فقط كما لنا جميعًا، لكن الأيد هنا تعني القوة، وسائل التنفيذ التي امتلكها سيدنا داود والتي شكّلت أعلى ما يمكن أن تصله حضارة في زمانه.

لكن هذا التقدم ليس المعيار الوحيد الذي يمكن حساب العزة فيه، بل هناك في سياق قصة داود ما لا يقل أهمية: إنه العدل الاجتماعي الذي جعل داود ينتبه إلى احتكار الثروة الذي تمارسه بعض الفئات ورغبتها في الاستئثار بالمزيد، ووقوفه ضد ذلك.

إنه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٦).

الحكم بالحق، ترك الهوى في التعامل مع الناس ومع القيم، عدم التعامل بمكاييل مختلفة حسب اللون والعرق والأيديولوجيا، هذه هي مميزات العزة المستمدة من رب العزة، العزة التي بلا شقاق.

مزيد من الأمثلة؟ سليمان، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (ص ٣٥: ٣٨).

المزيد من العزة، المزيد من وسائل القوة الأكثر تطورًا حسب معايير عصره، مع المحافظة على القيم التي كرَّسها والده داود، عليهما السلام.

هل تمدنا سورة ص بمثَل آخر عن العزة كما يجب أن تكون غير مَثَلَي داود وسليمان؟

نعم، بمثَل مختلف جدًّا.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (ص ٤١: ٤٣).

كيف يكون أيوب مَثَلًا عن هذه العزة وهو الذي ابتُلِيَ بمرض باعد عنه الناس؟ ببساطة، هذه هي العزة الحقيقية عندما تمر بأزمة، أن تبقى متماسكًا، صامدًا، صابرًا؛ إلى أن تجتاز العاصفة.

أيوب وسليمان وداود، كيف يمكن الربط بين هاته الشخصيات؟ نماذج مختلفة عن العزة الحقيقية في مراحل مختلفة، العزة التي جعلها الإيمان تكون قوية وعادلة، وجعلها أيضا تصمد.

***

ماذا عن أمثلة أخرى عن العزة والشقاق، تلك التي لا نراها في حياتنا الدنيا؟

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ۞ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾(ص ٦٢: ٦٤).

لقد انتهوا إلى جهنم، لكنهم يريدون أن يأخذوا الجميع معهم، أين فلان وعلان؟ لمَ هو ليس معنا يحترق في نار جهنم؟!

أيُّ شقاق أكثر من هذا؟!

بل إننا سنرى مثالًا مبكرًا جدًّا عن هذه العزة وذلك الشقاق، قبل أن يبدأ كل شيء.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۞ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (ص ٧١: ٧٨).

إبليس – النموذج الأعلى للغواية والشر – بدأت رحلة سقوطه من نقطة التقاء العزة بالشقاق، من هذا الشعور بالتكبر والاستعلاء الذي جعله لا يمتثل لأمر الله بالسجود لآدم، الممثل الأول للنوع الإنساني في هذا الصراع.

الحكاية إذن مبكرة جدًّا، لا تبدأ بقوم نوح ولا تنتهي بكفار قريش، هي مع بداية الإنسانية، وستبقى ما دامت الإنسانية، الأمر في حقيقته وجوهره صراع داخلي في أعماقنا، ضمن صراعات داخلية أخرى، صراع بين عزة في داخلك مستمَدَّة منه عز وجل، من الإيمان به وبالقيم التي ترسيها رسالته، وبين العزة الأخرى، عزة الكبر والاستعلاء، وكل الشقاق والتصدعات التي تتبع ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۞ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص ٧٩: ٨٣).

إبليس يُقْسِم بعزة الله على أنه سيغوي كل البشر.

بين كل سور القرآن التي ذُكِرَ فيها هذا الموقف، سورة ص هي السورة الوحيدة التي يُذْكَرُ فيها هذا القسم لإبليس، القسم بالعزة، بالتأكيد، إنها سورة تتحدث عن العزة من بدايتها، وإبليس يقسم بعزة الله أنه سيغويهم نحو عزة أخرى؛ عزة وشقاق.

إبليس من المنظَرين، كل منا جزء من هذا التحدي، جزء من هذا الصراع.

سورة ص تحكي لنا قصتنا الشخصية ولكن من زاوية بعيدة جدًّا، بحيث نراها من البداية المبكرة، من أصلها.

أما نهاية هذه القصة، فلن نعلمها الآن، بل بعد حين.

خلال ذلك يمكننا أن نساهم في تحديد هذه النهاية.

الزُّمَر ٣٩

معركة مدوية بصمت

لولا أن هناك سورة أخرى اسمها سورة الإخلاص لربما أخذت سورة الزُّمَر هذا الاسم بجدارة،

فمنذ البداية تشير السورة إلى الإخلاص، وتتكرر هذه الإشارة صريحة في أربعة مواضع لاحقًا.

لكنها ليست سورة الإخلاص.

بل هي سورة الزمر.

وسنعرف أن «الإخلاص» و«الزمر» مرتبطان بأكثر مما بَدَا لنا أولًا.

***

توجِّه السورة الحديث إلى المخاطب الفرد في أغلب آياتها.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ (الزمر: ٢).

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الزمر: ٧).

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لله أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۞ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر ٨: ٩).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۞ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (الزمر ١١: ١٤).

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ الله أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر: ٢٢).

﴿ضَرَبَ الله مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٩).

﴿أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۞ وَمَنْ يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ الله بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ (الزمر ٣٦: ٣٧).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: ٤١).

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ بَلِ الله فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر ٦٥: ٦٦).

كل هذه السياقات فردية شخصية في طبيعتها، كما لو أنها تذكّرنا بارتباط الإخلاص – وهو الذي افتُتِحَتْ به السورة وركّزت عليه في أكثر

من موضع - بأمر داخلي جواني يخص كل شخص على حِدَة، الإخلاص لا يمكن قياسه أو تعييره أو حتى معرفة وجوده من الخارج، هذا أمر بينك وبينه عز وجل فقط، بل إنك أنت شخصيًّا كنت تكون في شك أحيانًا من إخلاصك، ووحده رب العالمين هو القادر على تحديد ذلك.

الإخلاص معركتك الشخصية الداخلية، مثل ذلك الرجل الذي ذكرته الآيات، رجل فيه ﴿شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ وآخر ﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾، المعنى المباشر كان يعني الرق، فقد يشترك بضعة رجال في امتلاك عبد في زمن العبودية، وقد يكون هذا العبد مِلْكًا لرجل واحد، هذا المعنى يمكن أن نراه اليوم بزاوية أخرى، أحيانًا يكون في داخل فرد واحد «أشخاص متشاكسون»، كل منهم يمتلك جزءًا من روح هذا الشخص أو عقله أو من قلبه وعواطفه، وعندما يحدث تضارب مصالح بين هؤلاء المتشاكسين؛ فإن كلًّا منهم يريد أن يأخذ الشخص إلى مكان آخر.

إنها موقعة الإخلاص، لا يسمع صوتها أحد، ولا تُعْرَفُ نتائجها إلا لاحقًا، لكنها حاسمة ومصيرية.

لكن رغم فردية المعركة، إلا أننا سنرى في نهاية السورة شيئًا مختلفًا جدًّا.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۞ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر ٧٣: ٧٤).

بعد مواجهة فردية شخصية، كنت تعتقد أنك وحدك من تخوضها، تقول لك السورة: إنك - في النهاية - ضمن فوج كبير، وإنك هذه المرة ستدخل الجنة ضمن مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين خاضوا معاركهم داخليًّا كما فعلت أنت.

كيف كان الطريق من هذه المعركة الفردية إلى الزُّمَرَة؟ من الأنا إلى النحن؟

في أحيان كثيرة كان موحشًا حتمًا، ككل الطرق المهمة في الحياة، لكن لم يكن ذلك حاله دومًا، مجرد فكرة أن هناك زُمْرَة بانتظارك ستخفف من الأمر، مجرد إيمانك بأنك لست وحدك في هذه المواجهة، وأن هناك غيرك - ربما بالملايين - يواجهون مواجهة مماثلة في نفس اللحظة؛ فإن هذا سيخفف كثيرًا من وحشة الطريق.

***

تشبه هذه اللحظة، لحظة الوعي بأنك جزء من فوج ستنضم له، لحظة استنارة، لحظة يتسرب فيها النور إلى دربك، فلا يعود موحشًا كما كان.

تشبه تلك اللحظة الأخرى:

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٦٩).

أرضك ستشرق بنور ربك.

والطريق من الأنا إلى النحن سيكون أيسر.

سورة غافر ٤٠

البحث عن منفذ للخروج

سورة غافر تنقلك إلى ذلك السؤال الذي قد تطرحه على نفسك في لحظة ضياع ويأس، عندما تسأل نفسك: كيف وصلت إلى هنا؟

هل سأتمكن من الخروج؟

تلك اللحظة عندما تشعر أن كل شيء يحاصرك، وأن كل شيء يطاردك، وأن العالم على سعته قد ضاق عليك.

سورة غافر تأتيك هنا بينما أنت تسأل: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (غافر: ١١).

فتقول لك: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٣٨).

تدلك على الطريق الذي ينقذك من ضياعك، من شعورك باليأس، من شعورك أن لا حل هناك يمكن أن ينقذك مما أنت فيه.

يبدأ هذا الطريق بهذا الوصف لله - عز وجل - الذي ابتدأت به السورة: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (غافر: ٣).

مهما كانت معصيتك، مهما ابتعدت عنه عز وجل، مهما أوغلتَ في ذنوبك، فإنه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

الباب مفتوح دومًا، يغفر ذنبك ويقبل توبتك.

لكنه شديد العقاب أيضًا.

هل هذه الصفة هنا لتوازن «غافر الذنب، قابل التوب» التي بدأ بها الوصف؟

ممكن، لكن البدء بغافر الذنب وقابل التوب، يعطيك الأمل، بحيث إن «شديد العقاب» تأتي كتتمة منطقية تكمل الصورة دون خلل في الاتجاه نحو هذه الجهة أو تلك بين الترهيب أو الترغيب. بل الاثنان معًا في سياق واحد لا يفصل بينهما فاصل.

﴿ذِي الطَّوْلِ﴾؟ صاحب النعمة والفضل، وأصل الكلمة من لفلان «طَوْلٌ» على فلان، أي فضل عليه، والمطاولة تعني المباراة في الفضل، ومنها ما جاء في الحديث: «اللهم بك أحاول، وبك أطاول.».

ويأخذنا هذا المعنى تحديدًا إلى أفق آخر:

اللهم، يا ذا الطول، بك أحاول وبك أطاول، أن أخرج من هذا التيه، من هذا اليأس، أن أجد باب الخروج، سبيل الرشاد.

بين المحاولة المتخبطة العابثة كفريسة تتلوى في الفخ، وبين المحاولة التي تستهدي بهديه، وتسترشد بإرشاده، فرق كبير، تمدك سورة غافر بخيوطه.

هنا يصبح لمحاولة الخروج معنى آخر، ليس بمعنى المحاولة كما نفهما بلغتنا اليومية الدارجة، بل بمعنى استمداد الحَوْل والقوة منه عز وجل في هذه المحاولة.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾.

الله دون أي تجزئة في صفاته.

***

ستقابلنا آية تتحدث عن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (غافر: ١٠).

والتفسير السائد - ولا شك في صحته - يشير إلى أن الكفار سيكرهون أنفسهم يوم يرون حقيقة أعمالهم.

لكن الكثير من الكافرين في حقيقة الأمر يكرهون أنفسهم قبل ذلك بكثير، يكرهونها في الحياة الدنيا ربما دون أن يعوا ذلك تمامًا.

أولئك الذين لديهم الكثير من الكبر، من الذات المتضخمة، من الأنا الطاغية لديهم أيضًا كراهية داخلية لذواتهم الداخلية، الذات المتضخمة هنا تعكس تصور شخص ما عن نفسه، وهو تصور بعيد عن الذات الواقعية، عن حقيقة هذا الشخص، وهو لا يملك - كلما تضخمت أناه - إلا أن يكره نفسه الحقيقية الصغيرة الضعيفة - بالمقارنة - مع الذات المتخيَّلة.

إنهم يكرهون أنفسهم حقًّا، يهربون منها إلى محاولة جعل الذات المتخيَّلة واقعًا أمام الناس، حتى لو بالتمثيل، بعمليات التجميل، بالتصنع، بأي شيء.

***

ومؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه.

تخيلوه، تخيلوا صعوبة هذا الكتمان، تخيلوه يحمل هذا الإيمان ويُخْفيه في صدره وهو ضمن الفئة المقربة في قصر فرعون.

ثمة صراع في داخله؟ نعم بالتأكيد، لكن هذا الصراع أخف وطأةً من ذلك المقت الذي تحدثت عنه السورة، صراعه لأنه يكتم هذا السلام الذي دخل فيه، صراعه كان مع الخارج أكثر مما كان في الداخل.

وفي لحظة ما، لم يعد الكتمان ممكنًا.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۞ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۞ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۞ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (غافر ٢٨: ٣٣).

ما الذي حدث لمؤمن آل فرعون؟ لا نعرف، بقي يجادل قومه وهو يخاف عليهم العاقبة، لا تخبرنا السورة ماذا حدث له وماذا كان رد فعل فرعون تجاهه بالضبط، نعرف أنه نجا من «سيئات ما مكروا»، هل لعبت القرابة دورًا؟ أم أن أسلوب هذا المؤمن كان أخفَّ وقعًا من صدمة السحرة الذين

انقلبوا على فرعون أمام الجميع؟ لا نعرف التفاصيل، لكننا نعرف أن مؤمن آل فرعون يذكّرنا - كما تذكّرنا زوجة فرعون - بأن النفس البشرية في داخلها خير مهما كانت الظروف المحيطة بها، وأنه هناك بشر لديهم مشاعر ونوازع إيمانية رغم أنهم في عمق معسكر أعداء الإنسانية.

ويخبرنا سكوت السورة عن التفاصيل أيضًا أن مصير السحرة ليس حتميًّا على كل المؤمنين أن يتجهوا له بعيون مغمضة، بل ربما كان هناك سبيل للخروج.

***

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۞ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۞ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (غافر ٣٥: ٣٧).

فرعون وهو يريد أن يبني صرحًا يناطح السماء، كان كأنه يهرب من كرهه لذاته الحقيقية، فرعون هو النموذج الأعلى للذات المتضخمة بين البشر، ولأنه كذلك فلا بد أن كرهه لنفسه الحقيقية - نفسه البشرية الضعيفة مثلنا جميعًا - لا بد أن يكون أكبر من أي كره آخر شعر به البشر لأنفسهم.

كان كرهًا فرعونيًّا لدرجة الصعود للسماء، فقط ليهرب من حقيقة ضعفه إلى وهم الأنا المتضخمة، في الظاهر كان يريد أن يتحدى موسى

ويرى ربه، لكنه في جوهر الأمر ربما كان يريد أن يهرب من حقيقة يعرفها: موسى على حق، هو ليس إلهًا، ليس سوى إنسان آخر، مثل كل الذين يحكمهم.

ضاقت عليه الدنيا وهي تحاصره بهذه الحقيقة الكريهة: ربما السماء تكون أوسع له.

لكن عندما تكره نفسك، تحاصرك هذه النفس في كل مكان، فهل إلى خروج من سبيل؟

لا، لا سبيل هناك إلا إن بدأتَ في استجواب نفسك وما أوصلك إلى هناك.

***

الطريق إلى سبيل الرشاد، سبيل الخروج من هذه المتاهة يمكن أن يكون بسيطًا واضحًا.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۞ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۞ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر ٣٨: ٤٠).

ليس الأمر معقدًا مثل نظرية فيزيائية تحتاج إلى شهادة عليا لفهمها.

الأمر بسيط مثل بديهة لا تحتاج إلى تفسير: العمل السيئ له عقاب، والجيد له ثواب. نقطة انتهى.

للأسف، لا يبدو الأمر كذلك بالنسبة لكثيرين، سيكون هناك الكثير من الجدل لغرض الجدل، لا لغرض الوصول إلى الحقيقة، الجدل المدفوع بقوة تضخُّم الأنا، والذي سيقود إلى حائط مسدود.

بالنسبة لمؤمن آل فرعون، وكل مَنْ هو مثله، بما فيهم أنت شخصيًّا، لن يكون هناك سوى قول: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر: ٤٤).

***

في هذه الرحلة في البحث عن سبيل للخروج سنمر بآية سبق وأن مررنا بما يشبهها في سورة البقرة، لكن هذه المرة سنفهمها على نحو مختلف.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(غافر: ٦٠).

هنا سنرى أن الدعاء والاستجابة تتعلقان بسبيل الخروج من هذا التيه.

من يدعو الله أن يخرجه من هذا سيجد الطريق.

أما الذي يعتقد أنه ليس بحاجة للدعاء ليصل إلى الطريق، فلن يجد سوى طريق فرعون وصرحه الذي يريد أن يطّلع به إلى السماء.

ونهايته معروفة سلفًا.

***

وقبل أن نغادر سورة غافر تقول لنا السورة: إن رحلة البحث عن سبيل للخروج ساهم فيها رسل كثيرون.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر: ٧٨).

ليس المهم أن نعرف أسماء كل الرسل، المهم أن ننتبه إلى أن كل تجاربهم كانت متشابهة في العمق والجوهر، وأن ننتبه إلى الأنماط المتكررة في سلوك الناس من حولهم؛ لأنها غالبًا ستبقى تتكرر دومًا رغم اختلاف الأزمنة والأماكن واللغات ودرجة تطور المجتمعات.

***

وفي خاتمة السورة تودعنا بملخص عام.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (غافر: ٨٢).

ربما ساروا ولكن لم يبصروا جيدًا، أو أشاحوا بأنظارهم بعيدًا، ربما وجدوا المتعة في المتاهة وقرروا أن يمعنوا في الضياع، ربما كان ضياعهم مهربًا من مواجهة الحقيقة، من مقتهم لأنفسهم.

أما نحن، فنحن نريد أن نسير ونحن نبصر، وأن نجد سبيلًا للخروج.

وسندعو غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب ذي الطَّوْلِ أن ييسر لنا الطريق.

سورة فصلت ٤١

صافرة إنذار داخل رأسك!

سورة فُصِّلَت مثل صافرة إنذار تطلق صوتها داخل رأسك.

صافرة إنذار تصرخ في أذنك: حذار، الصاعقة قادمة.

أغلب صافرات الإنذار تُطْلَقُ عندما يكون الخطر وشيكًا، الغارة قادمة، الصواريخ دخلت مجالًا جويًا قريبًا، بالكاد تستطيع أن تذهب أنت وأطفالك إلى الملجأ لو كان قريبًا.

لكن سورة فُصِّلَتْ هي صافرة إنذار تقول لك: الصاعقة قادمة، ولا فائدة من الذهاب إلى الملجأ؛ لأنه سيُدَمَّرُ وسينهار عليك أيضًا.

صافرة الإنذار هنا تقول لك: إن الصاعقة قد تكون من داخلك، وبالتالي فالهروب لا يجدي، كل ما تستطيع فعله هو أن تحاول أن تتغير، الملجأ الوحيد الممكن من صاعقة تأتيك منك هو أن تتغير أنت.

هذا ما تقوله السورة، وهذا تفسير صوت صافرة الإنذار الذي يدوّي في رأسك عندما تقرأها.

وهذا ما فهمه بعض رجالات قريش عندما قرأها عليهم عليه الصلاة والسلام.

ذهب إليه واحد منهم - عتبة بن ربيعة - ليفاوضه عليه الصلاة والسلام.

فقرأ عليه سورة فُصِّلَتْ إلى قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣).

هنا قال عتبة: حَسْبُكَ حَسْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرَ هَذَا؟!

قَالَ: لَا.

فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟

قَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَى أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا وَقَدْ كَلَّمْتُهُ بِهِ.

فَقَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟

قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَا وَالَّذِي نَصَبَهَا بَيِّنَةً مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ.

قَالُوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ رَجُلٌ بِالْعَرَبِيَّةِ لَا تَدْرِي مَا قَالَ؟

قَالَ: لَا وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ.[١]

عتبة كان يفهم حتمًا ما يقال، لكن صوت صافرة الإنذار في رأسه كان عاليًا مدويًا، لم يستوعب سوى ذكر الصاعقة.

كانت هذه المرة الأولى والوحيدة التي يتم فيها توجيه إنذار مباشر وصريح لقريش بصاعقة تضربهم كما ضربت عادًا وثمود.

(١) مصنف أبي شيبة ٣٦٥٦٠، المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣٠٠٢، وصححه الألباني في صحيح السيرة.

في المواضع الأخرى تُذْكَر القصة، ويُفْهَم منها التحذير.

لكن هنا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣).

ولقد أعرضوا.

إذن؟

صاعقة عاد وثمود.

***

لكن ما الذي أوصل الأمور إلى هذه النقطة؟

ما الذي جعل صافرة الإنذار تنطلق هنا؟

مَنْ هو الذي يستحق هذا الإنذار الأخير، الفرصة الأخيرة؟

***

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصلت: ٥).

هذه هي نقطة اللاعودة، هذا هو الاختلاف عما سبق.

لماذا؟ مرت مثل هذه الآيات سابقًا، في سور الإسراء والكهف والأنعام ولقمان.

لا، هذا الشبه ظاهري فقط.

في كل تلك السور السابقة هناك وصف لهم مشابه لهذه الآية، الآيات تصفهم بأنهم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

هنا هم من يعترف بذلك، هنا يقولون بوضوح: في قلوبنا أكنَّة مما تدعوننا إليه، في آذاننا وقر، وبيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون.

بعبارة أخرى معاصرة أكثر: نحن لا ولن ولا يمكن أن نسمع لك، أصابعنا في آذاننا ومهما ارتفع صوتك لن نسمع، فافعل ما تريد.

الأمر هنا صار مع سبق الإصرار والترصد.

وصلنا لمرحلة لم يعد السير مع القطيع أو اتباع الآباء هو السبب في رفض الإيمان.

بل صار رفضًا واعيًا مدركًا أنه إنما يتعمد عدم السماع.

وتدوِّي الصافرة.

﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣).

***

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٤).

هذا النوع من الأشخاص لا يكتفي أبدًا من الجدل، يسألون الأسئلة لا لغرض الوصول إلى جواب، بل لغرض طرح سؤال آخر، يفعلون ذلك عمدًا،

لماذا نزل القرآن بالعربية؟ مهما كان الجواب فسيكون هناك أسئلة أخرى، وسيقولون الشيء ذاته عن أي لغة أخرى.

لا يريدون الحق ولا الجواب، قلوبهم في أكنَّة، وفي آذانهم وقر.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، مع سبق الإصرار والترصد.

***

في حياتنا قد نلتقي أشخاصًا كهؤلاء، يرفضون الحق وهم يعلمون أنه الحق، مختلفون عن أولئك الذين يتبعون الباطل؛ لأنه خدعهم أو ضلَّلهم أو غسل أدمغتهم أو استغل جهلهم، هؤلاء مضللون، لكن أولئك يعرفون تمامًا ما يفعلونه وهم يفعلونه عن سابق تصميم، عن وعي.

أحيانًا نلتقي بهم.

وأحيانًا نكونهم.

نعم، قد يحدث هذا أحيانًا معنا.

علينا أن نتنبه لصوت صافرة الإنذار.

هناك صاعقة بطريقة ما - بشكل من الأشكال - قد تأتينا في أي وقت.

***

هل يشترط هنا أن تكون الصاعقة هي الصاعقة التي تنتج عن التفريغ الكهربائي من الغيوم؟

الصاعقة التي أُنْذِرَتْ قريش بها كانت مثل هذه الصاعقة؛ لأنها مثل صاعقة عاد وثمود.

لكن على المستوى الفردي الشخصي، ربما صاعقة كل منا مختلفة، ربما تكون في تحجُّر مشاعر نُصَاب به فتصبح قلوبنا ميتة، مجرد مضخة تضخ الدم إلى الجسم، ربما تكون في ثقب أسود من ثقوب الحياة ومتاهاتها، يبتلعنا إلى ما لا نهاية، فننسى أنفسنا فيه، ربما تكون أن نتحوَّل لنصبح كل ما نكرهه ونكره أن نكونه.

وقد تكون الصاعقة هي تلك الصعقة في النهاية جدًّا يوم القيامة؛ نفخة الصعق.

للصاعقة أشكال كثيرة جدًّا.

علينا أن نتجنب ما يمكن أن يقود لها في حياتنا.

***

هؤلاء الأشخاص الذين يتعمدون الوقر في الآذان والقلوب في الأكنَّة يمتلكون غالبًا من يصفق لهم ويؤيدهم، قد يكون متبوعًا من قِبَلهم، وهو سبب أساسي فيما هم فيه.

وقد يكون العكس، قد يكون هؤلاء المصفقين هم التابعون.

سواء كان هذا أو ذاك، يحدث هذا دومًا، تابع أو متبوع، مصفِّق ومصفَّق له، ولعل هذا يزيد من إصرارهم على المضي في العناد، يشعرون أنهم على صواب ما دام هناك من يصفِّق.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (فصلت: ٢٥).

***

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (فصلت ٢٠: ٢١).

كل حواسهم ستتبرأ منهم، هذه الحواس تعرف أنهم كانوا متعمدين في موقفهم، كانت تنقل لهم المعلومات كما هي، لكنهم كانوا يَصُمُّون آذانهم ويغمضون عيونهم عامدين، بالتأكيد ستتبرأ منهم حواسهم وتقف لتكون شاهدة موجِّهَةً أصابع الاتهام لهم.

نستطيع أن نتخيل أن حواسنا ستتنصل عنا بكل سهولة يومًا ما لو حدث شيء مشابه، وستتوجه أصابع الاتهام نحونا آنذاك.

***

تنتهي سورة فُصِّلَتْ بذلك الوعد الذي لا نزال نراه متجددًا حيًّا.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

المسافة بين النفس والآفاق قد تبدو طويلة، لكنها ستكون مليئة بالآيات التي لن نبصرها أو نستشعرها أو نعقلها إلا إذا نزعنا الوقر عن آذاننا، وقلوبنا من الأكنة.

وإذا لم نفعل، فصافرة الإنذار تصبح مدوية: الصاعقة قادمة.

الشورى ٤٢

العسل الذي وصل!

عندما ندخل سورة الشورى، تذهب أذهاننا فورًا إلى كل الحديث السائد عن الشورى سياسيًّا وتاريخيًّا، وكيف أنها سبقت الديمقراطية الغربية إلخ.

لكن لا شيء من هذا كله في سورة الشورى حقًّا.

لا ديمقراطية في سورة الشورى.

ولا يعني هذا موقفًا مضادًّا للديمقراطية على الإطلاق، كما لا يعني أنه موقف مؤيد لها، هذا خلط للأوراق، والديمقراطية آلية مختلفة عن مفهوم الشورى كما تقدمه السورة.

السورة في الحقيقة تهمس في أذنيك شخصيًّا بأمور قد تكون بعيدة عن السياسة، السورة تصالحك مع حقيقة إنسانية قد تكون مزعجة لكثيرين، لكنها ككل حقائق الحياة، يجب أن نتصالح مع وجودها، ونتعامل معها بأنها أمر كان وسيكون ولا جدوى من إنكاره، علينا التعامل مع مخرجات هذه الحقيقة بواقعية.

هذه الحقيقة هي الاختلاف بين البشر.

مهما حاولتَ ومهما كان الحق - من وجهة نظرك - واضحًا صريحًا لا لبس فيه ولا غبش عليه، فإنك ستجد من يختلف معك إلى درجة التضاد التام مع «الحق».

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى: ٨).

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٠).

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۞ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۞ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۞ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى ١٣: ١٦)

الاختلاف حقيقة مؤكدة إذن، بعض الأمور قد يؤدي الخلاف فيها إلى ما لا تُحْمَد عاقبته في الآخرة، لكن دنيويًّا، الاختلاف سيبقى قائمًا.

قد يتبادر إلى الذهن هنا أن مفهوم الشورى الذي تطرحه السورة هو لحل الاختلاف الحاصل، أو للوصول إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف.

على الإطلاق، مفهوم الشورى لا علاقة له بحل هذا الاختلاف.

السورة تشير إلى الاختلاف بالفعل، ولكنها تدخل بعدها إلى شيء آخر.

لكن ما معنى كلمة شورى أصلًا؟ من أين جاءت؟

***

قد نتخيل أن أصل الكلمة في معنى مرتبط بالنقاش والتساؤل، وهو ما يدل عليه المعنى الاصطلاحي، لكن في الحقيقة الأصل لهذه الكلمة يرتبط بمعنى شديد الإلهام والقوة.

الكلمة أصلها من «شار» العسل، اسْتَخْرَجَهُ مِنَ الوَقْبَة واجتَناه، شُرْت الْعَسَلَ واشْتَرْته اجْتَنَيْته وأَخذته مِنْ مَوْضِعه[1].

إذن هو استخراج العسل.

لكن كيف تطوَّر الأمر من استخراج العسل إلى الوصول إلى رأي سديد كما هو معنى الشورى اليوم؟

يبدو الأمر بعيدًا.

على الإطلاق، الأمران قريبان جدًّا، وهذا المعنى الأصلي هو الذي سيوضح لنا المعنى الحقيقي للشورى، المعنى الذي يمكن أن يكون فاعلًا ومؤثرًا حتى في حياتنا الشخصية.

---

(١) لسان العرب، مادة شار

استخراج العسل يحدث من خلية النحل كما هو معروف.

لكن هذا العسل يكون نتيجة لعمل كل أفراد مستعمرة النحل، بكل تقسيماتها وطبقاتها: الملكة، الذكور، العاملات.

إذا كنا نشبِّه العسل المستخرج بالرأي الناتج عن الشورى، فالرأي هنا هو نتاج جماعي لعمل دؤوب، ولا يشبه فكرة البعض عن الشورى بأنها الحل الوسط، أو الحل الذي يرضي جميع الأطراف المختلفة أصلًا.

الرأي الناتج هنا أقرب إلى أن يكون الحل الأمثل الذي يعمل عليه الجميع.

الجميع مَنْ؟

الجميع في مستعمرة النحل وليس في المستعمرة المجاورة، أو في مستعمرة النمل تحت الشجرة هناك.

بعبارة أخرى: هو ناتج يعمل عليه مجموعة من الأشخاص الذين ينتمون لمنظومة واحدة.

منظومة فكرية واحدة أو منظومة وطنية واحدة أو منظومة عمل واحدة، المهم أن لديهم ما يجمعهم على أساسات ومبادئ مشتركة، يمكنهم بعدها العمل للوصول إلى الرأي الأمثل، ناتج عمل الجميع.

الرأي هنا ناتج عن مجموعة منسجمة مع نفسها، لديها مرجعية مشتركة ومبادئ مشتركة وأهداف مشتركة، يأتي الناتج هنا كثمرة لكل هذا.

يمكن لفرقاء من منظومات مختلفة ومرجعيات مختلفة أن يصلوا أيضًا لحل يتوسَّط آراءهم ويقتنع أغلبهم بأنه الحل الأمثل لمشكلة يشترك في مواجهتها الجميع، لكن هذا شيء مختلف عن الشورى، الناتج المستخرَج من مستعمرة النحل التي يؤدي كل فرد فيها دوره حسب منظومة متَّفق عليها.

وهذا هو بالضبط ما تتحدث عنه سورة الشورى عندما تأتي لذكر الشورى.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۞ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى ٣٦: ٣٨).

الحديث هنا عن مجموعة مؤمنة لها مرجعية عقائدية وأخلاقية تربط بين أفراد هذه المجموعة، مؤمنون متوكلون يجتنبون كبائر الإثم ويفضلون المغفرة عند الغضب، وأقاموا الصلاة.

وبعد كل هذا: أمرهم شورى بينهم.

هناك ما هو متَّفَقٌ عليه أصلًا بينهم؛ ولذلك فالرأي الذي يصلون إليه في الشورى هو الرأي الأمثل حسب منظومتهم ومرجعيتهم.

حسب هذا: لا ديمقراطية في الشورى.

وهذا لا يعيب الديمقراطية في شيء، ولا يعني أننا يجب أن نأخذ منها موقفًا مضادًّا أو مؤيدًا أو أي شيء، هي ببساطة شيء آخر، آلية وصل لها

البشر عبر تجاربهم التاريخية وأثبتت نجاعتها في أحوال كثيرة، ولم تقدم الكثير في أحوال أخرى.

سورة الشورى تشير لنا ببساطة إلى أننا عندما نريد أن نسأل النصح، أن نصل إلى حل لمشكلة تواجهنا، علينا أن نبحث عن أشخاص يفهموننا، يتحدثون بلغتنا ويعرفون كيف نفكر؛ لأن هذا سيعني أننا نقف على أرضية واحدة، لن تكون هناك نصيحة قادمة من مرجعية مختلفة لا تفهم أن لكل شيء سياقاته وأسبابه وجذوره، وأنك لا يمكن أن تستورد النصائح كما تستورد الأدوية والمراهم.

لكن ماذا عن الأشخاص الذين لا نشترك معهم في نفس المرجعية؟

نتجاهلهم؟ لا ننظر إليهم؟ نُقَصيهم؟ نلقي بهم في البحر؟

أو نفعل بهم ما هو أكثر من كل هذا؛ لأنهم لا يؤمنون؟

لا، بالتأكيد لا.

هناك أولًا إشارة أرى أنها قد جاءت لتذكيرنا بما هو خارج هذه المنظومة المتفق عليها.

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (الشورى: ٢٣).

المودة في القربى.

عليه الصلاة والسلام، كانت لديه قرابة مع كل بطون قريش بدرجات مختلفة، وقرابة كهذه يمكن أن تكون أساسًا لمودة، لنوع من التعايش بين

الفرقاء المختلفين في أمور كثيرة، لكن القرابة يمكن أن تكون منطلقًا لحل مبني على المودة، حل ودي.

من الذي يمكن أن يُسْتَثْنَى من هذا؟

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٤٢).

الأمر هنا اختلف مع الظلم والبغي، المودة في القربى يتوقف العمل بها.

***

على المستوى الشخصي، قد ينفعنا كثيرًا أن نرى وجهة نظر مختلفة قادمة من زاوية أخرى تمامًا، من أرضية مختلفة.

لكن عليك أن تعي تمامًا أن تعاملك الجاد معها كنصيحة قد يحمل بعضًا من الشك بمرجعيتك الأساسية، أو أنها لم تعد تمدك بالنصح والإرشاد اللَّذَيْن تحتاج لهما.

قد لا يعني هذا وجود مشكلة في مرجعيتك نفسها، بل ربما فيمن حولك، فيمن يستخرج منها النصح والتعليمات.

لا تستعجل البحث عن مرجعية أخرى، بل حاولْ أن تتفحص بنفسك.

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (٥٢: ٥٣).

الزخرف ٤٣

بعض ما يلمع، يقتل

ليس كل ما يلمع ذهبًا.

في الحقيقة إن بعض ما يلمع يمكن أن يكون نصلًا حادًّا لسكين يتربص برقبتك، بينما أنت معجب ومنبهر بلمعانه وبريقه.

بل حتى لو كان هذا الذي يلمع ذهبًا، قد يكون نصلًا مدببًا يريد حتفك.

ليس كل ما يلمع خيرًا بالضرورة، حتى لو كان ذهبًا حقيقيًّا.

تأخذك سورة الزخرف إلى لمعان قد يسلب لُبَّك وقلبك، وهو في حقيقته زيف أجوف، لكنك تسير خلفه كالمنوَّم، بل ربما أصبح السير خلف هذا الزيف المجوف أسلوب حياة يتبعه كثيرون، بل ويعتبرونه هو أسلوب الحياة الأمثل، الأسلوب الأكثر حداثة ومناسبة للعصر الحالي.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ (الزخرف: ٥).

السرف ملازم للانبهار باللامع الأجوف، الدرب إلى الانبهار بالزيف يمر أولًا بالسرف، بهذا الجوع نحو المزيد، بتجاوز ما هو أساسي وضروري نحو الطمع والجشع.

وبعدها تأخذنا السورة إلى علامات فارقة تصف هذا اللمعان المزيف الأجوف.

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (الزخرف ١٦: ١٧).

التفاخر بالولد الذَّكر والحزن على ولادة الأنثى؛ علامة على جعل المعايير مرتبطة بالاقتصاد، بالضبط بالظاهر السطحي من الثروة، فكل ذَكَرٍ كان يُعَد قوةً عاملةً إضافية للعشيرة أو القبيلة بما أنه قادر على حمل السلاح.

أما الأنثى فلم تكن تضيف للقبيلة ثروة حسب تصورهم الضيق.

ولادة الذَّكر في هذا السياق كان مفخرة اقتصادية، مثل التفاخر اليوم بالسيارات الفارهة أو الملابس ذات العلامات التجارية الفاخرة أو الساعات أو غيرها.

هؤلاء تحولهم معاييرهم المغرقة في ماديتها إلى الاستسلام للواقع بكل ما يأتي به دون محاولة لتغييره.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۞ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۞ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٠: ٢٣).

ها هم المترفون يفضِّلون البقاء على إرث الآباء، بالتأكيد، ما دام هذا الإرث يضمن لهم ترفهم والبقاء فيه.

***

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١).

النجاح والشرف والعظمة حسب معاييرهم كانت تتطلب أن ينزل القرآن على رجل من كبار أثرياء قريش أو الطائف، في هذا السياق لم يكن لديهم مشكلة في وجود قرآن يتنزل أو رسول من الله يحمل رسالته، كانت مشكلتهم في أن هذا الرجل الذي تنزَّل عليه القرآن - صلوات الله وسلامه عليه - لم تنطبق عليه شروط العظمة والشرف حسب معاييرهم، لا مال كثير يخصه، ولا ذكور. إذن، كيف يختاره الله لهذه المهمة؟!

معايير التفاخر المادي كانت تعميهم لهذه الدرجة.

هل تعمينا نحن أيضًا لنفس الدرجة؟ أم أقل؟ أم أننا نحاول أن نغضَّ النظر عن ذلك؟

***

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۞ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف ٣٣: ٣٦).

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾.

﴿يَعْشُ﴾ هنا من العشو، العمى، كما في «العشو الليلي».

من يعمَ عن ذكر الرحمن.

لماذا عمي عن ذكر الرحمن؟ ما الذي أعماه؟

لأن بريق الفضة والزخرف وكل الزيف المبهرج الأجوف بلمعانه الأخَّاذ أعماهم عن ذلك، خطف أبصارهم وسلب عقولهم.

وعندما تسير في الطريق وأنت لا ترى، عليك ألَّا تتوقع الكثير.

تحديدًا عليك ألَّا تتوقع أنك تسير في الاتجاه الصحيح.

***

ولا يمكن أن يكون هناك حديث عن هذا الزخرف الكاذب دون أن نرى فرعون، نموذج الأنا العليا في أشد صورها طغيانًا، وهو يستخدم المظاهر والترف كدليل لجعل قومه أشد انصياعًا له.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف ٥١: ٥٤).

فرعون يقول لقومه: عندي كل هذه الأموال والأملاك، لو أن موسى جاء على الأقل بأسورة ذهبية، أو كان معه ملائكة.

منطق لا يكاد يصلح للحديث مع شخص ناضج.

تعامل مع قومه بهذا المنطق الذي يستخف بعقولهم.

لكنه نجح معهم، أطاعوه، لماذا؟ لأنهم أصلًا كانوا فاسقين، قدموا شهواتهم وغرائزهم على عقولهم وجعلوا لها الأولوية.

لذا كان من الطبيعي أن يجدوا ما قاله فرعون مناسبًا.

ولا زال الأمر يحدث كثيرًا مع وسائل إعلام تعامل الجماهير بنفس الطريقة وتسيِّرها إلى حيث تريد، بل حتى على مستوى الأشخاص والأفراد، يحدث كثيرًا أن نجد من يحاول خداعنا بنفس الطريقة، وكثيرًا ما ينجح.

ربما كنا نحن أنفسنا نفعل ذلك أحيانًا دون أن نكون واعين بما نفعل.

***

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١).

لو كان لمنطق الزخرف قوة وصلابة ويمكن أن يؤتي ثماره، لو كانت هذه الزخارف حقيقة لكنت أنا أول من يتبناها ويؤيدها.

لكنها مجرد زخارف، تعمي الأبصار عن حقيقة الأشياء.

***

لو تأملنا في تجاربنا الشخصية التي انتهت نهاية لا نريد تذكرها؛ لوجدنا أن الزخرف كان سببًا أساسيًّا في دخولنا لها، في غفلتنا عن حقائق واضحة أدت إلى ما أدت إليه.

أحيانًا زخرفت لنا الأحلام والأمنيات واقعًا لم ندرسه بما فيه الكفاية، وأحيانًا زخرفت لنا عواطفنا أشخاصًا فجعلتنا نعمى عن صفات واضحة، جعلتنا ننتبه للشكل والعطر والابتسامة والمجاملة، ونغفل عما هو جوهري وأساسي.

وأحياناً تُسْتَخْدَم الزخارف للترويج لأيديولوجيات وأفكار، نبتلع الطعم ونجد أنفسنا في داخل بطن حوت عملاق.

حتى «قال الله، قال الرسول» يمكن أن تُسْتَخْدَم كزخارف للأسف، يمكن أن تكون ضمن كلام منمَّق يهاجم حقائق العلم، أو يدعو للقتل والذبح باسم الدين.

لا يمكن لتجار الشر إلا أن يجدوا زخرفاً ما ليروجوا لتجارتهم.

يستخفون القوم؛ ليطيعوهم.

الدُّخَان ٤٤

دخان بنكهة الوعي

في السماء ثمة دخان من بعيد.

هذا يعني أن هناك نارًا في مكان أبعد.

وأن هذه النار قادمة.

لا دخان بلا نار كما يقولون، والدخان يعني هنا شيئًا واحدًا، لقد ابتدأ الحريق بالفعل، وها هو الدخان يأتي.

ما الذي نفعله هنا؟

الكتاب المبين، الذي تُفْتَتَحُ السورة بالإشارة إليه، هو الذي يدلك على ما يجب أن تفعله، عندما ترى السماء وهي تأتي بالدخان.

لكنه دخان مبين، هذا الدخان.

الدخان عادةً يكون مموهًا، يخفي ما خلفه، عندما يراد أن يصرف أنظار الناس عن شيء معين، يرمي لهم بقنبلة دخانية.

لكنه هنا دخان مبين، دخان يقول لك الحقيقة، ربما يواجهك بنفسك، بحقيقة ما قدَّمت وكنت تتلهى عنه بقنابل دخانية اخترعتها بنفسك.

لكن هذا دخان من نوع آخر.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (الدخان: ١٠).

ستقول لنا السورة شيئًا مبينًا في بدايتها.

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۞ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (الدخان ٧: ٩).

هناك «موقنون»، وهناك من «هم في شك يلعبون».

هناك يقين يجعل أصحابه مستشعرين لوجوده عز وجل، وهناك في الجهة الأخرى: شك.

لكن ليس أي شك، ليس مجرد شك.

بل هو شك لاعب، شك يتسلى به أصحابه لمجرد الشك، مثل لعبة أخرى يقضون بها أوقاتهم.

يمكنك أن تشك بينما أنت في طريق رحلتك لليقين، شك جاد باحث عن الأجوبة، هذا الشك يمكن أن يكون معينًا لك على الطريق.

أما الشك عندما يكون جزءًا من اللعب واللهو والصرعات الفكرية الجديدة، فهو لا يمكن أن يكون إلا مثل قنبلة دخانية تزيدك ضلالًا على الطريق.

ربما هذا الدخان يعتمد على كيفية رؤيتنا له.

يمكن أن يكون معينًا لنا على الطريق، مبينًا لأخطائنا وعيوبنا، إنذار بحريق قادم يمكننا أن نعمل على تحاشيه أو إطفائه.

ويمكنه أن يكون على العكس من ذلك.

***

لا يمكن أن يكون هناك حديث عن الدخان المبين دون أن نمرَّ على فرعون، نموذج مثالي للأنا العليا التي تعمى عن رؤية الدخان القادم بإنذار النار.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ۞ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ۞ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الدخان ٢٣: ٢٨).

الذين آمنوا تعاملوا مع الإنذار كما يجب؛ فنجوا.

لكن فرعون ومَنْ معه تعاملوا مع الدخان بتحدٍّ، باستهزاء، بلعب.

فكانوا مغرقين.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩).

نتخيل دومًا أننا في غاية الأهمية والخطورة وأن الأماكن تشتاق لنا وتبكي لفراقنا.

لكن في الحقيقة لا شيء من هذا يحدث، الحياة تستمر كما لو أننا لم نمر بها أصلًا.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان ٣٨: ٣٩).

صعب أن تتجاوز إشارة النفي عن اللعب هنا، خاصة بعد لعبة الشك التي مررنا بها قبل قليل.

هذا العالم لم يُخْلَقَ لعبًا أو لهوًا أو عبثًا، بل خُلِقَ بالحق، بقوانين وسنن نعلم بعضًا منها ونجهل الكثير منها.

هذا الحق، هذا الخلق بالحق، بالقانون، يتطلب جدية في البحث عنه، حتى لو شككت بكل شيء، ليكن شكك على مستوى هذا الخلق، ليكن شكك جادًّا، لا لعبًا ولهوًا.

وإن قضيتها لعبًا وخوضًا ولا مبالاة، فسيكون لديك لعبة أخرى هناك، لاحقًا في الآخرة.

ما رأيك أن تحاول المشاركة بها؟

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۞ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۞ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان ٤٣: ٤٩).

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ سابقًا وبمعاييرك أنت، ولكن لأنك قضيت وقتك الدنيوي لعبًا ولهوًا وأشحتَ بوجهك عن الدخان الذي كان يتسرب شيئًا فشيئًا إلى كل شيء، فقد وصلت إلى هنا.

ماذا عنا نحن؟

تقول لنا السورة أن نراقب الدخان ونميزه جيدًا.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ (الدخان ٥٩).

سورة الجاثية ٤٥

اللحظات الأخيرة قبل نطق الحكم

جربتَ الانتظار؟

انتظار نتيجة ما، امتحان مثلًا، امتحان مصيري يحدد مستقبلك، أو نتيجة مقابلة عمل يتوقف عليه مسارك المهني، أو نتيجة فحص طبي يقطع الشك باليقين في كون هذا التضخم الذي شككت بوجوده هو سرطان ينهش في أحشائك أو مجرد ورم حميد لا عواقب خطيرة له.

أغلب البشر يتوترون أثناء الانتظار أكثر من توترهم أثناء التحضير له أو أثناء خوضه.

تعبيرهم عن القلق مختلف دومًا، البعض يروح ويجيء في قلق، ويكون معرضًا للانفجار في أي لحظة، البعض يفضِّل الهرب إلى عدم التفكير، النوم مثلًا أو الانشغال بالكثير من العمل، ريثما تظهر النتيجة.

في اللحظات الأخيرة من الانتظار، بينما النتيجة تكاد تُعْلَن، يبلغ التوتر مداه، القلوب عند الحناجر، تكاد تسمع دقاتها كما لو كانت في مكبر صوت.

البعض هنا لا تحمله قدماه من شدة التوتر، يجثو على الأرض، لا هو يستطيع الوقوف قائمًا، ولا يملك ترف الاستلقاء على الأرض في هذه اللحظات.

تلك اللحظات الأخيرة من الترقب والانتظار هي الأصعب الأشد، مصيرك معلّق على ما سيظهر خلال ثوانٍ، وأنت لا تستطيع أن تفعل أي شيء حياله.

إلى هذه اللحظات الصعبة تأخذنا سورة الجاثية في جولة تفقدية، كما لو أنها تأخذنا إلى مكان سنعيش فيه لاحقًا، وعلينا أن نتعرَّف عليه من الآن.

ما الذي سيحدث في هذه اللحظات وقد قُضِيَ الأمر، لا شيء يمكنك أن تفعله لغير النتيجة التي لم تُعْلَنْ بعدُ؟

تقول لنا السورة: إننا غالبًا سنكون في خضمٍّ فلاش باك يأخذنا في رحلة سريعة إلى أكثر ما نخشاه في حياتنا.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (الجاثية: ٩).

ستقول سورة أيضًا للبعض منا أن يتخفَّفوا من حساباتهم مع الآخرين، الأمر لا يستحق في النهاية، وعندما نغفر للآخرين، فإننا قد نستحق المغفرة أيضًا.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الجاثية: ١٤).

ثم تقول لك السورة شيئًا لا تعرف إن كان سيهدئ من روعك في هذه اللحظات أم سيزيد من توترك.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية: ١٥).

تحار هنا، أين ستُصَنَّف أنت؟ مع مَنْ عمل صالحًا أم مع من أساء؟ لحظات وتعرف أين موقعك، ولكنها تبدو كدهر.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨).

هذا سيكون مؤلمًا في الفلاش باك، لو أننا فقط اتبعنا «الشريعة من الأمر»؛ لكان وضعنا أفضل الآن، ما الذي منعنا من ذلك؟

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(الجاثية: ٢٣).

أفرأيتَ؟ كنا نقول: لا، من هذا الذي يتخذ إلهه هواه، لا نعرف شخصًا كهذا، الناس تعبد الله، من الذي يعبد الله؟

الآن نفهم، لقد كنا نرى هذا الشخص دائمًا، ربما رأيناه مرارًا في المرآة، لكننا لم نميزه آنذاك، الآن نفهم.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤).

لا بد أنه إله الهوى الشخصي، إله الفردية، مفهوم الحرية الشخصية وقد وسع من نفسه ونَصَبَ ذاته وثنًا لا يقبل لطاعته شريكًا أو خلافًا في الرأي.

لا بد أنه هو الذي أوصلنا إلى هذه القناعة ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ لأن هذه القناعة هي التي تمنح كل الصلاحيات لإله الهوى الشخصي.

ولكن، فجأة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٧).

ما الذي يحدث؟ لقد متنا، يُفتَرَض أن تلك كانت النهاية، يُفتَرَض أنها حياتنا الدنيا، ومن ثَمَّ نقطة نهاية السطر، ما الذي يحدث الآن؟ هل هذا كابوس يزعج نومتنا الأبدية؟

إنها ساعة الحقيقة.

ساعة؟ يبدو الأمر كدهر، دهر من الحقيقة.

ها نحن في انتظار ما سيحدث، قيل لنا: إن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً ولم نصدق، حدث البعث، إذن سيحدث كل ما قيل لنا.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٨).

ها نحن الآن في هذا الانتظار الصعب المرير.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٩).

كل شيء مسجل. كل شيء مُسْتَنْسَخ.

وضعنا في أذهاننا أن غوغل يحسب حساب خطواتنا، يرصد تحركات بطاقتنا البنكية، يسجل ما نفضله من طعام، ما نشاهده من أفلام، ما نسمعه من موسيقى، يسجل حواراتنا ويتابعها ويدس فيها إعلانات بناءً على ما نتحدث عنه.

وضعنا في أذهاننا رادارات مراقبة السرعة، وكاميرات المراقبة في الشوارع ومداخل البنايات والمصاعد.

ولكن فشلنا في أن نضع في حساباتنا أن ثمة مراقبة أعلى، ثمة استنساخ أدق، ثمة كاميرات في كل مكان، حتى في داخلنا، تسجل كل شيء.

ها نحن ننتظر النتيجة.

نجثو تقريبًا في وضع الركوع، لا نستطيع أن نقف قائمين، ولكن لا نستطيع أن نستلقي أيضًا من التوتر.

الانتظار صعب ومُذِل.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجاثية: ٣٧).

سورة الأحقاف ٤٦

العنوان: الرمال المتحركة

قد تتخيل أن الأرض تحت قدميك صلبة، لا يساورك أدنى شك في ذلك، بل وتبني خططًا ومشاريعَ لا يمكن أن تتحقق لولا صلابة هذه الأرض.

لكنك لا تحاول حتى أن تتأكد من ذلك، صلابة الأرض تحت قدميك هي من مُسَلَّمَاتك.

ثم فجأة دون مقدمات، أو على الأقل دون مقدمات تتبهت لها، تستحيل هذه الأرض الصلبة رمالًا متحركة تبتلعك وأحلامك ومشاريعك مرة واحدة.

هذا ما تأخذنا إليه سورة الأحقاف.

إلى اللحظة التي تكتشف فيها أن الأرض ليست صلبة حقًّا كما كنت تتوهم، وأنك تغوص في رمال متحركة، كلما حاولت أن تخرج منها غُصْتَ فيها أكثر.

***

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٢١).

الأحقاف هي الرمال المعوجة، أو ما يسمى اليوم الكثبان الهلالية؛ لأنها تتخذ في ترتيبها شكل الهلال.

غالبًا كانت مساكن قوم عاد قريبة من هذه الكثبان، وربما كانوا لا يعدُّونها خطرًا عليهم، وربما كانوا يعدُّونها تحميهم؛ إذ إن هذه الكثبان تكون مرتفعة وقد يبلغ ارتفاعها عشرات الأمتار، كما أنها تنشأ بسبب رياح ذات اتجاه واحد؛ مما يجعل مساكن عاد في حماية من الرياح التي تأتي من نفس الاتجاه.

كيف تغير الأمر؟

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأحقاف ٢٤: ٢٥).

الغيوم تتجمع في السماء، ثمة مطر قادم إذن، هذا خير أكيد، سيرتوي الزرع ويزدهر المرعى.

لكن أحيانًا، هذا الذي نأمل ونخطط أن يكون فيه ازدهارنا هو ذاته الذي تأتي نهايتنا منه، ذلك المطر الذي استبشر فيه قوم عاد كان فيه دمارهم وزوالهم، الأرض التي كانت تبدو صلبة تحت أقدامهم غارت وأخذتها معهم.

كيف؟ من التفسيرات المطروحة أن الفراغات بين جزيئات الرمال في بعض أنواع الرمال تكون أكبر بكثير من أنواع أخرى، وأن هذا يجعل المياه التي تتسرب بينها كافية لتحويل كل شيء إلى كتلة تسحب كل ما فوقها.

لم يحدث هذا مع قوم عاد فحسب.

بل حدث دومًا ويحدث دومًا، وسيحدث دومًا أيضًا.

حتى على مستوى الأفراد والتجارب الشخصية.

كثيرًا ما نتأمل خيرًا كثيرًا يأتي من جديد يدخل حياتنا، أو جديدًا نمشي له بكامل إرادتنا، شخص جديد في صداقة أو شراكة أو عاطفة أو عمل جديد أو تجربة فكر جديد، جديد بمعنى أنه ظهر حديثًا، أو جديد بمعنى أنه جديد علينا.

كم أقبلنا على تجارب من هذا النوع ونحن نتحدث عن تغيرنا ١٨٠ درجةً إلى الأفضل طبعًا، ولم ننتبه في خضمِّ احتفالنا بالتغيير إلى أننا قد دخلنا مستنقع رمال متحركة، وأننا نغوص شيئًا فشيئًا فيه، بينما نرفع أصابعنا بإشارة النصر.

﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، ليس قوم عاد وحدهم مَنْ قالوها، بل هذا كان شعار المرحلة لشعوب وأقوام كثيرة، استبشرت بالخير والازدهار القادم تحت قيادة فلان أو بأيديولوجية معينة، ثم انتهت الأمور إلى حيث تسر الأعداء.

حدث هذا كثيرًا ويحدث باستمرار.

***

السورة تحدثنا أولًا عن عدم السقوط في هذا المستنقع بالأساس، ألَّا تبني بيتك وأحلامك ومشاريعك على رمال متحركة، حتى لو بَدَتْ لك هذه الرمال صلبة في البداية.

كيف؟

الإيمان بالطبع، الإيمان كقيم فاعلة ومحركة، الإيمان بالله الخالق واضع القوانين والسنن ومُنْزِل كتب الهداية والإرشاد.

الإيمان على رأس قائمة أسباب الوقاية من السقوط، وعلى رأس قائمة مكونات حبل الإنقاذ الذي يمكن أن يمتد لأيادينا فيما لو حدث وسقطنا.

لكن الإيمان يتضمن أيضًا ما هو أكثر، ما لا نضعه في حسباننا كإيمان.

لكنه في صلبه، وفي صلب موانع السقوط في الرمال المتحركة.

وفي رأس قائمة الإنقاذ.

عن العائلة أتحدث، أو بالأحرى تتحدث سورة الأحقاف.

***

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (الأحقاف ١٥: ١٨).

تقدم السورة نموذجان، الظروف التي مر بها النموذجان واحدة، ويمر أغلبنا بها، نتلقى من والدينا الرعاية، ثم يأتي وقت نقدمه لهما، ليس الأمر دَيْنًا علينا أن نسدده بحرفية، بل نسيج اجتماعي يضمن قوة المجتمع، أمر لا تستطيع قوانين الضمان والرعاية الصحية أن تحققه، ولا بيوت المسنين.

النموذج الأول أدى ما عليه، النموذج الثاني قرر أن يجرب شعارات «أن يكون نفسه»، أن يخرج المارد ربما، إلخ.

لكنه دمَّر حبل النجاة.

***

هل كان قوم عاد أغبياء؟ كيف فات عليهم هذا الأمر؟

هل كان كل من يسير على خُطاهم غبيًّا ليصل إلى تلك النهاية في الرمال المتحركة؟

على العكس.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٦).

كان لديهم كل أدوات التمكين، وكل آليات العقل، ولكن ربما وثقوا فيها أكثر مما يجب، تصوروا أن لا حدود لإمكاناتهم، وكان ذلك نقطة التحول التي جعلت من تمكينهم انتحارًا.

لا يتطلب الأمر قدرة خارقة أحيانًا لكي ترى ما هو شديد الوضوح، تحتاج فقط أن تكون متوازنًا في النظر إلى الأمور، إلى قدراتك وإلى قدرات خالقك وقوانينه وسننه وإرشاداته.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

لا نعرف الكثير عن الجن، غير أنهم مخلوقات في بُعدٍ آخر إن جاز التعبير، القرآن نزل لنا بشكل أساسي، لكنهم بقليل من الاستماع، من النظر من بعيد؛ آمنوا به.

لا تحتاج الكثير لكي تؤمن بما هو واضح وبديهي.

لكنك إن لم تزل غشاوة الأنا عن بصيرتك؛ فإن الكثير من الذكاء والقدرات لن تجعلك تؤمن.

***

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

مهمة إنقاذ الناس من الرمال المتحركة ليست سهلة أبدًا.

تحتاج صبرًا وعزيمة بوجه الرياح والرمال المتحركة، وبوجه مَنْ يصفِّق لكل عارض ممطر، بينما على بصيرته غشاوة.

سورة محمد ٤٧

نسخة أفضل منك!

تصلي عليه عندما ترى اسمه الكريم اسمًا للسورة، يتأهب قلبك لحضوره المنير، تشرئبُّ مشاعرك وأنت تريد أن تمسه أو تعانقه، وقد تصل أحلامك إلى أن تقبِّل يديه أو خده أو رأسه الشريف.

تريد الفردوس الأعلى، فلِمَ لا؟

تدخل السورة وقد جعل اسمها وحده هرمون الحب «الأوكسيتوسين» يُضَخُّ في عروقك كشلال هادر، تكاد تتعثر ارتباكًا وأنت تدخل، كأي محب مرتبك يحمل أشواقه وعواطفه.

تدخل وتدير رأسك بحثًا عنه، نعم، ثمة نور في أرجاء السورة، لكن أين هو صلوات الله وسلامه عليه؟

ستبحث بدقة في السطور، بين السطور.

ستتفاجأ، السورة لا تتحدث عنه، اسمه الشريف يعلوها، لكنها لا تتحدث عنه.

بل هي - يا للمفاجأة! - تتحدث عنك شخصيًّا.

تحاول أن تستوعب الأمر، كنت تريد شيئًا آخر، هل أحبطك ذلك؟

ستفهم بينما تقرأ أن الأمر مقصود، أن تدخل السورة بهذا الترقب، تريد أن تقترب منه عليه الصلاة والسلام، لكن السورة ستدلك على ما هو أهم من ذلك، ستدلك على قرب حقيقي تناله منه، ستدلك على نفسك عندما تقترب من سيرته وشخصه.

ستحدثك السورة عنك شخصيًّا، عنك في أفضل حالاتك، في أفضل نسخة ممكنة منك، أليس هذا ما بُعِثَ عليه الصلاة والسلام من أجله بالأساس؟

***

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾(محمد: ٢).

أصلح بالهم!

ما أجملها من كلمة، أن يكون بالك قد أُصْلِحَ، كان عاطلًا مليئًا بالمتاعب، ثم أُصْلِحَ.

أصلحه الله لهم.

هل صلاح البال هنا كان استرخاءً، فراغًا من المشاكل و«فضاوة» بال كما قد نتخيل للوهلة الأولى؟

أبدًا، تأخذنا الآيات التالية فورًا إلى نوع مختلف تمامًا من «صلاح البال».

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤).

إنها المواجهة، صلاح البال حدث بالمواجهة، عسكرية هنا كما هو واضح، لكن الأمر في جوهره هو المواجهة، ليست عسكرية بالضرورة، بل مواجهة أفكار أحيانًا، مواجهة نفسك في أخطائها، في تقصيرها، في ذنوبها.

صلاح البال يأتي أحيانًا من مواجهات كهذه، ولا يأتي أبدًا إذا هربنا، أنكرنا، تجنبنا مناطق نخاف من مواجهتها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).

الخطوة الأولى هنا تأتي منك، وهل يحتاج الله جل جلاله إلى نصر؟! حاشاه.

لا، أنت من يحتاج - في أفضل نسخة منك - أن تقدم مستحقات النصر، أن تثبت لنفسك أولًا أنك تستحق العون منه عز وجل، أنت مَنْ في حاجة إلى أن تثبت لنفسك ذلك كي يثبِّتَ هو أقدامك.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (محمد: ١٣).

كل الأمور في النهاية تمر، وأنت لست حجرًا في قريتك أو مدينتك أو في مجموعة الأصدقاء حولك، تستطيع أن تغير عنوانك وموقعك لو عجزت

عن تغيير قريتك أو مدينتك أو أصحابك. لست الأول ولن تكون الأخير، الفراق صعب حتمًا، لكن أن تتحول إلى حجر أصعب بكثير.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: ١٧).

كما الأمر مع النصر، الخطوة الأولى منك، تهتدي، تبحث عن الهدى بنفسك، فيزيدك هداية، وييسر لك التقوى أيضًا.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد: ١٩).

حقيقتان أساسيتان لا مفر منهما، مثل البديهيات بالنسبة لمن يريد أن يقترب منه عز وجل، أن يكون في أحسن نُسَخِه.

أنه لا إله إلا هو، بكل معاني ذلك، وأنك كبشر معرض للخطأ؛ لأنه جزء من طبيعتك، فاستغفر لذنبك ولكل من معك.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد: ٢٠).

البعض لا يريد المواجهة، يفضل أن يبقى في منطقة الراحة، مَنْ هؤلاء البعض؟ الذين في قلوبهم مرض، تقول الآية ذلك كما لو كانت تقول لك: هل أنت منهم؟

تبحث في الآيات عن المزيد من العلامات لكي تحدد جوابك، فتجد جوابًا يفتح لك باب الخروج من هذه الخانة لو كنت فيها أصلًا.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

ستخرج من هذه الخانة بأن تزيل الأقفال على قلبك، بأن تتدبر كل ما مر عليك من آيات.

ثم تتابع الآيات وهي تصف أولئك الذين في الطرف القصي من النسخة الأفضل منك، في الطرف الأبعد منه عليه الصلاة والسلام، وأنت تقف عند كل صفة لتتأمل، نعم، لا، ربما!

وتوقفك آية وهي تحذرك من أن تقف في منتصف الطريق، من نصف المواجهات.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٥).

إن كنت في موقع القوة ضمن مواجهتك، فلا تُقْدِمْ على نصف مواجهة، لا تُنْهِهَا بالتنازل إلا إذا كان هدفك أصلًا هو أن تعطي درسًا في القيم والأخلاق وكسب العقول والقلوب، كما فعل عليه الصلاة والسلام في فتح مكة، لكن إن كانت خطتك أصلًا هي أن تمضي في مواجهتك، وكانت الظروف مناسبة لك، فلا تتراجع.

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨).

الله ليس بحاجة لنا، ورسوله أيضًا.

نحن بحاجة لهما، وإن قصَّرنا في شيء فسيكون هناك ناس آخرون ليسوا أمثالنا.

سورة الفتح ٤٨

مفاتيح الأبواب الموصدة

نتخيل دومًا أن الفتح هو لحظة الانتصار الكبيرة، لحظة الفوز.

فتح مكة مثلًا، فتح القسطنطينية، فتح العراق، هكذا.

الفتح دومًا مرتبط في أذهاننا بحدث كبير من هذه الأحداث.

فكيف بالفتح المبين الذي أشارت له السورة في مقدمتها؟

لا بد أنه كان مرتبطًا بانتصار كبير ساحق حاسم.

فتح مكة ربما؟

لا، السورة نزلت قبل فتح مكة بنحو عامين.

ماذا إذن؟ أي انتصار عسكري هذا الذي وصفته السورة بالفتح المبين؟

لا يوجد، السورة تحدثت عن معاهدة صلح، الفتح المبين كان اتفاقية هدنة، معاهدة صلح الحديبية. لا معركة ولا انتصار عسكري ساحق.

ليس هذا فقط، الكثير من المسلمين - ومنهم عمر بن الخطاب - كانوا قد اعتبروا أن شروط الهدنة ليست لصالح المسلمين، وأنها كانت مجحفة في جوانب كثيرة[1].

---

(١) صحيح البخاري ٣١٨٢

لكنه الفتح، بل هو الفتح المبين رغم كل ما سبق.

وربما بسبب ما سبق.

***

يحدث كثيرًا أن نمر في أحداث نعدها أتعس ما ألَمَّ بنا من مصائب وكوارث، نعتبرها هزائم منكرة قضت على أحلامنا وآمالنا.

ثم بعد فترة - تطول أو تَقْصُر - نرى أن هذا الشيء ذاته كان أفضل ما حدث لنا، لا أقصد هنا أن التجربة الناتجة عن هذا الشيء السيئ قد زادتنا قوة وجعلتنا أكثر خبرة، فكان بالتالي أفضل ما حدث لنا.

يحدث هذا في أحيان كثيرة، لكنه ليس المقصود هنا.

المقصود حرفيًّا أن حدثًا ما بَدَا لك في البداية كما لو أنه دون أحلامك وطموحاتك، ثم فهمت بالتدريج أنه كان أفضل من كل ما خططتَّ له وما حلمتَ به.

كان فتحًا مبينًا في الحقيقة، لكنك تصورتَ أنه مجرد هدنة بشروط مهينة.

قد يحدث هذا في ارتباطاتنا الشخصية، نحلم بشخص بمواصفات معينة، لكن أحلامنا لا تُحَقَّق على أرض الواقع، وقبل أن يفوت الوقت، نقبل بمواصفات نعتقد أنها أقل من أحلامنا، نقبل بشخص ليس على قدر طموحتنا، ولكن كحل وسط؛ عصفور في اليد.

ثم نكتشف أن هذا الشخص كان فوق كل أحلامنا الأولى، وأنه كان أفضل لنا بما لا يقاس، وأنه كان فتحًا مبينًا لنا، بينما تصورناه أولًا «هدنة بشروط مجحفة».

يمكن أن يحدث هذا كثيرًا في حياتنا، مع خيارات الدراسة والعمل والارتباط والقضايا المصيرية الأخرى.

البعض يستطيع أن ينظر إلى الوراء ليقيِّم ما حدث، فيكتشف أن ما مرَّ كان مليئًا بإيجابيات لم تَدُرْ في باله يوم ندب حظه على ما حدث.

البعض الآخر سيبقى حبيسَ لحظة الندب، لحظة «لم يكن هذا ما أريده»، لحظة «أستحق أفضل من هذا».

سيبقى حبيسًا في دور الضحية المظلومة، وسيعجز عن رؤية ما حدث بسياقات أوسع.

سورة الفتح تأخذك من يديك لتعلِّمك كيف تخرج من هذه اللحظة، أن تحاول تجنُّب دخولها أصلًا، أو أن تكون مجرد لحظة تمر بها في طريقك إلى النضج.

كيف تدلك السورة على هذا؟

السكينة هي طريق ذلك أولًا.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: ٤).

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الفتح: ٢٦).

سورة الفتح هي أكثر سورة وردت فيها مفردات «السكينة».

ولا يمكن أن يكون هذا صدفة.

السكينة هي مفتاح الفتح الأول، السكينة التي هي الطمأنينة والاستقرار.

أن تترك الجزع والعواطف المضطربة في رؤية وتفسير ما يمر بك من أحداث، هو أول خطوة في إمكانية فهم إمكانات الفتح فيها، في رؤية ما لا يمكن رؤيته في جزع اللحظة الأولى.

بعد السكينة، سيكون هناك عقد بيع عليك أن تذهب لتوقيعه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:١٠).

عقد البيع هذا هو البَيْعَة، عهد تقطعه على نفسك مع نفسك أمام الله، ليس لديك فرصة أن تضع يدك على يديه الشريفتين، لكن هناك فرصة أن تعاهد قيمه ورسالته، هذا لا يقل أهمية عن وضع يدك تحت يديه الشريفتين، ما دمت صادقًا في ذلك.

هنا بعد السكينة، عندما تعاهد قيمه، يكون ذلك عهدًا على مواصلة الطريق، على رفض اليأس، على محاولة رؤية ما هو إيجابي.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

لا يمكن أن نبايعه عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة، جئنا في زمان آخر.

لكن يمكننا دومًا أن نستظل بشجرة تعليماته وقيمه، وأن نقف تحتها لنبايعه مجددًا.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٧).

كانت الرؤيا هي دخول مكة كهدف نهائي، لكن دون ذلك كانت موانع عديدة، ليست العسكرية أهمها، بل كانت هناك عوامل أكثر أهمية تُغَلِّقُ أمام المسلمين تحقيق هذا الهدف النهائي؛ جاهزية المسلمين أنفسهم، وضع قبائل العرب وتحالفاتها ورؤيتها للمسلمين واستعدادها أو عدم استعدادها للتخلي عن قريش.

كانت هناك أبواب موصدة كثيرة.

وكانت هذه الهدنة هي الفتح.

فتح الأبواب الموصدة، الفتح الذي جعل الطريق إلى الهدف لاحقًا يكون أكثر تمهيدًا.

ما بَدَا لبعض المسلمين أنه مجحف كان في الحقيقة نارًا هادئة تُنْضِج الظروف بل تُنْضِجهم هم أكثر؛ ليكونوا أكثر قابلية على تحقيق أهدافهم وفوزهم.

كل تأجيل أو تأخير تمر به - مهما أزعجك - يمكن أن يحتوي على مفاتيح ثمينة تحملها في رحلتك، تفتح به ما يوصد أمامك.

من هذه المفاتيح: خبرتك الشخصية، قدرتك على التحمل، إعادة الحسابات والتقييم، تواضعك أمام الظروف التي لا تستطيع تغييرها ووضعها في حساباتك.

كل صاحب تجربة يعرف جيدًا كم هي مهمة هذه المفاتيح في تحقيق الأهداف.

كل صاحب تجربة يعرف أن تأخيرًا أو تأجيلًا كهذا، يمكن أن يكون هو الفتح الحقيقي الذي مهَّد للنجاح لاحقًا.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩).

تختتم سورة الفتح بهذه الصورة لمحمد والذين معه، صورة الزرع الذي بلغ أعلى صور نضوجه وزيادته، تذكّرنا الصورة هنا بأن كل ذلك بدأ ببذور صغيرة، ومر ربما بظروف صعبة، واحتاج إلى وقت طويل وصبر لكي ينمو ويشتد إلى أن يصل إلى زهوته قبل الحصاد.

الفتح لم يكن لحظة الحصاد.

بل في المرور بكل مرحلة في وقتها المناسب، وفي عدم استعجال أي شيء للوصول إلى الهدف قبل أوانه.

سورة الحجرات ٤٩

في حجرة مجاورة

تبدو سورة الحجرات كما لو أنها ضمَّت أهم قواعد السلوك والتعامل بين البشر في مجتمع إنساني، من أبسط هذه القواعد: خفض الصوت أثناء الحديث، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢).

إلى فضِّ النزاعات بين أفراد المجتمع، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩).

مرورًا بعدم تصديق كل ما يقال، وعدم تكذيب كل ما يقال أيضًا فقط لأن مَن قاله كان فاسقًا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

السورة أيضًا توصي بعدم السخرية، عدم التنابز بالألقاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١).

السورة توصي أيضًا بتجنب الكثير من الظن، وليس تجنبه نهائيًا فهذا أمر مستحيل ما دام هناك عقل في حالة عمل، النهي عن التجسس، وعن الغيبة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

بعد هذا القواعد الناظمة للتعامل اليومي بين أفراد المجتمع الواحد تقول السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

كما لو أن السورة تقول لنا – بعد أن أسَّست لقواعد تعاملنا مع بعضنا -: إن التعامل نفسه يجب أن يكون مع باقي المجتمعات، وإننا لن نتمكن من تحقيق تعامل متوازن مع الخارج إلا إن كان تعاملنا في الداخل منضبطًا.

إنها تقول لنا أيضًا: إننا في النهاية واحد، نختلف قليلًا ونتشابه كثيرًا، ولكننا متشابهون، إذا كنا نعيب على فلان أو نغتاب علانًا فنحن في الوقت نفسه لدينا عيوب يمكن أن يؤشَّرَ عليها وأمور يمكن أن نُغْتَابَ عليها.

كلنا نسكن في حجرات متجاورة، كلنا جيران في نهاية الأمر، متشابهون في عيوبنا وميزاتنا مهما حاولنا تجاهل ذلك، وكلما تعارفنا على بعضنا؛ تعرَّفنا على أنفسنا أكثر، واكتشفنا تشابهنا وتقاربنا أكثر وأكثر.

ميزان واحد هو الذي يمكن أن يقيِّم فروقاتنا واختلافاتنا: التقوى.

***

ثمة شيء آخر توحي به سورة الحجرات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ٤، ٥).

ستأخذك الآيات إلى مكان تكون فيه قريبًا منه عليه الصلاة والسلام، كما لو أنه في الحجرة المجاورة أو في حجرة قريبة ننتظره فيها.

نعم، هو قريب جدًّا.

كل ما علينا أن نفعله هو أن نصبر.

وسنراه يخرج إلينا، وسيكون خيرًا لنا.

سورة ق ٥٠

ذاكرة المستقبل

ثمة صنف سينمائي حديث يقوم على نوع من التفاعل بين المشاهد والمادة التي يراها، يسمى هذا الصنف بالمتفاعل، حيث يختار المشاهد خيارًا من ضمن عدة خيارات مفصلية لما سيحدث من أحداث، وتسير كل الأحداث لاحقًا بناءً على خيار المشاهد، الذي قد يختلف تمامًا عن خيار مشاهد آخر، وبالتالي فإن للفيلم مجموعة نهايات مختلفة بعدد الخيارات المطروحة أصلًا.

هذا النوع من التفاعل يمكن أن يكون أكثر وضوحًا في ألعاب الفيديو التي يختار فيها اللاعب الكثير من الخيارات بنفسه.

وبالتالي يحدد مصيره بنفسه.

***

ما علاقة هذا كله بسورة ق؟

سورة ق - دون تشبيه - تفعل بنا شيئًا مقاربًا.

تضعنا فورًا في لقطة النهاية، وتضع أمامنا خيارين، تختار واحدًا منهما.

ثم تقودنا إلى «الفلاش باك» الذي يوصل إلى الخيار الذي اخترته.

اخترت؟

إذن تعود إلى خط سير أحداث محدد في ماضيك، تسير عليه بما يتناسب مع خيارك.

تفشل في ذلك؟

تعود إلى الخيار مجددًا، هل أنت متأكد من صحة خيارك؟ «الفلاش باك» الخاص بك يوحي بخيار آخر.

هل أنت واثق أنك تريد أن تكرر الخيار؟ أم أنك هذه المرة ستغير ذكرياتك، ستغير حياتك الحالية، ما سيكون لاحقًا «الفلاش باك»؟

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦).

هذا القرب يمكنك أن تتعامل معه بعدة مستويات، أن تشعر بأمان القرب منه عز وجل، أن تشعر بحميمية ذكره وقربه.

لكن هل سيكون الأمر كذلك لو أنك كنت بعيدًا عنه تمامًا في حياتك، في الطرف الأبعد، أو على الأقل كنت تعتبر نفسك هكذا؟!

هنا سيكون للقرب من حبل الوريد وقع مختلف تمامًا.

سيكون مرعبًا.

سيكون ذِكْرُ حبل الوريد هنا مثل فكرة حبل يلتف حول أوردة عنقك.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۞ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۞ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق ٢٠ : ٢١).

بدأت المشاهد تتوالى إذن، ها أنت تشاهد نفسك وأنت تصارع الموت، رأيت اللقطة ربما مع أحباب لك ورأيتها على الشاشات، هذه المرة أنت الحبيب المفارق، أو أنت البطل الذي يموت على الشاشة، ثم تموت، لم تنطفئ الأضواء كما توقعت، بل حدث شيء آخر تمامًا.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢).

﴿كُنتَ فِي غَفْلَةٍ﴾.

وجاءت سورة ق لتحققنك في وريدك بحقنة وعي: بصرك اليوم حديد، وها أنت تبصر نفسك في لقطة من المستقبل.

تبصر نفسك أمام خيارين:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق: ٣٠).

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۞ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق: ٣٥).

بين مزيدين مختلفين تمامًا، تقف أنت لتقرر.

الخيار الصحيح سيكون لمن؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

سورة الذاريات ٥١

أدوار في حياتك

نحب دور البطولة، وقد نحلم به، ونخطط لطموحاتنا على مقاسه وحسب مواصفاته.

وبغضِّ النظر عن فشلنا أو نجاحنا في تحقيق هذا الدور، فإن تصورنا أن دور البطولة هو الدور الأفضل والأهم فيه مشكلة كبيرة.

البطل مهم فقط في سياقه، ضمن أدوار أخرى تمكِّنه من إبراز بطولته، لو حُذِفَتْ أدوار الآخرين؛ لما أصبح بطلًا.

سورة الذاريات تأخذنا إلى هذه الحقيقة الأساسية التي يتعثر كثيرون منا قبل أن يتقبلوها، حقيقة أن الأدوار يجب أن تُوَزَّع، وأن كل المشاريع الكبيرة التي تخدم الناس وتعمر الأرض لا يمكن أن تحدث إلا بوجود توزيع للأدوار على نحو يجعل الكل شركاء في نجاح المشروع، لا بطل واحد، ولا قائد أوحد.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ (الذاريات ١: ٤).

كل المشاريع - حتى الشخصية منها - تبدأ ببذرة، بفكرة بسيطة، والبذرة مهمة حتمًا، لكنها في النهاية مرحلة أولى مبكرة، وصاحب الفكرة

- البذرة - ليس هو بالضرورة من يقوم بكل المراحل الأخرى، قد يكون تميزه في الفكرة فقط، ولن يكون بذات التميز في المراحل الأخرى.

تحتاج البذرة إلى من يحملها، من يحميها، يوفر لها الظروف المناسبة لكي تنمو وتكبر ويشتد عودها، مرحلة «الحاملات وقرًا» التي تُفَسَّر عادةً بأنها السحب التي تحمل المطر، يمكن أن تتضمن توفير الدعم المادي واللوجستي والبشري والمعرفي، وكل ما تحتاجه البذرة وهي تغادر كونها بذرة إلى أن تكون نبتة تشق الأرض وتتطلع إلى السماء.

لكن هذا المشروع لا يمكن أن ينجح دون منفذين، مرحلة «الجاريات يسرًا» والتي تُفَسَّر عادةً بأنها السفن التي تحمل الثمار، هي مرحلة المنفذين الذين قد يكونون في أحيان كثيرة جنودًا مجهولين يعتقدون أن أدوارهم عادية يمكن أن يؤديها أشخاص عاديون، لكن هذا الشخص العادي في حقيقته جزء لا يمكن الاستغناء عنه في نجاح هذا المشروع، نعيش موجة تنتقص من السيد عادي والسيدة عادية، وتطلب من الجميع أن يكونوا قادة ورياديين وعمالقة ومردة، لكن هذا عدا عن كونه غير منطقي فإنه مضر؛ لأن الشخص العادي لا يقل أهمية في دوره عن القائد والريادي حتى لو لم يكن يخطف الأضواء مثلهما، مضر لأن اختفاء الشخص العادي - على فرض إمكانية حدوث ذلك - سيصيب المشروع في مقتل.

توزيع الأدوار وتقسيمها هو من صلب وظيفة هذا القيادي الذي يحتاجه المشروع، وهذه هي مرحلة «المقسمات أمرًا»، مرحلة القيادة التي تجمع أجزاء المشروع وتمسك بدفته نحو الهدف.

أربع مراحل إذن، تحدَّثنا عنها سورة الذاريات لأجل تحويل أهدافنا وأحلامنا إلى «أمر واقع».

بهذه الطريقة يمكننا أن نرى كل القصص التي أوردتها السورة: (إبراهيم وملائكة البشرى له، والعذاب لقوم لوط، قصة موسى وفرعون، قصة نوح وقومه، وعاد وقومه) كلها من خلال منظار توزيع الأدوار، ربما لا نعرف كيف حدث التوزيع، لكن في كل هذه القصص كانت هناك (ذاريات، حاملات، جاريات، مقسّمات)، القيادة كانت دومًا للأنبياء في هذه القصص، لكن البذرة لم تأت منهم، بل استلموها من رب العالمين، وهناك كان مَنْ قدَّم لها الحماية والدعم، وكان هناك مَنْ حملها ونفَّذ تعليماتها.

كل قصص المشاريع الناجحة - حتى الدنيوية منها - تحمل هذه الملامح الأساسية الأربعة.

وقصص الفشل تضم الخلل في واحدة من هذه الملامح على الأقل[1].

***

وليس صدفة أبدًا أن تكون هذه السورة تحديدًا هي التي جاءت فيها آية مفتاحية توضح الهدف من خلقنا.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ما علاقة هذا بالذاريات ذروًا والحاملات وقرًا والجاريات يسرًا والمقسِّمات أمرًا؟

(١) للمزيد عن سورة الذاريات كتاب سيرة خليفة قادم للمؤلف.

السورة تشير لنا أن الهدف من خلقنا أوسع بكثير من أن يُخْتَصَرَ بقالب واحد أو دور واحد كما يتوهم كثيرون.

العبادة هنا ليست مقتصرة على المعنى الشعائري، المعنى الشعائري محسوم ضمن مفهوم الإيمان نفسه، أما العبادة - هدف الخلق وامتحانهم - فهي أفق واسع متدرج، تتضمن كل مشاريع الإعمار والعدل والتوازن القائمة على القيم التي أنزلها الله في كتبه، ولا يُشْتَرَطُ فيها أن تكون البطل الخارق الفاتح، أو القائد الفذ الأوحد، أو صاحب الفكرة البذرة العبقرية.

يمكنك أن تكون أيًّا من هؤلاء، أو أن تكون واحدًا من المنفذين، الجنود المجهولين الذين لولاهم لما كان هناك أي مشروع من الأساس.

يمكنك أن تجد دورًا لك في أي مكان في مشروع كهذا.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات ٢٠: ٢٢).

سورة الطور ٥٢

أسئلة الامتحان مسربة

ثمة جبل وكتاب.

وسقف شاهق وبيت عامر.

وهناك أيضًا بحر مترامي الأطراف غامض ومهيب ككل البحار.

وهناك أنت، بين كل هذا.

لا تعرف ما تفعل.

***

كما لو أنك رأيت كل هذا في منام، واستيقظت حائرًا مشوشًا، ما كل هذا؟!

وتأخذ سورة الطور بيدك لتفسر لك هذا المنام الذي يمكن أن يكون قصة حياتك.

***

أما الجبل فهو جبل الطور، الجبل الذي استلم فيه شريعته.

الجبل هنا رمز للشريعة، يمكن للشريعة أن تجعلك مثل الجبل في قوته وصموده وعلوه.

وفي كل ما يمكن أن يكون فيه من كنوز.

أما الكتاب فهو كتابك، الكتاب الذي يروي سيرتك الذاتية، بعبارة أخرى: كتاب أعمالك.

كم يختلف هذا الكتاب عن الشريعة «الجبل»؟ كم اقتديت بها في حياتك؟ وكم خالفتها؟ هذا سؤال أنت تعرف جوابه دون سواك.

والسقف المرفوع هي هذه السماء التي تبدو لك بلا حدود، هل ترى كم هي بعيدة؟ يمكن لهذه السماء أن تكون سقف طموحاتك وحدود إمكاناتك، يمكنك أن تنطلق دون كوابح.

لكن لا تنس أبدًا، مهما ارتفعت، هذا «البيت المعمور»، هذا البيت الذي يجب أن تساهم في جعله «عامرًا معمورًا» دومًا، البيت هو المعيار الحقيقي الذي يُمْتَحن فيه ارتفاعك بلا حدود ولا سقف، مهما ارتفعت إذا لم ينعكس هذا الارتفاع في زيادة متانة وصلابة البيت، الأسرة، فإن هذا الارتفاع كان مجرد صعود إلى هاوية.

كمن تسلق الجبل الشاهق ليلقي بنفسه من قمته.

وكذلك يفعل الكثيرون مع جبل الشريعة بطريقة أو بأخرى.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (الطور: ٦)؟

البحر هو هذه الحياة التي نعيش فيها جميعًا، تحاصرنا جميعًا كما يحاصر المحيط جزيرة منفردة، والحياة كما البحر، إن خُضتَّ فيها دون معرفة بالسباحة، غرقتَ فيها وأغرقتك.

وإن تدربتَ جيدًا قبل المضي فيه، يمكن أن تكتشف فيه الكنوز والثروات.

***

كان هذا هو تأويل منامك، يمكن أن تجد فيه قصة حياتك كلها لو دققتَ، بالأحرى يمكن أن تجد فيه ما يختزل أهم ما في حياتك، ما يحدد مصيرك بعدها.

عندما تُقْبِل على حياتك وأنت تحمل هذه المعاني في وعيك (وفي لا وعيك) فأنت تعلم جيدًا طريق حياتك، حتى لو تُهْتَ قليلًا وتعثرت، أنت تعرف الطريق بطريقة ما، ربما دون تفاصيل.

أما الذين لا يعرفون هذه المعاني، فحياتهم قد تكون بلا جبل، أو قد تكون على كومة من الرمال يظنونها جبلًا، وكتابهم يُكْتَب كما اتفق، والسقف كلما ارتفع ضعفت أساسات البيت، والبحر مغامرة غير مأمونة العواقب، ورحلة الحياة قد تكون مثل رحلة روبنسون كروزو.

وعندما تحين لحظة الحقيقة، لن يفهموا ما سيحدث، لن يتمكنوا من فهم هذا المشهد الذي وجدوا أنفسهم فيه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (الطور: ٢٥).

أما أنت.

فقد نِلْتَ فرصة أن تطَّلع على أهم الأسئلة قبل دخولك الامتحان.

سورة النجم ٥٣
في أعالي التجربة

تأخذك سورة النجم على ظهر نجم، ليس وهو يهوي، بل وهو يرتقي.

تأخذك في رحلة تقربك من الرسول عليه الصلاة والسلام، في واحدة من أهم وأعلى لحظات ارتقائه وقربه من الوحي المنزل عليه.

هذا القرب منه وهو في هذه الحالة، يكاد يشبه رحلة إلى النجوم البعيدة في مجرات قصيَّة، وهي رحلة - في الوقت نفسه - داخل نفسه الكريمة بينما هو يتفاعل مع الوحي الشريف.

بين هذا النجم وتلك التجربة الفريدة، تأخذك السورة وأنت تلتقط أنفاسك بصعوبة، ربما كان أقصى أمنياتك أن تقترب منه في أحواله العادية.

لكن السورة تأخذك إليه وهو في رحلة المعراج، تجعلك تتمسك به بينما العالم كله يهوي أمام عينيك، وأنت ترتقي معه أفقًا بعد أفق، إلى الأفق الأعلى.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۞ مَا كَذَبَ

الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۞ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (النجم ٥: ١٦).

وأنت في خضمِّ الرحلة، لا تكاد تميز إن كان الحديث هنا عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أم عن ملاك الوحي جبريل؟ مَنِ الذي دنا فتدلَّى؟ مَنِ الذي كان قاب قوسين أو أدنى؟ النور المتسرب من الآيات يكاد يعميك عن بعض تفاصيل الأجوبة، لا يستطيع بصرك أن يركز على كل شيء هنا، لكن يكفي شلال النور المنبعث هنا لكي تعرف أنه ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم: ١٧)، وتعرف أيضًا أن أي حديث عن إله آخر من تلك الأصنام المقدسة، أو من مفاهيم مادية تقول: «لا إله» وتُعَامَل كما لو أنها آلهة في هيكل العلموية المزعوم، أي حديث آخر لا يمكن أن ينبثق منه شلال نور مماثل، قلبك يعرف هذا تمامًا، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ (النجم ١٩: ٢٠).

كم تبدو كل تلك الأوثان، وكل النسخ المعاصرة منها، هزيلة وتافهة أمام تجربة قرب نبصرها بقلوبنا! كم يبدو كل ما يمكن أن يُرَى بالعين تافهًا ولا معنى له أمام ما لا يُدْرَك بالبصر ولكن يُسْتَشْعَرُ بالقلب! بشيء لا يمكنك تفسيره وفهمه تمامًا، ولكن لا يمكنك أن تجادله أيضًا.

بينما تكاد الرحلة تنتهي، وبعدما استهلكك هذا النور وأمدك بطاقة الحياة في الوقت نفسه، تهمس سورة النجم بحقائق أساسية عليك أن تحملها في رحلتك في الحياة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۞ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم ٣١: ٣٢).

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۞ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ۞ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۞ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۞ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۞ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ۞ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (النجم ٣٨: ٥٠).

هنا نحن أمام رؤية شاملة تبدأ منك كفرد، فرد واحد سيتحمل مسؤوليته وسعيه وسيجازى على أفعاله شخصيًّا دون أن يتحمل عبء أفعال الآخرين، لا تزر وازرة وزر أخرى، عليك بنفسك أولًا، هذا هو الدرس الأول الذي يمكن فهم كل الدروس الأخرى من خلاله، لن تحمل أثقال غيرك، ولن يحمل غيرك أثقالك، والذي سيحاسبك يعرف تمامًا كيف يفصل بين أثقالك وأثقال سواك.

ولن ينفي هذا وجود جزء من الثقل ومن المسؤولية التي عليك أن تحملها تجاه مجتمعك أو محيطك، لذلك فـ «لا تزر وازرة وزر أخرى» تلتحم بـ «أنه أهلك عادًا الأولى»، الأمور في النهاية تتداخل وأنت وأوزارك لن تعيش في أنبوبة مفرغة من الهواء، سيكون هناك تأثيرات من المحيط وعليك بالمقابل أن تؤثر فيه، لكن هذا لا ينفي أن الدرس الأول الذي تُدْخِله سورة

النجم فيك بعد أن جعلتك تكون قريبًا منه في تجربة المعراج الهائلة وبعد أن سلبت منك كل آليات مقاومتك وقابليات جدالك؛ هو درس مسؤوليتك الشخصية وتحمُّلك لها في الحساب الأخروي، درس أن سعيكم سوف يُرَى وسيكون له جزاء، وهو الدرس الذي سيكون حجر الأساس في كل الشريعة.

هذا الدرس - لو تأملته - ستجده بديهيًّا منطقيًّا، يرتبط بكل النظام الذي بُنِيَ عليه الكون.

ومنطقية هذا الدرس ستجعلك تسجد له.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۞ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ۞ فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا﴾ (النجم ٥٩: ٦٢).

سورة القمر ٥٤

بديهيات واضحة كالشمس ..والقمر

بعض البشر يتخذون من الإنكار أسلوب حياة.

إنكار كل ما لا يوافق أهواءهم، كل ما يمكن أن يشكِّلَ تهديدًا لمعتقداتهم ونمط حياتهم، لكل ما هو مألوف ومستقر بالنسبة لهم.

حتى لو كانت هناك حقائق صارخة تقول: إن كل شيء في طريقه إلى الزوال، سيشيحون بوجوههم ويؤكدون أن كل هذه محض أكاذيب، الوضع تحت السيطرة.

ممكن أن يكون الأمر في أي شيء، أن تكون كل الدلائل تشير إلى وجود مشكلة في أحد أولادك، أو في علاقة شخصية تستنزفك، ولكنك مصمِّمٌ على أن تخترع تفسيرات وتبريرات تجعل هذه الدلائل لا قيمة لها، هذه أمور تحدث مع الجميع، مجرد مرحلة، وستمر بالتأكيد.

ممكن أن يكون الأمر في ورم بدأ يظهر بروزه في جسدك، لكنك لا تريد أن تواجه كل الاحتمالات التي يمكن أن تنتج من الذهاب إلى طبيب لإجراء الفحوصات؛ لذا تقول لنفسك: إن هذا البروز كان موجودًا دائمًا، وإنه يظهر ويختفي من تلقاء نفسه منذ سنوات، كل شيء طبيعي وتحت السيطرة.

ويمكن أن يكون الأمر في حدث يندلع من تحت رماد ما تسميه استقرارًا في بلدك، وهنا يكون كل شيء مؤامرة كونية تستخدم كل شيء مستهدفةً استقرار بلدك.

من العلاقات العائلية إلى السياسة الدولية، مرورًا بالصحة الشخصية، يمكن أن يواجه بعض الناس الحقائق الواضحة بالإنكار، وبالمزيد من الإنكار.

يكذبون؟ الكذب جزء من الموضوع لكنه لا يكفي لتفسير ما يحدث، ربما يبدؤون بالكذب، لكن بالتدريج يصدِّقون أنفسهم، يتركون لأدمغتهم ممارسة حيلًا نفسية عديدة لإشعارهم بالأمان، ومن ضمنها حيلة «الإنكار».

الإنكار يمكن أن يجعل الناس يتجاهلون حقائق واضحة كالشمس.

أو كالقمر، حتى لو انشقَّ أمامهم.

***

أغلبنا تعرَّف في حياته على هذا النوع من البشر، وهم يمارسون هذا النوع من الإنكار (ربما نكون منهم أحيانًا).

نعرف أنهم لو شاهدوا بأم أعينهم ما يخالف أهواءهم؛ لقالوا: لم يحدث، لم نر شيئًا.

ترغب أن تمسك برؤوسهم وتديرها نحو الحدث، تفتح أعينهم على اتساعها وتقول لهم: انظروا مجددًا.

سيقولون لك أي شيء: خداع بصر، سحر، تمثيلية، مؤامرة، فوتوشوب، أي شيء يساعدهم على تبرير الإنكار.

حتى لو قيل لهم: إن يوم القيامة سيحدث غدًا، وهذه علاماته بالترتيب، وبدأت العلامات بالتحقق، وانشقَّ القمر بكل عواقب ذلك على الأرض من فيضانات وزلازل، سيصرون على أن لا علاقة لهذا الأمر بيوم القيامة، الأمر مجرد صدفة، ظاهرة جيولوجية لا علاقة لها بيوم القيامة وما تقولون.

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۞ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۞ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۞ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ (القمر ٢: ٦).

لخص مطلع السورة ما يحدث مع هؤلاء، مهما سيرون من أدلة وبراهين قاطعة، فسيجدون ما يفسرها على نحو مختلف، مهما رأوا من أحداث سبق تحذيرهم منها، فهم سيتجاهلون الدلائل، ويمضون في إنكارهم، إلى أن يأتي يوم يأتي فيه هذا الذي أنكروه ليكون شيئًا يواجههم وجهًا لوجه.

في كل السورة سنرى هذا الشي، إنذار، تكذيب وإنكار، تذكير بالإنذار.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر ١٦: ١٧).

يتكرر الأمر مع قوم نوح وعاد وثمود ولوط وآل فرعون، الأحداث ليست متشابهة في تفاصيلها، فلكل منهم «نُذُره» الخاصة به، وعذابه المختلف عن عذاب الآخرين، ولكن المتشابه فيها هو في الداخل، في آلية الإنكار التي وحَّدت بين كل هذه الأقوام.

ثم تأتيك آية كما لو كانت تختبرك.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر ٤٤: ٤٥).

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

ما أجمل هذا! ما أروعه! أن ترى هذه النهاية السعيدة في حياتك الدنيا.

أين الاختبار في هذا؟

الامتحان هو في أن تتعامل مع الآية في سياقها، لا أن تتخذها كما لو كانت وعدًا إلهيًّا قاطعًا يمنح أعداءك الهزيمة في الدنيا بشكل حاسم.

لا، الآية لم تقل ذلك، بل تحدثت عما يمكن فهمه أنه يخص «كفار مكة» تحديدًا، وربما يخص غيرهم وربما لا، هذا ممكن، لكن أن تتخذها كما لو كانت آية عامة تخص كل من يقف على المعسكر الآخر فأنت ببساطة تستعملها في غير موضعها.

ليس هذا فقط.

بل ربما كنت تستعملها لتساعدك في حالة إنكار خاصة بك.

ربما كان الواقع كله يشير إلى أن الهزيمة الدنيوية بعيدة عن معسكرهم، بل ربما هي أقرب إليك.

لكنك ستنكر الواقع ودلالاته ونُذُره، وتقول: بل وعدنا الله بغير ذلك، ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ لا بد أن يحدث ذلك.

هنا تكون قد فشلت في الاختبار، سقطتَّ في فخ إنكار الحقائق والنُّذُر الذي حذرتْكَ منه السورة مرارًا وتكرارًا.

***

العبرة كلها في صدقك، في التعامل مع كل شيء، مع الواقع المحيط ومع نفسك ومع آيات الله في كتابه أيضًا.

الصدق.

لذلك ليس غريبًا أن تنتهي السورة بالصدق.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٥).

سورة الرحمن ٥٥

علاج نفسي يحتاجه حتى الأصحاء

هذه السورة جلسة علاج نفسي إلزامي يحتاجه الأصحاء نفسيًّا قبل المرضى.

هذا في حالة وجود مَنْ هو صحيح نفسيًّا على نحو كامل بينما هو يتفاعل مع هذه الحياة المليئة بكل المرضات على صعيد النفس والجسد.

كلنا مرضى بطريقة أو بأخرى، بنسبة ما على الأقل، فينا يتعلق بهذا الجزء منا، النفس.

كلنا؟ فلنقُلْ: أغلبنا لكي نخرج من تهمة التعميم.

أغلبنا بالتأكيد، بنسب مختلفة ومتفاوتة.

لذلك فأغلبنا نحتاج إلى جلسة علاج نفسي تقدمها سورة الرحمن.

حتى لو كنت صحيحًا «نفسيًّا» مائة بالمائة فيمكنك أن تأخذ الجلسة مثل مصل مناعة، (على فرض وجود شخص كهذا، علمًا أن من يعتقد أنه صحيح نفسيًّا إلى هذه الدرجة يحتاج إلى جلسة علاج أكثر من سواه).

كلنا بحاجة لهذه الجلسة، نسلِّم رؤوسنا المشوشة المنهكة إلى سورة الرحمن، ونتركها تتسلل، تنظِّم، تشذِّب، تواجِه، تعالِج.

إنها سورة الرحمن.

***

ثمة شيء في هذه السورة، بل أشياء تشدك لتسمع وتهدأ.

هذه النهاية الصوتية المتشابهة في أغلب آيات السورة القصيرة (آن - ام) تجعل عقل المتلقي يدخل في حالة هدوء، هنا السورة لا تأخذك في رحلة تخطف أنفاسك، بل تقول لك: هوِّن على نفسك، وتطبطب على كتفك، بل وستشعر بكلماتها تحتويك كما لو كانت تحتضنك.

***

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن ١: ٤).

مجرد ذكر اسمه الرحمن وارتباط أغلب نهايات الآيات بحرفين مشابهين لنهاية اسم الرحمن، فإن هذا يجعل معنى هذا الاسم العظيم يخيِّم على السورة كلها، ستشعر بالرحمن في السورة كلها رغم أن لفظها ذُكِرَ مرة واحدة فقط في كل السورة.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾.

تشعر بها كما لو أنها تعني أنه تركه علامة على الطريق، تدل الإنسان على الطريق الصواب وسط مفترقات الطرق.

كما لو أن الثلاثة هنا مرتبطون وظيفيًّا معًا: (القرآن، الإنسان، البيان) وبهذا التسلسل، البيان مهارة إنسانية في الفهم والتدبر، دونها لن يمكن للإنسان أن يعرف علامات الطريق التي في القرآن.

ما هو أول ما سيفهمه الإنسان عبر البيان من القرآن، علامة الطريق؟

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۞ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن ٥: ٧).

التوازن، كل شيء في هذا العالم متوازن ومحسوب، من النبتة الصغيرة إلى النجم، كل شيء بميزان، حتى السماء.

وهذا التوازن هو مفتاح جلسة العلاج النفسية التي نحتاجها جميعًا، والتي تقدمها لنا سورة الرحمن.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن ٨: ٩).

الميزان في كل شيء هو مفتاح السلامة النفسية، أن تسدَّ حاجاتك واحتياجاتك بتوازن، وأن توازن علاقاتك بنفسك وبالآخرين من خلال ميزان يقيس بالقسط، لا تظلم أحدًا ولا تظلم نفسك أيضًا، واعمل على أن يعاملك الآخرون بالميزان، الميزان في كل شيء.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن ١٣: ١٦).

صيغة الخطاب بالمثنى، يمكن أن تُفْهَمَ بأنها خطاب عام للإنس والجن، ولكن هذا الذي جاء إلى سورة الرحمن ليسلِّم لها رأسه المتعب ونفسه المنقوبة بمعارك الحياة اليومية، سيجد أن الخطاب بالمثنى يناسبه، في داخله هناك شخصان يتصارعان، أو يتنازعانه فيما بينهما، أحيانًا تكون الغلبة لواحد منهما، وأحيانًا يكون صراعهما شديدًا، وأحيانًا يتناقشان بصوت مرتفع طيلة الوقت.

تذكّرهما السورة بكل نِعَم الله عليهما معًا، حتى مرج البحرين عندما يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيانَ، كل شيء بالميزان، فبأي آلاء ربكما تكذّبان؟

وبين النعم التي تستخدمها السورة في علاجك تقول لك حقيقة ستهوّن عليك الكثير من أوجاعك: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦: ٢٧).

كل مَنْ عليها فان يا صديقي، كل شيء سينتهي، كل خلافاتنا ومعاركنا ومماراثوتنا اليومي ومنجزاتنا وفشلنا وانتصاراتنا وهزائمنا وخيباتنا وإحباطاتنا وعُقَدنا، كلها ستنتهي كما لو لم تكن، فلا تحمل همها على نحو خارج طاقتك، خارج التوازن والقسط، كل من عليها فان، فهوّن على نفسك.

ستأخذنا رحلة العلاج هذه إلى العقاب والثواب، لا مجاملة في ذلك، لكنها ستترك باب الأمل مفتوحًا أكثر إلى الثواب، آيات وصف الجنة ستكون أكثر، وستكون هناك ضمنها هاتين.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦).

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠).

وتنتهي الجلسة بآية ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٧٨).

بدأت بالرحمن، وانتهت بذي الجلال والإكرام، وبينهما شعرت بالآيات تحتويك وتحتضنك كما احتواك رحم أمك ذات حياة أخرى، ثم أصبحتَ بعدها أكثر قوة على فهم معنى ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

سورة الواقعة ٥٦

تسلق طبقي

بعض المعتقدات الشعبية المنتشرة دون دليل يسندها يجعل من قراءة سور بعينها بعدد محدد من المرات مفيد في تحقيق بعض الأمور.

مثلًا سورة الواقعة تجلب الرزق، لو قرأتها إحدى عشرة مرة.

وسورة الضحى تجعلك تجد الشيء المفقود الذي تبحث عنه منذ ساعات.

لا صحة للأمرين بطبيعة الحال.

لكن سورة الواقعة تساعدك فعلًا في أن تجد نفسك.

بالضبط أن تحدد موقعك الطبقي.

في يوم آخر تمامًا، غير كل ما نعيشه من أيام.

***

في حياتنا الدنيوية، يقسم انتماء الناس اجتماعيًا إلى طبقات بناءً على مستوى دخلهم السنوي.

الطبقة العليا المرفهة التي تملك المال أو السلطة، أو الاثنين معًا في عالم لا يميز كثيرًا بينهما.

في بعض الدول المتقدمة، تسيطر طبقة الـ ١٠٪ العليا على ما هو أكثر من ٧٠٪ من الثروة في البلاد، بينما الـ ١٠٪ التي تليها تحصل على ١٢٪ من الثروة.

الطبقة الوسطى، وتُقَسَّم بدورها إلى «وسطى عليا» و«وسطى دنيا»، وهم يقعون في المنتصف من حيث الدخل بين الأغنياء (الطبقة العليا) والفقراء (الطبقة الدنيا)، وغالبًا يقضي هؤلاء حياتهم في محاولة البقاء في طبقتهم، أو الصعود إلى الطبقة الأعلى، أو على الأقل عدم السقوط إلى الطبقة الأدنى، وتكون هذه المحاولات في حالة نجاحها، مثل الدوران في عجلة هامستر لا تتوقف أبدًا، نسبة هؤلاء من السكان في بعض البلدان قد تبلغ ٤٠٪، وهم يحصلون تقريبًا على ١٥ ٪ من الثروة في البلاد[١].

الطبقة الدنيا هي الطبقة الأفقر، طبقة العمال وصغار الكَسَبة، نسبتهم مقاربة لنسبة الطبقة الوسطى، ٤٠٪ من السكان، ويحصلون على أقل من ١٪ من الثروة والدخل.[٢]

قسمة ضِيزَى بلا شك، ليس فقط بسبب الفجوة الهائلة الموجودة بين الطبقات، ولكن لأن الطبقة العليا قوية بما فيه الكفاية لتضمن بقاء هذه القسمة على ما هي عليه.

***

لكن سورة الواقعة تحدثنا عن تقسيم آخر، تقسيم عادل بمعايير مختلفة عن معايير الدخل والثروة، معايير

---

(١) Wealth inequality in the U, Wikipedia.

(٢) هذه الأرقام أمريكية، وبالتأكيد هناك دول كثيرة تمتلك قدرًا أفضل من توزيع الثروة.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾(الواقعة: ٣).

قد ترى بعض مَنْ كانوا في الطبقة العليا جدًّا في قعر التوزيع الجديد، وقد ترى العكس، قد ترى أن من تصورته سيكون في وضع ممتاز أخرويًّا قد سقط في التقييم، وقد ترى العكس أيضًا، شخص حكم عليه كثيرون دون حق، وجاء الحَكَمُ العدل لينصفه.

وقد ترى غنيًّا تمكَّن من امتلاك الدنيا والآخرة، وفقير خسر الاثنتين معًا.

إنها معايير مختلفة تمامًا، لا يمكن إيجاد مساحة مشتركة فيها مع المعايير السائدة للطبقات دنيويًّا.

***

ثلاث طبقات أيضًا.

ميمنة، مشأمة.

وطبقة «السابقون السابقون» منزلة متقدمة تتفوق حتى على الميمنة.

لا يوجد طبقة وسطى هنا، أو على الأقل ليس بهذا التقسيم.

السابقون السابقون هم أقصى اليمين إن شئتم، لكن الميمنة والمشأمة متجاورتان فيما يبدو.

هل يبدو هذا أمرًا مهددًا لمن في الميمنة؟ ليس بالضرورة، لقد قُضِيَ الأمر، هم في الميمنة في هذا التقسيم، لا شيء سيستأنف هذا الحكم، عليهم الثبات على ما هم عليه.

لكنه أمر واعد وباعث للأمل بالنسبة لمن في المشأمة، المسافة بينهم وبين مَنْ في الميمنة ليست بعيدًا حقًّا، يمكنهم أن يفعلوا شيئًا لكي يغيروا موقعهم الطبقي، الفجوة بين الطبقتين ليست سحيقة كما هي في طبقات الدنيا.

لا أحد منا يعرف موقعه الطبقي الآن، لكن على الجميع أن يعي أن الطبقتين متجاورتان، وأن ذلك فيه إيجابيات وسلبيات، الإيجابية الأساسية هي أن الأمل موجود دائمًا في النجاة، مهما كانت المعطيات تسير في اتجاه آخر، والسلبية الأساسية أن لا أحد محصَّن من الانزلاق إلى الطبقة الدنيا؛ لذا فعلى الجميع التمسك والحذر.

***

ماذا عن «السابقون السابقون»؟

هؤلاء هم الفئة التي تحتل المرتبة العليا، فيهم الأنبياء والقادة والمصلحون، أولئك الذين كانوا الرواد في درب تغيير المجتمعات البشرية، ومهَّدوا الطريق لمن بعدهم في أن تكون حياتهم أكثر عدالة وتوازنًا، في أن يكونوا ضمن الميمنة.

لكن ماذا عن نسب كل من هذه الطبقات؟ بالنسبة لنا، تعوَّدنا أن نقيس احتمالية وجودنا في فئة ما بكونها الأكبر حجمًا، كلما كانت نسبتها كبيرة، زادت احتمالية أن نكون فيها، منطق تعوَّدنا على التعامل معه ومن خلاله.

لكن سورة الواقعة لا توقعنا في فخ توقعات رقمية، بل تعلِّمنا أن نرى الأمر من منظور مختلف.

المقياس هو نسبة كل فئة من «الأولين» ومن «الآخرين»، المعايير التي تحاسب كل فرد ستكون مختلفة بحسب عصره وظروف زمانه، ربك هو الحَكَمُ العدل الذي لن يتعامل مع الأمور كما يتعامل بعض البشر دون مراعاة لتغير الظروف والأحوال، بل هو الذي يقيس كل المتغيرات فلا يظلم أحدًا.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة ١٠: ١٤).

عدد كبير إذن من الأولين، مقارنةً بعددهم من الآخرين، لم يغلق الباب للآخرين تمامًا، ولكن عددهم أقل بالمقارنة بالأولين، لا بأس، هذا أمر مفهوم، فيهم رسل وأنبياء، وقد أُقفلَ هذا التصنيف تمامًا، وفيهم أيضًا مَنْ تأثر مباشرةً بالرسل والأنبياء، وهذا التصنيف قُفلَ أيضًا، وبقي هناك المصلحون والقادة العظام الذين قادوا مجتمعاتهم إلى الأفضل، ورواد أعمال الخير الذين تركوا بصمة في تاريخ الإنسانية، هذا التصنيف لم يُقْفَل، ومنه تكون هذه القلة من الآخرين.

فرصة أن تكون من هذه الفئة قليلة، ولكن فلنكن واقعيين، هذا منطقي جدًّا، نسبة هؤلاء الأشخاص قليلة جدًّا في أي مجتمع، ووجود الأنبياء والرسل - الذين منحوا الإنسانية فرصًا مضافة - هو الذي يجعل هذه الطبقة تحتوي على «ثلة من الأولين».

الأمر مع أصحاب الميمنة سيكون متوازنًا بين الأولين والآخرين.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۞ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة: ٤٠).

هذا كافٍ جدًّا لكي يملأنا بالأمل، هذه الطبقة فيها جمع غفير من الأولين والآخرين، لدينا فرصة أن نكون من أصحاب الميمنة، الآية تفتح لنا الباب على مصراعيه، إذا كانت طبقة «السابقون السابقون» صعبة، فإن هذه ممكنة، ليست سهلة بالتأكيد، لكنها ممكنة.. واقعية.

***

ماذا عن أصحاب الشمال؟

السورة لا تخبرنا عن نسبتهم، لا قليل ولا كثير، لا من الأولين ولا من الآخرين.

هذه المعلومة تُتْرَك عمدًا؛ لكيلا تؤثر علينا ونحن نأمل أن نكون من أصحاب اليمين، أصحاب الشمال على بُعْدِ خطوات، والسورة تخبرنا عما يمرون به، وهذا كافٍ جدًّا لكي يجعلنا نبذل كل ما وسعنا لكي نكون من أصحاب اليمين.

سورة الحديد ٥٧

الإنسان الحديدي

كثيرًا ما نسمع عن «الرجل الحديدي»، «المرأة الحديدية»، وصف يراد به القوة والصلابة، والمضي في تحقيق هدف ما دون الاهتمام بالعواقب.

من أفلام الخيال العلمي والحركة، إلى الحملات الانتخابية، يُستَخْدَم اللقب لوصف هذا النوع أو ذاك من القوة.

سورة الحديد تأخذنا إلى وصف مختلف للقوة، إلى إنسان يدخل الحديد في تكوينه وبنائه، لكن لا يمكن اختزاله إلى هذا المكون فقط، بل هو مكون ضمن عدة مكونات تساهم كلها في صنع هذا الإنسان.

***

أول ما تحدِّثنا به سورة الحديد عن هذه القوة المختلفة، عن هذا الإنسان الجديد قيد التكوين، هو الحديث عن الله الذي يؤمن به هذا الإنسان.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد ٢: ٣).

قدرة مطلقة، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ليس هذا فقط، هو مطلق، أول وآخر وظاهر وباطن، خارج كل المقاييس البشرية المادية، مجرد قدرتك على الإيمان به خارج مفاهيم «التجسيم» و«التمثيل» التي تقيِّد فكرة الإيمان وتجعلها محدودة؛ مجرد إيمانك بهذا يمنحك قوة مختلفة.

هذا الإيمان بالمطلق هو أول ما يمنحك قوة الحديد، حسب المواصفات التي تدلك عليها سورة الحديد.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(الحديد: ٧).

الإنفاق؟ لا، ليس فقط الإنفاق، الإنفاق مما هم مستخلفون فيه، إنهم مسؤولون ومنتجون، وبعد ذلك: منفقون، قوة الإنفاق هنا تتضمن قوة العمل والإنتاج، القوة على مقاومة طبيعة النفس البشرية التي تميل إلى الحرص والشح.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

وهذه القوة ليست مثل قوة حجر الجرانيت الذي لا يكاد يتأثر بشيء، بل هي مثل قوة الحديد، يمكن أن ينصهر، يتمدد، قابل للطَّرْق والسحب والثَّنْي، خشوع الحديد هذا هو عنصر قوة إضافي؛ لأنه بتغيراته هذه يتمكَّن من تكييف نفسه مع تغيرات المحيط من حوله، «الذين أوتوا الكتاب من قبل» ربما كان إيمانهم قويًّا أيضًا، لكنه كان بقوة الحجر الصوان أو

الجرانيت، لا يتفاعل مع المحيط، صلد، يقاوم التغيرات، نعم، لكن إلى درجة معينة، بعدها سينكسر، يتحطم.

الحديد يقاوم وبعدها يتغير، يعيد تشكيل نفسه، لكن يبقى حديدًا.

هذا هو الفرق الحقيقي بين أن تكون قويًّا كالحديد، وبين أن تكون قويًّا كصخر، الحديد قوته مرنة، يتغير كي لا ينكسر، بينما لا يملك الصخر هذه المرونة، فينكسر ويتشظّى.

ربما هذه المرونة هي التي تجعلهم يتعاملون مع الأحداث التي تحيق بهم على هذا النحو:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد ٢٢: ٢٣).

لا أسى على ما مضى، لا عيش على ذكريات الماضي ونواح وندب عليه، بل تمدُّد وطرْق وسحب حسب ما تقتضي التغيرات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥).

الكتاب والميزان ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وبعدهما: الحديد.

كما لو أنك لا يمكن أن تحافظ على القسط، إن لم يكن لديك قوة الحديد، صلابة الحديد، مطاوعة الحديد.

***

لا يمكن الاستغناء عن الحديد في الحياة الإنسانية، حتى أنه يدخل في تكوين كريات الدم.

لكن أيضًا لا يمكن الاستغناء عنه في إيماننا، بل يكون كالعمود الفقري الذي نقف به منتصبين.

اللهم قلِّلْ من نسبة الحجر في إيماننا، وزِدْ من نسبة الحديد...



عن الكاتب

أحمد خيري العمري، ولد في بغداد عام 1970 م، طبيب أسنان وكاتب، له أكثر من 16 كتابا وعشرات المقالات بين الفكر والأدب، عرف بمنحاه التجديدي في الفكر الإسلامي وتأثيره على الشباب. اختير من مركز أبحاث Global Influence السويسري كواحد من ضمن 100 اسم مؤثر في تشكيل الرأي العام في العالم العربي لعام 2017.

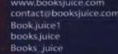
عن الكتاب

لكثيرين منا علاقة شخصية بالقرآن، علاقة شخصية حميمة. هنا كان القرآن شاهدا على حيرتهم، وهنا كان دليلا لهم ليخلصهم منها، هنا كان مرهما لجراحهم، شفاء لأمراضهم، وهنا كان سندا لهم يوم احتاجوا السند، وهنا كان الوتد بوجه العاصفة، وهناك كان البوصلة، الرادار، العكاز الذي استندوا عليه في رحلة اليوم والليلة. لكثيرين منا علاقة شخصية متينة بالقرآن، خاصة بينهم وبينه، نادرا ما يتحدثون عنها لأحد..نادرا ما يبوحون بشيء عنها...

هذا الكتاب هو محاولة لإخراج هذه العلاقة إلى العلن..







www.booksjuice.com
contact@booksjuice.com
Book.juice1
books.juice
Books_juice